

المجلد الرابع
من

لَطَائِفُ الْأَشْيَاءِ

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

قدم له ومفقه وعلم عليه

الدكتور إبراهيم بيوني

صدر له

الأستاذ حسن عباس زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمطبعة

OL 23156.40 (4)

al-Qushayri

Latā'if



p480

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم حدايقها ، وأهل النار أحاط بهم سراديقها ، والحق — سبحانه — مُنْزَهُ عَنْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْدِيبِ هَؤُلَاءِ عَائِدَةٍ ، وَلَا مِنْ تَنْعِيمِ هَؤُلَاءِ فَائِدَةٍ .. جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ ، وَتَقَدَّسَتْ الصَّمَدِيَّةُ .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَبْرَةٌ فِرَاقِنَا ، وَمَنْ خَطَا خَطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ حُطْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحُونَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَه ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرَلْنَا لَهُ رَعْدًا ، وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى سُدَّةِ كَرَمِنَا آوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا ، وَمَنْ شَكَا فِينَا غَلِيلاً ، مَهَّدْنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا ،

عبر الكريم القسبري

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل (١)

قوله تعالى وتقدس : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلمة ما سمعها عابداً إلا شكر عصمته ، وما سمعها سالكاً إلا وجد رحمته ، وما تحققتها عارفٌ إلا تعطر قلبه بنسيم قربته ، وما شهدها موحدٌ إلا تقطر دمه لخوف فرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحان الذي أسرى بعمليه ليلاً من

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الذي باركنا حولَه لئريه من آياتنا

إنه هو السميع البصير ﴾

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه فقال : ﴿ سبحان الذي . . . ﴾ : الحق سبحانه نفسه

بميزر خطابه ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره ، وعن توحده بملو نعوته .

ولما أراد أن يعرف العباد ما خص به رسوله — صلى الله عليه وسلم — ليلة المعراج

من علو ما رآه إليه ، وعظم ما لقاه به أزال الأعجوبة بقوله : ﴿ أسرى ﴾ ، ونفى عن نبيه

خطر الإعجاب بقوله : ﴿ بعبده ﴾ ، لأن من عرف ألوهيته ، واستحقاقه لجمال العز فلا يتعجب

منه أن يفعل ما يفعل . ومن عرف عبودية نفسه ، وأنه لا يملك شيئاً من أمره فلا يعجب

بجعله . فالآية أوضحت شيئين اثنين : نفى التعجب من إظهار فعل الله عز وجل ، ونفى

الإعجاب في وصف رسول الله عليه السلام .

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام — حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة —

(١) يقول السيوطي في الإتقان : « وتسمى أيضاً سورة الإبراء ، وسورة سبحان وسورة بنى

إسرائيل » الإتقان ط الحلبي سنة ١٩٥١ ص ١٤٠ ص ٥٤ .

أما القاضي البضاوي (ص ٣٧٠) فيقول : سورة بنى إسرائيل أو سورة « أسرى » .

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا » (١) ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى بعبده » وليس من جاء بنفسه كمن أسرى به ربه ، فهذا متحملٌ وهذا محمول ، هذا بنعت الفرق وهذا بوصف الجمع ، هذا مرئدٌ وهذا مرادٌ .

ويقال جعل المعراج بالليل عند غفلة الرُفَيَاءِ وَغَيْبَةِ الأَجَانِبِ ، ومن غير ميعاد ، ومن غير تقديم أهبة واستعداد ، كما قيل : (٢)

ويقال جعل المعراج بالليل ليُظْهِرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تَعَجَّبَ وَكَذَّبَ أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تبعده صلى الله عليه وسلم وتهجده بالليل جعل الحق سبحانه المعراج بالليل
ويقال :

ليسلة الوصل أصفى من شهور ودهور سواها

ويقال أرسله الحق — سبحانه — لينعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رققاه إلى السماء لينعلم الملائكة منه آداب العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ البصر وما طغى » (٣) ، فما التفت يميناً ولا شمالاً ، وما طمع في مقام ولا في إكرام ؛ تجرد عن كل طلب وأرب .

قوله : لثريه من آياتنا : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم ككشف بالذات .

ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمنه — سبحانه — شيء في جلاله وجماله ، وعزته وكبريائه ، ومجده وسنائه .

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عرف به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من الخلاق مثله في نبوته ورسالته وعاوٍ حالته وجلال رتبته .

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) هنا شاهد شعري مضطرب في الكتابة ، وأكثر أجزائه سلامة هو : والناس عما نحن فيه بمزول .

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكن نبينا — صلوات الله عليه — كان أوفى — سماعاً ، فإن الشمس في طلوعها وإشراقها تكون أقرب ممن طلعت له من حقائقها .

قوله جل ذكره : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

أى يا ذرية من حملنا مع نوح — على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (. . .) (١) كما في القصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأمر حين دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » (٢) .

ويقال الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ولا يتقاصر عن شكره لنعمة .

ويقال الشكور الذى يشكر بالله ، ينقذ في سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يبيح شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ

(١) مشبهة .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع لها هلاكهم نتيجة نفاذ صبره أو عدم شكره بن حسبما أمره الله ، ولو وضعنا الفاصلة بعد (وأمر) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأمر بالآيمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للتشبرى ، فكل شيء عنده بأمر الله وتوفيقه .

لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾

القضاء هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُستأنفِ منهم وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخبروا به ، وليكون أبلغ في لزوم الحجّة عليهم ، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجدهم ، وليعلموا أن ما سبق به القضاء فلا محالة يحصل وإن ظنّ التباعدُ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿١١﴾

إن الله سبحانه يُمدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٢﴾

يدلُّ على أنه مُقدِّرُ أعمالِ العباد ، ومدبِّرُ أفعالهم ؛ فإنَّ انتصارهم على أعدائهم من جملة أكسابهم ، وقد أُخبر الحقُّ أنه هو الذي تولاه بقوله : « رددنا لكم الكرة عليهم ... »

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
لِيَسْئُرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَمَلُوا تَبَرًّا ﴿١٣﴾

إِنْ أَحْسَنْتُمْ فَنُؤَايِبَكُمْ كَسْتُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَعْدَاؤُكُمْ جَلِيئٌ — وَالْحَقُّ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ
مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ زَيْنٌ أَوْ يَلْحَقَهُ شَيْنٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾

كلمة « عسى » فيها ترجية وإطعام ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ،
والخوف والوجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغفرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجب قوى ؛
فبلفظه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

أى إن عُدْتُمْ إِلَى الزَّلَّةِ عُدْنَا إِلَى الْعُقُوبَةِ ، وَإِنْ اسْتَقَمْتُمْ فِي التَّوْبَةِ عُدْنَا إِلَى إِدَامَةِ الْفَضْلِ
عَلَيْكُمْ وَالتَّوْبَةِ .

ويقال إن عُدْتُمْ إِلَى نَقْضِ الْعَهْدِ عُدْنَا إِلَى تَشْدِيدِ الْعَذَابِ .

ويقال إن عُدْتُمْ لِلْإِسْتِجَارَةِ عُدْنَا لِلْإِجَارَةِ .

ويقال إن عُدْتُمْ إِلَى الصَّفَاءِ عُدْنَا إِلَى الْوَفَاءِ .

ويقال إن عُدْتُمْ إِلَى مَا يَلِيْقُ بِكُمْ عُدْنَا إِلَى مَا يَلِيْقُ بِكُرْمِنَا .

« وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » ، لَأَنَّهُمْ (. . .) (١) وَهْمٌ نَاسٌ كَثِيرٌ فَهِنَّهُ جَهَنَّمَ
وَمِنْ يَسْكُنُهَا مِنَ الْكَافِرِينَ .

و « حَصِيرًا » أَيْ مَحْبَسًا وَمَصِيرًا . فَالْمُؤْمِنُ — وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ ذُنُوبٍ وَإِنْ كَانَتْ
كَبِيرَةً — فَإِنَّ مَنْ خَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَى إِيمَانِهِ فَلَا مَحَالَةَ يَصِلُ يَوْمًا إِلَى غَفْرَانِهِ .

(١) هنا بياض في النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

القرآن يدل على الحق والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كما كبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكن الخلل من جهة المُستدِلِّ لا للدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المُستدِلَّ مُعْرِضٌ ، وبآداب النظر مُخِلٌّ ، فيكون العيبُ في تقصيره لا في قصور الدليل (١) .

القرآن نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ مِنْ ظُلُمَاتِ جَهَنَّمِ ، وخرج من غمار شبكه . وَمَنْ رَمَدَتْ عَيُونُ نَظَرِهِ التَّبَسُّ رُشْدُهُ .

ويقال الحولُ ضَرَرُهُ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ يُبْصِرُ فَيَتَّبِعُ قَائِدَهُ ، وَلَكِنَّ الْأَحُولَ يَتَوَكَّمُ الشَّيْءَ شَيْئِينَ ، فَهُوَ بِتَخَيُّلِهِ وَحِسَابَانِهِ يَمَارِي مَنْ كَانَ سَلِيمًا . . . كَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ إِذَا سَلَكَ طَرِيقَ الْجِدَلِ ، وَلَمْ يَضَعْ النَظَرَ مَوْضِعَهُ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِ جَهَنَّمِ ، وَصَالَ بِبَاطِلٍ دَعَاوَاهُ عَلَى خَصْمِهِ ، كَمَا قِيلَ :

بِأَطْرَافِ الْمَسَائِلِ كَيْفَ يَأْتِي — وَلَا أَدْرِي لَعَمْرُكَ — مُبْطِلُوهَا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاةَ الْغَلِيظِ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَاجِزًا ﴾

من الأدب في الدعاء ألا يسأل العبدُ إلا عند الحاجة (٢) ، ثم ينظر فإن كان شيء لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له ؛ فإن في الخبر (٣) : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . » ثم من آداب الداعي إذا سأل من الله حاجته ورأى تأخيراً في الإجابة ألا يتهم الحقَّ — سبحانه — ويجب أن يعلم

(١) هنا نموذج مصغر لأسلوب القشيري الجدلي .

(٢) وردت (نجاحه) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (الخير) بالياء

أن الخير في ألا يجيبه ، والاستعجالُ — فيما يختاره العبد — غير محمود ، وأولى الأشياء السكونُ والرضا بحُكمه سبحانه ، إن لم يساعده الصبرُ ومآلُ فالواجبُ تركُ الاستعجال ، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا

آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ
فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته ، ودلالةً على وجوب وحدانيته ؛ في تعاقبهما وتناوبهما ، وفي زيادتهما ونقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادة شرطها الدوامُ والاتصال ، والوظائفُ حقها التوفيقُ والاختصاص .

ولو وقع في بعض العبادات تقصيرٌ أو حصلَ في أداءِ بعضها تأخيرٌ تدَارَكُه بالقضاءِ حتى يتَلَفَ التقصيرُ .

ويقال من وجوه الآيات في الليلِ والنهارِ أفرادُ النهارِ بالضياء من غير سبب ، وتخصيصُ الليلِ بالظلامِ بغير أمرٍ مكتسب^(١) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ : وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو في كل ليلة في منزلٍ آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأما الشمسُ فخالها الدوام . . والناسُ كذلك أوصافهم ؛ فأربابُ النسيكِينِ الدوامُ شرطهم ، وأصحابُ التلويحِ التنقلِ^(٢) حَقُّهم ، قال قائلهم :

مازلت أنزل من وداذك منزلاً تتحير الألبابُ دون نزوله

(١) أي أن أفعال الله بمخلوقاته لا تخضع لعله أو سبب ، أو حيلة أو كسب .

(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب في الأحوال . . وليس بالتنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَةٌ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا ﴾

أُزِمَ كُلُّ أَحَدٍ مَا لَيْسَ بِحَيِّدِهِ . فالذين هم أهلُ السعادة أُسْرِجَ لهم مركبُ التوفيق ،
فيسير بهم إلى ساحاتِ النجاة ، والذين هم أهلُ الشقاوة أُرِكِبهم مَطِيَّةَ الخلدان فأَقْعَدَهُم عن
النهوض نحو منهجِ الخلاص ، فوقعوا في وَهْدَةِ الهلاك .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

مَنْ سَاعَدْتَهُ الْعَنَابَةُ الْأَزَلِيَّةُ حُفِظَ عِنْدَ مَعَامِلَاتِهِ مَا يَكُونُ وَإِلَّا عَلَيْهِ يَوْمَ حِسَابِهِ ، وَمَنْ
أَبْلَاهُ بِحُكْمِهِ رَدَّهُ وَأَمَهَلَهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَعَمَلَهُ ، فَإِذَا اسْتَوْفَى أَجَلَهُ عَرَفَ مَاضِيَعَهُ وَأَمَهَلَهُ ، وَيَوْمَئِذٍ
بِحُكْمِهِ فِي حَالِ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا مَحَالَةَ يَحْكُمُ بِنَفْسِهِ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِعَذَابِهِ عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ ..
فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ يَتَجَرَّعُهَا ، وَكَمْ مِنْ خِيبةٍ يَتَلَقَّاها !
ويقال مَنْ حَاسَبَهُ بَكِتَابِهِ فَكِتَابُهُ مُلَازِمُهُ فِي حِسَابِهِ فيقول : رَبُّ ! لَا تَحْسِبْنِي بِكِتَابِي ..
ولكن حَاسِبْنِي بِمَا قَلْتِ : إِنَّكَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ .. لَا تَعَامَلْنِي بِمَقْتَضَى كِتَابِي ؛
ففيه بوارى وهلاكى .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ اهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه ؛ إنْ كانت طاعةً فضيأوها لأصحابها ، وإنْ كانت
زَلَّةً فبلاؤها لأربابها . والحقُّ غنيٌّ مُقَدَّسٌ ، أَحَدِيٌّ مُتَرَدِّدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

كُلُّ مُطَآبٍ بِجَوَابِهِ . وكلُّ نَفْسٍ تَحْمِلُ أَوْزَارَهَا لَا وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى .. « وما كنا

مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا : دلَّ ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا هَاهُنَا تَدْمِيرًا ﴾

إِذَا كَثُرَ أَهْلُ الْفَسَادِ غَلَبُوا ، وَقَالَ أَهْلُ الصَّلَاحِ وَفَقَدُوا ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ (يعمر) ^(٢) اللَّهُ

أَخْلَقَ بِلَاءَهُ ، وَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ مَلْجَأٌ مِنْ أَوْلِيَائِهِ لِيَتَسَكَّلُوا فِي بَابِهِمْ ، وَلَا فِيهِمْ مَنْ يَنْتَهِلُ

إِلَى اللَّهِ فَيَسْمَعُ دَعَاؤَهُ ، فَيَخْتَرِمُ^(٣) أَوْلِيَائِهِ ، وَيُبْقِي أَرْبَابَ الْفَسَادِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ

الْبَلَاءُ وَتَعْظُمُ الْحَيْنُ إِلَى أَنْ يَنْظَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْخَلْقِ نَظْرَ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ

نُوحٍ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ

خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

فِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلْمَظْلُومِينَ إِذَا اسْتَبَطَّوْا هَلَكَ الظَّالِمِينَ ، وَ(. . .)^(٤) قَصَرَ أَيْدِيهِمْ

عَنْهُمْ . فَإِذَا فَكَّرُوا فِيهَا مَضَى مِنَ الْأُمَمِ أَمْثَالُهُمْ وَكَيْفَ بَنَوْا مَشِيدًا ، وَأَمَلُوا بَعِيدًا . . .

فَبَادُوا جَمِيعًا ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَخْرِينَ — عَنْ قَرِيبٍ — سَيَخْرُطُونَ فِي سَلَكِهِمْ ، وَيُؤْتَمَحُّونَ

بِمِثْلِ شَأْنِهِمْ . وَإِذَا أَظْلَمَتْهُمْ سُحْبُ الْوَحْشَةِ فَاغْوَوْا إِلَى ظُلْمِ شُهُودِ التَّقْدِيرِ ، فَتَزُولُ عَنْهُمْ الْوَحْشَةُ ،

وَتَطْيِبُ لَهُمُ الْحَيَاةُ ، وَتَحْصُلُ الْهَيْبَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيُدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا

مَا نَشَاءُ لِمَنْ يَرْيُدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾

(١) نظن أن القشيري يريد بذلك أن يرد على بعض أهل الكلام الذين يقولون إن الله يعذب الناس على ذنوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولاً لأن عقل الإنسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .

(٢) وردت (يعمر) بالعين والصواب أن تكون بالفاء لأن السياق يتطلب ذلك .

(٣) وردت (فيحترم) بالياء والسياق يتطلب أن الله (يحترم) أوليائه أي يأخذهم إليه .

(٤) مشتبهة ، وترجيح أنها كلمة تؤدى إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِيَ بِالْحِظِّ الْخَاسِسِ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا بَقِيَ عَنِ نَفْسِ الْآخِرَةِ مَا نَمَّ لَا يَحِطُّ
إِلَّا بِقَدْرِ مَا اشْتَمَهُ ، ثُمَّ يَكُونُ آتِسًا مَا بِهِ قَلْبًا وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِ سَكُونًا . . ثُمَّ يُحْتَطَفُ
عَنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا يَخْصُهُ شَيْءٌ مِمَّا جَمَعَ مِنْ كَرَامَتِهِ ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ قُرْبِهِ فِي الْآخِرَةِ . . وَلَقَدْ قِيلَ :

يَا غَافِلًا عَنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ إِنْ لَمْ تَبَادِرْ فَهُوَ الْفَوْتُ
مَنْ لَمْ تَزَلْ نِعْمَتُهُ عَاجِلًا أزاله عَنْ نِعْمَتِهِ الْمَوْتُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا ﴾

علامة مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا ؛ فإِرَادَةُ الْآخِرَةِ
إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْعَمَلِ لَهَا كَانَتْ مَجْرَدَ إِرَادَةٍ ، وَلَا يَكُونُ السَّعْيُ مَشْكُورًا . قوله : « وَهُوَ
مُؤْمِنٌ » : أَى فِي الْمَالِ كَمَا أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ . وَيَقَالُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَنْ نَجَاتِهِ بِفَضْلِهِ لَا بِسَبَبِهِ .
« فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » أَى مَقْبُولًا ، وَمَعَ الْقَبُولِ يَكُونُ التَّضْعِيفُ وَالتَّكْثِيرُ ؛
فَكَمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ يَرْبِيهَا كَذَلِكَ طَاعَةُ الْعَبْدِ يُكثِّرُهَا وَيُنْمِيهَا .

قوله جل ذكره ﴿ كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ
رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

يَجَازِي كَلَّا بِقَدْرِهِ ؛ فَلِقَوْمِ نَجَاةٍ وَقَوْمِ دَرَجَاتٍ ، وَقَوْمِ سَلَامَةٍ وَقَوْمِ كِرَامَةٍ ، وَقَوْمِ
مَثُوبَةٍ ، وَقَوْمِ قَرِيبَةٍ .

قوله جل ذكره ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴾

التَّفْضِيلُ عَلَى أَقْسَامٍ ، فَالْعُبَادُ فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي زَكَاةِ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَارِفُونَ
فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي صِفَاءِ أَحْوَالِهِمْ ، وَزَكَاةِ الْأَعْمَالِ بِالْإِخْلَاصِ ، وَصِفَاءِ الْأَحْوَالِ

بالاستخلاص ؛ فقومٌ تفاضلوا بصدقِ القَدَمِ ، وقومٌ تفاضلوا بعلوِّ الهِمَمِ . والتفضيل في الآخرة أكبر : فالعُبَادُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَرَوْنَ أَهْلَ عَالَمِينَ كَمَا تَرَوْنَ السُّكُوكِبَ الدَّرِيِّ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ مِنْهُمْ ﴾

وأهلُ الحضرةِ تفاضلهم بلطائفهم من الأُنسِ بنسيمِ القربةِ بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمزَ يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرةً في الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيبِ كلِّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه يراه بالعين التي بها يراه صاحبه ، وأنشد بعضهم (١) :

لو يسمعون — كما سمعتُ حديثها خرواً لِرِزَّةٍ رُكَّعاً وسجوداً

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ

مذموماً مخذولاً ﴾

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ اللَّهِ ، ومخذولاً من قِبَلِ (مَنْ) (٢) عِبَادِهِ

من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

وبالوالدين إحساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ

السَّكِينَةَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

لَهُمَا أُفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لهُمَا

قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

أَمْرٌ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن

يكون مغلوباً بامتيازِ سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يحفظه عن شهودِ عبادته (٣) .

وأمرٌ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حَقِّهما ، والوقوف عند إشارتهما ، والقيام بخدمتهما ،

(١) البيت لكثير صاحب عزة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسيناق يتطلبها ، والخذلان ناجم عن أن أي معبود غير الله لا يملك لمن يعبد نفسه ولا يدفع عنه ضراً .

(٣) فأخلاص العبد في التحقق بحفظه عن التقصير في أمور الشريعة .

وهلازمة ما كان يعود إلى رضاها وحسن عشرتها ورعاية حُرْمَتَيْهَا ، وألا يبدى شواهد التكسل عند أوامرها ، وأن يبذل المُكْسَفَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما . . . هذا في حال حياتهما ، فأماً بعد وفاتهما فيصدق الدعاء لهما ، وأداء الصدقة عنهما ، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه ، والإحسان إلى من كان من أهل ودّهما ومعارفهما .

ويقال إنَّ الحقَّ أمرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد . . . فَمَنْ عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ جَنْسِهِ أَيْ لَهُ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّ رَبِّهِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَأخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾

إخفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ بِحَسَنِ الْمَدَارَةِ وَلَيْنِ الْمَنْطِقِ ، وَالْبِدَارِ إِلَى الْخِدْمَةِ ، وَسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ ، وَتَرْكِ الْبِرَمِّ بِمَطَالِبِهِمَا ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِمَا ، وَالْأَتَدَخُّرِ عَنْهُمَا مَيْسُورًا .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

إِذَا عَلِمَ اللَّهُ بِصِدْقِ قَلْبِ عَبْدٍ أَمَدَّهُ بِحَسَنِ الْأَجْمَادِ ، وَأَكْرَمَهُ بِجَمِيلِ الْإِمْتِدَادِ (١) ، وَيَسَّرَ عَلَيْهِ الْعَسِيرَ مِنَ الْأُمُورِ ، وَحَفِظَهُ عَنِ الشَّرُورِ ، وَعَظَفَ عَلَيْهِ قُلُوبَ الْجُمْهُورِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْدُرْ تُبْدِيرًا ﴾

إِيْتَاءَ الْحَقِّ يَكُونُ مِنَ الْمَالِ وَمِنَ النَّفْسِ وَمِنَ الْقَوْلِ وَمِنَ الْفِعْلِ ، وَمَنْ نَزَلَ عَلَى اقْتِضَاءِ حَقِّهِ ، وَبَذَلَ السُّكْلَ لِأَجْلِ مَا طَالِبُهُ بِهِ مِنْ حَقِّهِ . فَهُوَ الْقَائِمُ بِمَا أَلْزَمَهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بِأَمْرِهِ .

(١) أي الاستدامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن في نظر التشيبي ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظَّ النَّفسِ — وإن كان
محمسةً — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاءُ بالنَّفسِ — فهو تقصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشَّيَاطِينِ لأنهم أنفقوا على هوائهم ، وجروا في طريقهم على دواعي
الشَّيَاطِينِ ووساوسهم ، ولما أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشَّيَاطِينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ
رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾

إن لم يسأعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوك من الإحسان فاصرفهم عنك بوعيدٍ جميلٍ
إن لم تسعفهم بنقدٍ جزيلٍ .. وَإِنَّ وَعْدَ الْكِرَامِ أَهْنَأُ مِنْ نَقْدِ الْتَّامِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْضُورًا ﴾

لَا تُتَمَسِّكْ عَنِ الْإِعْطَاءِ فَتُسْكَدِي (٢) ، وَلَا تُسْرِفْ فِي الْبَدْلِ بِكَثْرَةٍ مَا تُسَدِّي ، وَاسْلُكْ
بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ طَرِيقًا وَسَطًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا ﴾

إِذَا بَسَطَ لَا تَبْقَىٰ فَاقَةٌ ، وَإِذَا قَبِضَ اسْتَنْفَدَ كُلَّ طَاقَةٍ (٣) .

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (التام) فيها يقوى المعنى وتستقيم المقابلة .

(٢) تسكدى أى تبخل ، قال تعالى : « وأعطى قليلاً و أكدى » .

(٣) واضح أن التشيرى يوجه الإشارة إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ بِخُشْيَةِ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِلَّا كُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانِ
خَطْنًا كَبِيرًا ﴾

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ خَفَّ عَنْ قَلْبِهِ هُمُ الْعِيَالُ (١) — وَإِنْ كَثُرُوا ، وَمَنْ خَفِيَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ قَسَمٌ — قَبْلَ الْخَلْقِ — أَرْزَاقَهُمْ تَطْوَحُ فِي مَتَاهَاتٍ مَغَالِبِيَّةٍ ، فَيَقَعُ فِيهَا بِالْقَلْبِ
وَالْبَدَنِ ثُمَّ لَا يَكُونُ غَيْرَ مَا سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

تَرْجِيحُ (٢) الزَّنا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ حُرْمَةِ الْحَقِّ ، وَهَتْكَ حُرْمَةَ
الْخَلْقِ ، ثُمَّ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِخْلَالِ بِالنَّسَبِ ، وَإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ (٣) مِنْ مَقْتَضَى الْأَنْفَةِ وَالغَضَبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

لَا يَجُوزُ قَتْلُ نَفْسٍ غَيْرِ الْغَيْرِ بِالْحَقِّ ، وَلَا لِلْمَرْءِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ أَيْضًا بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَكَمَا أَنَّ
قَتْلَ النَّفْسِ بِالْحَدِيدِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الْأَلَاتِ مُحْرَمٌ فَكَذَلِكَ الْقَصْدُ إِلَى هَلَاكِ الْمَرْءِ مُحْرَمٌ .
وَمَنْ أَتَمَّكَ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّهِ فَقَدْ سَمِيَ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ . « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
سُلْطَانًا » : أَيْ تَسَلَّطًا عَلَى الْقَاتِلِ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِنْهُ ، وَعَلَى مَعْنَى الْإِشَارَةِ : إِنْ النُّصْرَةَ
مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ؛ وَمَنْصُورُ الْحَقِّ لَا تَنْكَسِرُ سِنَانُهُ ، وَلَا تَطْيِشُ سِهَامُهُ (٤) .

(١) وردت (القبائل) بالناف وهي خطأ في النسخ .

(٢) ترجيح = زاد ونقل .

(٣) وردت (البين) وهي خطأ في النسخ

(٤) وردت (شهامه) بالشين وهي خطأ في النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾

لَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْيَتِيمِ مَنْ يَهْتَمُّ بِشَأْنِهِ أَمَرَ — سبحانه — الأجنبي الذي ليس بينه وبين اليتيم
سَبَبٌ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُ ، وَيَقُومَ بِشَأْنِهِ ، وَأَوْصَاهُ فِي بَابِهِ ، فَالصَّبِيُّ قَاعِدٌ بِصِفَةِ الفِرَاغِ وَالمُهَوَّبِيُّ (١) ،
وَالوَلِيُّ سَاعِدٌ بِمُقَاسَاةِ العَمَلِ . .

فَأَمَرَ الحَقَّ — سبحانه — لِلوَلِيِّ أَحْظَى للصَّبِيِّ مِنْ شَفَقَةِ آلهِ عَلَيْهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا
بِالقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

كَأَنَّ تَدِينَ تَدَانٍ ، وَكَأَنَّ تَعَامِلَ نُجَازَى ، وَكَأَنَّ تَكِيلَ يُكَالُ لَكَ ، وَكَأَنَّ تَكُونُونَ يَكُونُ
عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ وَفَى وَفَوَّاهُ ، وَمَنْ خَانَ خَانُوا مَعَهُ ، وَأَنْشَدُوا :

أَسَانَا فَنَسَاءُوا . . عَدَلٌ بِالْحَيْفِ وَلَوْ عَدَلْنَا لَخُصَّمْنَا مِنَ المِحَنِ

قوله جل ذكره ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْكَ مَجْمُوزَاتُ الظَّنُونِ ، وَلَمْ يُطْلِعْكَ الحَقُّ عَلَى اليَقِينِ فَلَا تَتَكَلَّفِ الوُقُوفَ
عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ بَرهَانَ ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الوَقْتِ فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ
لَا حَاقَ لِقَلْبِكَ وَجْهٌ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى حَدِّ الِاتِّبَاسِ فَكَيْلُ عِلْمِهِ إِلَى اللَّهِ ، وَقِفْ حَيْثُمَا وَقَفْتَ .

(١) المهوبى = الخفض والدعة .

(٢) ما يقوله القشيري في حالة اليتيم ينصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيخه ؛
فالمريد يجد من شيخه مالا يجده عند ذويه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأشباح .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالخلق أَنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحابُ الحقِّ يجرى عليهم بحكم التصريف شيءٌ لا علم لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَفُ لهم وجهه ، وربما يجرى على ألسنتهم شيءٌ لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانٌ ما قالوه ، ودليلٌ ما نطقوا به من شواهد العلم^(١) .

قوله : « إن السمع والبصر هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومن استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف السلامة، واستحق المدح والكرامة . ومن دَسَسَهَا بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾

الخيلاء والتعجب ، والمدح والتكبر — كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر ، والحجة عن شهود الحق ؛ فإنَّ اللهَ إذا تجلَّى لشيءٍ خضع له — بذلك وَرَدَ الخبر . فأما في حال حضور القلب واستيلاء الذكر وسلطان الشهود . فالقلب مُطْرَقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غَالِبٌ . ونمتُ المدح وصفة الزهو وأسبابُ التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناسُ — في الإخلاص من صفة التكبر — أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبار إذ عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج ، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من سهامهم من بقايا طعامهم وشراهم .. تعلوهمهم عن التضييق والتدنيق^(٢) ، ويبعدُ عن قلوبهم قيامُ أخطارٍ للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التعجب .

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأى القشيري في التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب القشيري في « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يفهموا في مسائل الفقه إفتاءً يُعْتَبَدُ به حتى لو كان أحدهم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شبان الراعي مع الشافعي وابن خنبل) .

(٢) تدنيق البخل = بالغ في التضييق في النفقة .

وأما أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا الخناس النفس ، وفي معناه قالوا :

إذا ما بدا لي تعاضته فأصدر في حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ

مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ

رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ

مَلُومًا مَدْحُورًا * ﴿

إذا سَدَّتْ الأقدامُ بحضورِ ساحاتِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسمارُ بنسيمِ القربِ تجرَّدتْ

الأوقاتُ عن الحجة ، واستولى سلطانُ الحقيقة ، فيحصل التنقُّ من هذه الأوصاف المذمومة .

وقال تعالى لنبيه : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ : بالوحى والإعلام ،

ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا * ﴿

جَوَزُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ — سبحانه — وَلَدٌ ، وفكروا في ذلك ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا

له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا في تَمَرُّدِهِمُ إلا عُدَّةً ، وفي طفانيهم إلا غُلُوبًا ،

وعن قبول الحقِّ إلا نُبوًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا يَسْتَعِينُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا *

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوبًا

كَبِيرًا * ﴿

بَيِّنَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَى بَيْنَهُمْ تَصَادُفٌ وَتَمَانُعٌ ، وَصَحَّ عِنْدَ ذَلِكَ

فِي صِفَتِهِمُ الْعَجْزُ ، وَذَلِكَ مِنْ سِمَاتِ الْمَحْدَثَاتِ .

ثم قال سبحانه — تنزيهاً له عن الشريك والظهير ، والمعين والتنظير :

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّمِيعُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ له تَسْبِيحًا قَالَهُ (١) ، وغير الأحياء يسبح
من حيث البرهان والدلالة . وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ،
ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجهلهم وتَعَسَّرَ إدراكهم — وأنكروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ .

أى أدخلناك في إيواءِ حِفْظِنَا ، وضربنا عليك سَرَادِقَاتِ عَصْمَتِنَا ، ومنعنا الأيدي
الغاطئةَ عندك بِلُطْفِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ رَبِّكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهٖ وَلَوْ أَعْبَاهُمْ
نَفُورًا ﴾ (٢) .

صَرَّحَ بأنه خَالِقُ ضَلَالَتِهِمْ ، وهو المُنْتَبِتُ في قُلُوبِهِمْ مَا اسْتَكَنَّ فِيهَا مِنْ فِرْطِ غَوَايِمِهِمْ (٣) .
« وَإِذَا ذُكِرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهٖ . . . أَحْبَبُوا أَنْ تَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ ، قد ختم الله على
قُلُوبِهِمْ ، فلا حَدِيثٌ يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِنْ لَمَمٍ شَكْلٌ وَمِثْلٌ .

(١) وردت (ماله) بالميم والصواب أن تكون (قالة) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والنطق .
(٢) يمكن أن تكون (نفورا) مصدرًا من نَسَفَرَ يَنْفِرُ أى ولى ، ويمكن أن تكون جمع نافر
كقاعد وقعود .
(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة يبنى على أصل في مذهب التشيبي — نوهنا به سابقاً —
وهو أن الله خالق كل شيء — على الحقيقة — حتى أكساب العباد ، هي له حكما ولهم فعلا .

قوله جل ذكره: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾

لَبَسُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ — صلى الله عليه وسلم — أحوالهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، ففضَّحهم اللهُ تعالى ، وكشفت أسرارهم ، وبَيَّنَّ مقاصدهم ، وهتَكَ أَسْتَارَهُمْ ، فما تنطوى عليه السريرة لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ لِأَهْلِ البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّةِ .

قوله جل ذكره: ﴿ أُنظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ

فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

عابوه بما ليس بنقيصةٍ في نفسه حيث قالوا : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » أى ذَا سِحْرِ . وأى نقيصة كانت له إذا كان — صلى الله عليه وسلم — من جملة البَشَرِ؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولٍ نصرته ، ولم يكن تخصيصةً ببنِيَّةٍ ، ولا بصورة ، ولا بجزئية ، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بَأَنَّ شرفه جملة ما تعلق به لطفه القديم — سبحانه — ورحمته .

قوله جل ذكره: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

أَإِنَّا لَمَبْمُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

أَقْرَبُوا بِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهِمْ ، ولكن . . كما جاز أن يوجدَهم أولاً وهم في كَهِم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر ، ولكنهم كانوا في تناول القدرة ومتعلق الإرادة ، فمن حقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدهم إلى الوجود مرة أخرى . وهكذا إذا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبٍ لم يستبصر صاحبه .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا قُلْ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ (١)

إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه لا ينصى عليه مقدور لأنه موصوف بقدرته أزلية ، وقدرته عامّة التعلق ، فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرظاهية . فالخلق الأول والإعادة عليه سيّان ، لا من هذا عائد إليه ولا من ذاك ، لأن قدمه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ

وَتَقْنُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبد على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم في قبورهم — في نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ،

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

مُبِينًا﴾

القول الحسن ما يكون للقاتل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المحب بعبودية محبوبه .

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجرم ، وأحسن قول من العازنين الإقرار

بالمعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ۝ .

(١) ينفضون رؤوسهم أى يمحركونها تمجيداً واستنزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ بِرَحْمِكُمْ
 أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴾

سَدَّ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ لِيَتَمَلَّقَ كُلُّ قَلْبِهِ بِرَبِّهِ . وَجَعَلَ الْعَوَاقِبَ عَلَى أَرْبَابِهَا
 مُشْتَبِهَةً ، فَقَالَ « رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ » . ثُمَّ قَدَّمَ حَدِيثَ الرَّحْمَةِ عَلَى حَدِيثِ الْعَذَابِ ، فَقَالَ :
 « إِنَّ يَشَأُ بِرَحْمِكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ » ، وَفِي ذَلِكَ تَرْجُّحٌ لِلْأَمَلِ أَنَّ يَقْوَى .

وَيُوصَفُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ وَيُوصَفُ الرَّبُّ بِالْعِلْمِ ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ يَعْلَمُ ظَاهِرَ حَالِهِ ، وَعِلْمُ الرَّبِّ
 يَكُونُ بِجَالِهِ وَبِمَا لَهُ ، وَلِهَذَا فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا
 مَعْنَى : « إِنَّ يَشَأُ بِرَحْمِكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ » بَعْدَ قَوْلِهِ : « أَعْلَمُ بِكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
 بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

فَضَّلَ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ فِي النَّمُوَةِ وَالدرَجَةِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ وَاللِّطَائِفِ وَالْخِصَائِصِ .
 وَجَعَلَ نَبِيَّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَفْضَلَهُمْ ؛ فَهَمَّ كَالنَّجُومِ وَهُوَ بَيْنَهُمْ بَدْرٌ ، وَهَمَّ كَالْبَدْرِ
 وَهُوَ بَيْنَهُمْ شَمْسٌ ، وَهَمَّ شَمْسٌ وَهُوَ شَمْسُ الشَّمُوسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
 وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

اسْتَعِينُوا فِيمَا يَسْتَقْبِلُكُمْ ^(١) بِالْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدْتُمْ، وَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى تَتَحَقَّقُوا
 أَنَّهُ لَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَةُ شَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا يَضُرُّكُمْ تَرْكُ ذَلِكَ ، وَلَقَدْ قِيلَ فِي الْخُبَرِ : « مِنْ
 حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » ^(٢)

(١) أَيْ مَا يَسْتَقْبِلُكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ
 (٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْنَى وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَحْمَدُ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ؛ وَالمُسْكِرِيُّ
 عَنْ عَلِيٍّ ، وَأَوْضَعَهُ الشَّيْخَانُ فِي تَخْرِيجِ الْأَرْبَعِينَ .

قوله جل ذكره: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إنَّ عذاب ربك كان محذوراً ﴾

يعنى الذين يعبثونهم ويدعونهم — كالمسيح وعزير والملائكة — لا يملكون نفماً لأنفسهم ولا ضراً ، وهم يطلبون الوسيلة إلى الله أى يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحصان الله ، وطمئناً فى رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه فى أحوال أنفسهم ؟

ويقال فى المثل : تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجونٍ بسجون .

ويقال : إذا انضمَّ الفقير إلى الفقير ازدادا فاقةً .

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً فى البئر ، وفى معناه أنشدوا :

إذا التقى فى حدبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير
وسَّيروا بعضهم قائداً فكأنهم يسقط فى البير

قوله جل ذكره: ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذى يردُّ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يردُّ على القلوبِ والسرائرِ ؛ فعذابُ القلوبِ لأصحابِ الحقائقِ أحدٌ فى الشدةِ مما يصيب أصحابِ الفقرِ والقلَّةِ .

ثم إنَّ الحقَّ سبحانه أجرى سنته بأنَّ من وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها ، وبخلاف ذلك من وصلت منه إلى غيره وحشةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها .

وَمَنْ سَامَ (١) النَّاسَ ظُلْمًا وَخَسَمًا فَبِقَدْرِ ظُلْمِهِ يَعَذِّبُهُ اللَّهُ — سبحانه وتعالى — في الوقت بتفويض العيش ، واستيلاء الغضب من كلِّ أحدٍ عليه ، وتترجم ظنونه وتقسّم أفكاره في أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لعلم ما طعم الحياة . . ولكن حرموا النعم ، وما علموا ما منوا به من النقم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآياتِ

إلا أن كذبَ بها الأولون وأتيننا

نمود الناقة مبصرة فظلهوا بها ﴾ (٢)

أجرى الله سنته أنه إذا أظهر آية اقترحتها أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يعجل لها العقوبة ، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يجتاح العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول — عليه السلام — لأجل من في أصلاهم من الذين علم أنهم يؤمنون ؛ فلذلك أخرج عنهم العذاب الذي تعجلوه (٣) .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإن لم يخافوا وقع عليهم العذاب . ثم إنه علم أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فأخرج العذاب ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حكمه وعلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس

وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة

للناس والشجرة الملعونة في القرآن

(١) وردت (سام) بالصاد وهي خطأ في السسخ .

(٢) اختار من الآيات التي اقترحتها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آتار هلاكهم قريبة من حدودهم يصرها صادرم وواردم .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها (. . . ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (جبلين يحيطان بمكة) فقال النبي (ص) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده الله وحده لا يشاركه شيئا) .

وَنُحِّوهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا ﴿١﴾

الإيمان بما خَصَّصْنَاكَ به امتحان لهم وتكليف ، ليميز الصادق من المنافق ، والمؤمن من الجاحد ، فالذين تَدَارَكْتَهُمُ الحمايَةُ وقفوا وثبتوا ، وصدَّقوا بما قيل لهم وحققوا . وأما الذين حَاَمَرُ الشكُّ قلوبَهُمْ ، ولم تبشِّرْ خلاصَةَ التوحيد أسرارَهُمْ ، فما ازدادوا بما امتحِنُوا به إلا تَجْبُرًا وضلالًا وتَبَلُّدًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

امتنع الشقُّ وقال : لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً ، ولحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لو عقلت به ذرَّةً من المعرفة والتوحيد لم يحطب (٢) على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنه أقامه الحقُّ بذلك المقام ، وأنطقه بما هو لقلبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِحٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * ﴾

(١) الرؤيا المقصودة هي التي سبقت يوم بدر ، وفيها بُشِّرَ بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فسخروا منه . وربما كانت رؤيا المعراج عند من قال إن المعراج كان في المنام .

والشجرة الملعونة هي الرقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها تثبت شجرة ! فجعلوها سخريه

(٢) حَطَبَ = جَبَّى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه .

وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ
وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْمِكَ وَرَجَبِكَ
وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ،
وَعِدُّهُمْ وَمَا يُعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ الْأَعْرُورَ ﴿١﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بالأمر والنفوت ، ولو أخرج عقوبة قومٍ فإن ذلك إهمالٌ لا إهمال ، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ .

« واستفز من استطعت منهم بصوتك » : أى إفعال ما أمكنتك ، فلا تأثير لفعلك في أحد ، فإنَّ المُنشِئ والمُبدِع هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم^(١) ، ولا حجة للعدو على أحد ، بل الحجة لله وحده .
ويقال السلطان هو التَّسَلُّط ، وليس لإبليس على أحد تسلط ، إذ المقدر بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحدوث كلها تحدث بقدرة الله ؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » الخواص من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلِ اللَّهِ ، فإن وساوس الشيطان لا تضرُّهم لالتجأهم إلى الله ، ودوام استجارتهم بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إنَّ فرار^(٢) الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أسرٍ غيره ، وأمَّا مَنْ استعبده هوواه ،

(١) العموم هنا معناها الكفاية أى الخواص وغير الخواص .

(٢) وردت (فرار) بالقلب وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكننت منه الأطماع ، واسترقته^(١) كل خسيصة وتقيسة فلا يكون من جملة خواصه . .
وفي الخبر « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار »^(٢)

ويقال في « عبادى » هم المتفسيئون فى ظلال عنايته ، المتبرون عن حولهم وقوتهم ،
المتفردون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلق به .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْغُلُوكَ
فِي الْبَحْرِ لَتُبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

تعرف إلى عباده بخلقه وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو ظللٍ أو غيرِ
إلا وهو شاهدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كُفُورًا ﴾

جِيلَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ نَعْمَةٌ ، أَوْ مَسَّتْهُ مِحْنَةٌ فَنَزَعَ^(٣) إِلَى اللَّهِ لَاسْتِدْفَاعِهَا ،
وَقَدْ يُعْتَقَدُ أَنَّهُمْ لَنْ يَعُودُوا بَعْدَهَا إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ رِضَاءُ اللَّهِ ، فَإِذَا أزالَ اللَّهُ تِلْكَ
النَّعْمَةَ^(٤) وَكَشَفَ تِلْكَ الْمِحْنَةَ عَادُوا إِلَى مَا عَنَهُ تَابُوا ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي ضَرٍّ مَسَّهُمْ ،
وَفِي مَعْنَاهُ أَنشَدُوا :

فكم قد جهلتم ثم عدنا بحلمنا
أحباءنا كم تجهلوننا ونحن مسلمنا

(١) وردت (ويسرقه) ولا معنى لها هنا .

(٢) فى رسالة التشيرى من ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . . تعس عبد الحمصة) .

(٣) وردت (فرغ) بالراء والأفضل أن تكون بالزاي .

(٤) وردت (النعمة) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبُرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ
لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ
أَنْ يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ فَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِ تَبِيعًا﴾

الغوفُ ترقبُ العقوبات مع مجارى الأنفاس — كذلك قال الشيخ (١) . وأعرفهم بالله
أخوفهم من الله . ووصوفُ العذابِ كثيرة ؛ فمك من مسرورٍ أولَ ليلِهِ أصبح في شدَّةٍ ؛
وكم من مهومٍ بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكال النعم ؛ وفي معناه قالوا :
إن من خاف البيات لا يأخذهُ الشُّبَات . ووصفوا أهل المعرفة فقالوا :

مستوفزون على رجلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاكُمْ فِي الْبُرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا﴾ .

المراد من قوله : « بنى آدم » هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار : « وَمَنْ يُرِنِ اللَّهُ
فَالَهُ مِّنْ مُّكْرَمٍ » (٢) . والتكريم التكريه من الإكرام ، فإذا حرم الكافر الإكرام ..
فمضى يكون له التكريم ؟

ويقال إنما قال : « كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتماع

(١) هذه العبارة للجنيد كما جاء في رسالة التشبيري ص ٦٥ في رواية أبي عبد الله الصوفي عن علي بن
إبراهيم العكبري .
(٢) آية ١٨ سورة الحج .

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فعلٍ ، أو مُعلَّلاً بِعِلَّةٍ ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يُوجبُ ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خَاطِبُهُ ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرر منه جُرْمُهُ ثم توبته يضاعف له قبوله التوبة وعفوه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قوله وإن عَلِمَ أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيْنَ ظاهرهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَنَ باطنهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا في الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني » .

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم : « فاذكروني أذكركم »^(١) ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خصَّ بنى آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريم مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »^(٢) و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »^(٣) وقوله « والذين آمنوا أشد حبا لله »^(٤) .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »^(٥) .

(١) آية ١٥٢ سورة البقرة .

(٢) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .

(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .

(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه .
 ومن التكريم لقوم توفيقُ صدقِ القَدَم ، ولقوم تحميقُ علوِّ الهِمَم . قوله : « وحملناهم
 في البرِّ والبحر » : سمَّخ البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسمَّخ البرَّ لهم حتى قال :
 « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

ويقال محمولُ الكرام لا يقع ، فإن وقع وجدَّ من يأخذ بيده .
 ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جهراً^(١) ، والإشارة بمحدث البحر
 ما أفردهم به من لطائف الأحوال سرّاً .

ويقال لما حملَ بنو آدم الأمانة^(٢) حملناهم في البر ، فحملُّ هو جزاء حملٍ ، حملُّ هو فعلٌ
 من لم يكن^(٣) وحملُّ هو فضلٌ من لم يزل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق ؛ فمن لم يكن
 غائباً بقلبه^(٤) ولا غافلاً عن ربه استطاب كلَّ رزقٍ ، وأنشدوا :

يا عاشقِ إنِّي سعِدْتُ شراباً لو كان حتى علقماً أو صاباً

قوله : « وفضلناهم على كثيرٍ من خلقنا تفضيلاً » : أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثيرٍ ،
 وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ من خلقنا ،
 وذلك التفضيل في الخلقة . ثم فاضلَ بين بني آدم في شيء آخر هو الخلق الحسن ، فجَمَعَهُم في
 الخلقة — التي يفضلون بها سائر المخلوقات — وما يَزَّ بينهم في الخلق .

ويقال : « كَرَّمْنَا بني آدم » : هذا اللفظ للعموم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ،
 وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، فَفَضَّلَ أوليائه على كثيرٍ ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية .

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جهراً) لتقابل سرّاً) وبذلك يقوى السياق ويتناسك .
 (٢) وردت (الاهانة) بلغاء ومن المؤكد أن الميم التبتت على الناسخ والمراد (الأمانة) إشارة
 إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .
 (٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .
 (٤) هيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم يغيب عن إحساسه
 بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضلهم بالألّا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقراز ، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أَوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يُظلمون فتيلاً ﴾

إمام كلُّ أحدٍ مَنْ يفتدى به ، ولكن .. من إمام يهتدى به مُقتديه ، ومن إمام يتردّى به مقتديه .

« فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لسكّالِ صحوهم وقيادة عقولهم ، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخورفهم وتردّدهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصلُّ سبيلاً ﴾

في الآخرة أعمى عن معابنه ببصيرته .

في الآخرة عذابه الفرقة وتضاف إليها الخرقّة — لهذا فهو « أصلُّ سبيلاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذى أَوْحينا إليك لَتَفْتَرى علينا غيرَه وإذاً لا تُخذوك خليلاً ﴾

ضربنا عليك سرادقات العصمة ، وأويناك في كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك ، فالزلة منك محال^(١) ، والافتراء في نعمتك لا يجوز . . ولو جئحت لحظة إلى الخلاف لتضاعفت عليك تشديدات البلاء ، لسكّالِ قدرِك وعلو شأنك ؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجة فدنيته — لو حصل — أشدُّ تأثيراً .

(١) وردت (مجال) بالجيم وهي خطأ في النسخ ، ومن قول القشيري يتضح أنه يؤيد عصمة الأنبياء من الزلات .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُدَمِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذْنُكَ
ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ تَمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

لو وكلناك ونفسك ، ورفعنا عنك^(١) ظلَّ العصمة لألممت بشيء مما لا يجوز من مخالفة
أمرنا ، ولكننا أفردناك بالحفظ ، فلا تنقصر عنك آثاره ، ولا تقربُ عن ساحتك أنواره .
قوله : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ . . . الآية ﴾ هبوطُ الأَكْبَرِ على حسب صعودهم ، ومِحْنُ الأَحْيَةِ
وَإِنْ قَلَّتْ جَلَّتْ ، وفي معناه أنشدوا :

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غَضُّ أجبانها على الأقداء

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ
الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا
لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

مَنْ ظَنَّ (أَنَّهُ يَسْتَمْتَعُ بِحَيَاتِهِ بَعْدَ مَضَى الأَعْيُورِ)^(٢) وَالْأَكْبَرُ غَلِطَ فِي حِسَابِهِ ، وَإِنْ
الْحُسُودُ لَا يَسُودُ :

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ خُضُوها (ويجهد أن يأتي لها)^(٣) بضرب

والأرض كلها ملكٌ لنا ، ونُقَلِّبُ أوليائنا في تردادهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، تردداً
على بساطنا ، وتقلباً في ديارنا ، فالبقاع لهم سواء ، وأنشدوا :

(فَسِرْ أَوْ أَقِمِ)^(٤) وَقَفُّ عَلَيْكَ مَحَبَّتِي مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

-
- (١) وردت (عليك) والملائم للسياق أن تكون (عنك) .
(٢) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٣) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدِ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ

رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَهُ مع الأولياء بالإِنعام ، ومع أعدائه بالإِدغام^(١) ، فلا لهذه

أو هذه تحويل .

قوله جل ذكره: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى

غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

الصَّلَاةُ قَرَعُ بَابِ الرِّزْقِ . وَالصَّلَاةُ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ .

وَالصَّلَاةُ اعْتِكَافُ الْقَلْبِ فِي مَشَاهِدِ التَّقْدِيرِ .

ويقال هي الوقوف على بساط النجوى . وفَرَّقَ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ لِلْعَبْدِ عَوْدٌ إِلَى

البساط في اليوم والليلة مرات .

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ : تشهدُه ملائكة الليل والنهار — على لسان العلم .

وَأَمَّا عَلَى لِسَانِ الْقَوْمِ فَإِنَّ قُرْآنَ الصَّبْحِ — الَّذِي هُوَ وَقْتُ إِتْيَانِهِ — يُبْعَدُ مِنَ النَّوْمِ

وَكَسَلِ النَّفْسِ فَلَهُ هَذِهِ الْمُرْتَبَةُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِه نَافِلَةً لَّكَ

عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

اللَّيْلِ لِأَحَدِ اقْوَامٍ : لِطَالِبِي النِّجَاةِ وَهُمْ الْعَاصُونَ مَنْ جَنَحَ^(٢) مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ ، أَوْ لِأَصْحَابِ

الدرجات وهم الذين يجتهدون في الطاعات ، ويسارعون في الخيرات ، أَوْ لِأَصْحَابِ الْمُنَاجَاةِ مَعَ

المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبية .

ويقال الليل لأحد رجلين : للهطيع والمعاصي : هذا في احتيال أعماله ، وهذا في اعتذاره

عن قبائح أفعاله .

(١) أدغمه الله إدغاماً أى سود وجهه وأذله (الوسيط) .

(٢) وردت (نجح) وهي خطأ في النسخ .

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود ، ويقال الشهود .
 ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خصَّ به — صلى
 الله عليه وسلم^(١) — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبُّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
 وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي
 مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾

أى أدخلني إدخال صدقٍ وأخرجني إخراج صدقٍ . والصدق أن يكون دخوله في الأشياء
 بالله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لا لغيره .
 « واجعل لي من لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » : فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
 الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

أراد بالحقُّ ما هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشرك ، والحقُّ المطلق هو
 الموجود الحق ، والحقُّ المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل تقيض الحق .
 واللهُ حقٌّ : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحَقِّقُ الحق^(٢) .
 ويقال الحقُّ ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .
 ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطل ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
 وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
 إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء ، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين ، وشفاء من داء

(١) إضافة من جانبنا حتى يتضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما تراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

النكرة للمعارفين ، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للمريدين
والقاصدين ، وأنشدوا :

وَكُتُبِكَ حَوْلِي لَا تَفَارِقُ مَضْجِعِي وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلذِّي أَنَا كَاتِبُهُ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ
واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةٌ وشفاء ، ولقومٍ سخطٌ وشفاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد
فهو لهم شفاء ، وقومٌ أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ .

إذا زرعنا عنه موجبات الخوف ، وأرخينا له حبل الإمهال ، وهياً ناله أسباب الرفاهية
اعتزته مغاليط النسيان ، واستولت عليه دواعي العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد
عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضه في هذا الموضوع نسياناً ، ورؤية الفضل منه لا من الحق ، وتوهمه أن
ما به من النعم فباستحقاق طاعة أخلصها أو شدة قاساها . . وهذا في التحقيق شرك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فِرْبَكُمْ
أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

كُلٌّ يترشح بمودع باطنه ، فالأسيرة تدل على السريرة ، وما نُكِنَتْ الضمائر يلوح
على السرائر ، فمن صفات الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا نشر مناقبه ، ومن طبيعت
على الكدورة طينته فلا يشم من يحوم حوله إلا ريح مثالبه .

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخبرُ عن بواطن السرائر .
ويقال حَبُّ (. . .) (١) لا يُنْبِتُ غُضَّ العود .

(١) مشبهة .

ويقال من عَجَزَتْ بِمَاءِ الشُّقْوَةِ طِينَتُهُ ، وَطُعِمَتْ عَلَى النَّكَرَةِ جِبَلْتُهُ لَا تَسْمَحُ بِالتَّوْحِيدِ قَوْلِيحْتُهُ ، وَلَا تَنْطِقُ بِالتَّوْحِيدِ عِبَارَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغْلَطُوهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِلَفْظٍ يُفِيصِحُّ عَنْ أَقْسَامِ الرُّوحِ ؛ لِأَنَّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ « الرُّوحِ » يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب ، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق الحمودة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرُّؤية والأذُنُ محلَّ السَّمْعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجملة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْسُ ، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)^(١) .

وفي الجملة الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده .

والروح لطيفة تفررت للكافة طهارتها ولطافتها ، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسبيح ، وصفاء المواصلات ، والتعريف من الحق .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَشَاهِدِ الرُّوحَ بِبَصَرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ شِدْنَآ لَنَدُهْبَنٍ بَالذِّي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَآتِيْجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

(١) ما بين القوسين مضطرب اضطراباً شديداً في النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة التشيرى فاعتدنا عليها في تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُنَّةُ الْحَقِّ — سبحانه — مع أحبائه وخواص عبادِه أن يُدِيمَ لهم افتقارهم إليه ، ليكونوا في جميع الأحوال مُتقادين لجرِيانِ حُكْمِهِ ، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِهِ ، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبه — صلوات الله عليه — بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك » : (فمن كان استقلالة بالله يقدم)^(١) مراد سيده — في العزل والولاية — على مراد نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

والمقصود (من هذا إدامة تَقَرُّدِ سِرِّهِ)^(٢) صلى الله عليه وسلم به — سبحانه — دون غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(سائر الأنبياء)^(٣) معجزاتهم باقية حُكْمًا ، ونبيينا — صلى الله عليه وسلم — معجزته باقية عينًا ، وهي القرآن (الذي نلوه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه)^(٤) ولا من خلفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

لا شيء أخطى عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضنى ، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البلاء ، وفي معناه أنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لسكانها من النسخ ، وقد أثبتنا كلا في موضعه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا
 مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ
 لَكَ جَبَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
 الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ
 السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا
 أَوْ تَأْتِي بَالِهًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا
 * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ
 أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ
 لِرُؤْيَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
 نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ
 إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

اقترحوا الآيات بعد إزاحة العلة وزوال الحاجة ، فرَكضوا في مضار سوء الأدب ،
 وحُرموا الوصلة والقربة . ولو أُجيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُهداً ونكرة ،
 وقد قيل :

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا حَبَاكَ بُوْدُهُ سَتَرَ الْقَبِيحَ وَأَطْهَرَ الْإِحْسَانَ
 وَكَذَا الْمَوْلُ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : قل يا محمد : سبحان ربى ! من أين لى
 الإتيان بما سألتم من جهن ؟ فهل وُصِفى إلا العبودية ؟ وهل أنا إلا بشر ؟ قال تعالى :
 « لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثْ
 اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تَعَجَّبُوا (١) مما ليس بمحلِّ شُبُهة ، ولكن حَمَلَمَ على ذلك فَوَظُّ جَهَنَّمَ ، ثم أَصْرُوا على تكذيبهم وجحدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُظْمِئِينَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولاً ﴾

الجنسُ إلى الجنس أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آسُسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ مَلَائِكَةً لَجَعَلْنَا الرُّسُولَ إِلَيْهِمْ مَلَكَاً ، فلَمَّا كانوا بَشَرًا فلا ينبغي أن يُسْتَعْمَدَ إِرْسَالُ البَشَرِ إلى البَشَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقَاسُ حُكْمُهُ على حُكْمِ الخَلْقِ ، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أن يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاته ذاتُ الخالقِ لا تشبه صفةُ صفةِ الخلقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنصِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وجوههم عُمِيّاً وَبُكْمياً وَصُمّاً مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾

من أرادَه بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آياده بأفضاله ، ومن عَلِمَه في الأزَل بالشقاءِ وَصَحَه في أبده بِسِمَةِ الأعداءِ . فلا لِحُكْمِهِ تحويل ، ولا لِقَوْلِهِ تبديل .

(١) وردت (تعجبوا) والمعنى يقتضى (تعجبوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكْ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
 وَقَالُوا أَإِنذَا كُنْتُمْ عِظَامًا وَرُفَاتًا
 أَإِنَّمَا لِمَعْنُونِ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

لَمَّا أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ جَزَاءَهُمُ الْحَقُّ بِإِدَامَةِ تَعْذِيبِهِمْ ، وَلَوْ سَاعَدَهُمُ التَّوْفِيقُ لَوُجِدَ
 مِنْهُمْ التَّحْقِيقُ ، لَكُنْهُمْ عَدِيمُوا التَّأْيِيدِ فَخَرَّ مَوَا التَّوْحِيدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ
 يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَارِيبَ
 فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

مَهْدٌ بِهِذِهِ الْآيَةُ طَرِيقُ إِثْبَاتِ الْقِيَاسِ ^(١) ، فَلَمْ يَغَادِرْ فِي الْكِتَابِ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ
 لَمْ يُؤَيِّدْهُ بِالذَّلِيلِ وَالْبَيِّنِ ^(٢) ، فَعَلِمَ السُّكُّ أَنَّ الرُّكُونَ إِلَى التَّقْلِيدِ عَيْنُ الْخَطَا وَالضَّلَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
 رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
 وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

إِذِ الْبُخْلِ غَرِيزَةُ الْإِنْسَانِ ، وَالشَّحُّ سَجِيَّتُهُ [(. . .)] ^(٣) الْمَعْرُوفُ لَا يَعْرِفُ الْخَلْقَةَ ^(٤)

(١) من هذا نعرف أن القشيري مؤمن بأهمية القياس العقلي ضمن ما هو معروف من مصادر الشريعة
 وفي هذا رد على من يهتم الصوفية بالتنسك للعقل ، مع أنهم حريصون كل الحرص على تصحيح الإيمان
 في مراحل البداية عن طريق الوسائل العقلية .

(٢) ربما كانت (البرهان) بدل (البيان) ، فالبرهان أقرب إلى (الدليل) وإلى (القياس) كما أن
 البيان — في مذهب القشيري المعرف — مرحلة قلبية وليست عقلية .

ومع ذلك فقد يكون المقصود أن كتاب الله لم يغادر شيئاً إلا أبده (بالدليل العقلي) و (البيان) القاطي .

(٣) هنا بياض في الأصل :

(٤) ما بين القوسين الكبيرين ورد هكذا وفيه غموض ناتج عن سقوط ما سبق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ ﴿

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

مَسْحُورًا ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلْهُوَ لَاءِ

إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿

أنت — يا فرعون — سلكت طريق الاستدلال فَعَلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا من قِبَلِ اللَّهِ ، وَلَسْتَ بِرَكْنِكَ رَكْنَتَ إِلَى الْعَفْطَةِ فِي ظِلْمَاتِ الْجَهْلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ

فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿

أراد فرعونُ إهلاكَ بني إسرائيل واستئصالهم ، وأراد الحقُّ — سبحانه — نصرتهم

وبقاءهم ، فكان ما أراد الحقُّ لا ما كاد الاعمين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿

أورثهم منازلَ أعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكْرَ

نعمة ، وعرفهم أنهم إن سلَكُوا فِي الْعَصِيَانِ مَسَلِكَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ ذَاقُوا مِنَ الْعُقُوبَةِ

مثل عقوبتهم .

(١) عن ابن عباس أنها العصا واليَد والجِراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي

نقته على بني إسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور .

قوله جل ذكره: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا
 وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
 وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ
 عَلَى مُكْتَفٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

القرآن حق ، ونزوله بحق ، ومُؤْتَلُهُ حق ، والمُنزَلُ عليه حق ، فالقرآن بحق نزل ومن
 حق نزل وعلى حق نزل . وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيَهَيِّئَ عَلَيْهِ — صلوات الله عليه — حِفْظَهُ ،
 وليكثر تردد الرسول من ربه عليه ، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً
 على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا
 يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
 سُجَّدًا﴾ * ويقولون سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ
 كُنَّا وَعَدُ رَبَّنَا لِمَفْعُولًا﴾ .

إِنَّ آمَنْتُمْ حَصَلَ النِّعْمُ لَكُمْ ، وَإِنْ جَعَلْتُمْ فِي إِيمَانٍ مَنْ آمَنَ مِنْ أَوْلِيَانَا عَنْكُمْ
 خَلَفُ ، وَإِنَّ الضَّرَرَ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ .

وَإِنَّ مَنْ أَحْضَانَا عَلَيْهِمْ شَمْسَ إِقْبَالِنَا لَتَشْرِقُ أَنْوَارُ مَعَارِفِهِمْ ؛ فَإِذَا تَلَيْتْ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا سَجَدُوا بِدَلِّ جُحْدِهِمْ ، وَاسْتَجَابُوا بِدَلِّ تَمَرْدِهِمْ ، وَقَابَلُوا بِالتَّصَدِيقِ مَا يُقَالُ لَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
 خُشُوعًا﴾ .

تأثيره في قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصر ، وتأثير السماع

في أنوار الموحدين بالتحير^(١)؛ تبشّر العلماء بصحة الاستدلال، وتخير الموحدين في شهود
الجمال والجلال .

وبكاه كل واحد على حسب حاله : فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أسلفه من زلته
وحوّبه ، والمطيع يبكي لتقصيره في طاعته ، والسكيلا يفوته ما يأمله من ميسره .

وقوم يبكون لاستنباهم عاقبتهم وسابقتهم عليهم .

وآخرون بكأؤهم بلا سبب متعين . وآخرون يبكون تحميراً على ما يفوتهم من الحق .

والبكاء عند الأكبر معلول^(٢)، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل ، وفي معناه أنشدوا:

خَلِقْنَا رَجُلًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى وَتِلْكَ الْغَوَانِي لِلْبُسْكَ وَالْمَسَاتِمِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ

أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

من عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تنزّههم بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد
أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة ، ومن مأنس إلى مأنس .

ويقال الأغنياء ترددهم في بسايتهم ، والأولياء تنزههم في مشاهد تسييحهم ، يستروحون
إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا

وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

لا تجهر بجميعها ، ولا تخافت بكها ، وارفع صوتك في بعضها دون بعض .

ويقال ولا تجهر بها جهراً يسمعه الأعداء ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء .

« وابتغ بين ذلك سبيلاً » : يكون للأحباب مسموعاً ، وعن الأجانب ممنوعاً .

(١) ليس (التحير) هنا ناجماً عن الشك ، وإنما ناجم عن شدة الوله وحنف الأخذ .

(٢) لأن الأكبر في حال التمسكين لا التلويح .

ويقال « ولا تجهر بصلاتك » : بالنهار ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليُّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ
تَكْبِيرًا ﴾ .

إِحْمَدُهُ بِذِكْرِ تَقْدِسِهِ عَنِ الْوَالِدِ ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ وَلَا وِليُّ لَهُ مِنَ الذَّلِّ ؛ إِمَّا عَلَى أَنَّهُ
لَمْ يَنْدَلَّ فَيَحْتَاجُ إِلَى وِليٍّ ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُوَالِدْ أَحَدًا مِنْ أَجْلِ مَنَدَلَةٍ بِهِ فَيُدْفَعُهَا بِوَالِدَاتِهِ . وَيَقَالُ
أَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ عَرَّفَكَ بِذَلِكَ .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعترهم بِذَلَّتِهِمْ ، إِذْ يَصِيرُونَ بِعِبَادَتِهِ أَعِزَّةً .
« وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا » بَأَنَّ تَعَلَّمَ أَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ بِهِ لَا بِتَكْبِيرِكَ .

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

مَا سَمِعَتْ الْقُلُوبُ إِلَّا بِسْمَاعِ اسْمِ اللَّهِ ، وَمَا اسْتَنَارَتْ الْأَسْرَارُ إِلَّا بِوَجُودِ اللَّهِ ،
وَمَا طَرِبَتْ الْأَرْوَاحُ إِلَّا بِشُهُودِ جَلَالِ اللَّهِ .

سماع « بسم الله » راحة القلوب وضيؤها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

« بسم الله » قُوتُ الْعَارِفِينَ ؛ بِهَا يَزُولُ كُدُّهُمْ وَعِنَاؤُهُمْ ، وَبِهَا اسْتَقْلَامُ وَبِقَاؤُهُمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسمة في أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فنوا عن أنفسهم لبقائهم بالله .

إِذَا جُمِلَ «الْحَمْدُ» هُنَا عَلَى مَعْنَى الشُّكْرِ فَانزَالُ الْكِتَابِ مِنْ أَجْلِ نِعْمِهِ ، وَكِتَابُ الْحَبِيبِ لَدَى الْحَبِيبِ أَجْلٌ مُوقِعٌ وَأَشْرَفُ جُمْلٍ ، وَهُوَ مِنْ كَلِمَاتِ إِعْنَامِهِ عَلَيْهِ ، وَإِنْ سَمَّاهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَبْدَهُ فَهُوَ مِنْ جَلَائِلِ نِعْمِهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مِنْ سَمَّاهُ عَبْدَهُ جَعَلَهُ مِنْ جَمَلَةِ خَوَاصِّهِ .

وَإِذَا جُمِلَ «الْحَمْدُ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَعْنَى الْمَدْحِ كَانَ الْأَمْرُ فِيهِ بِمَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ — سُبْحَانَهُ ، بِأَنَّهُ الْمَلِكُ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحُكْمُ بِمَا يَرِيدُ ، وَأَنَّهُ أَعَدَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلْعَبِيدِ ، وَسَمَّاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَهُ لَمَّا كَانَ فَايئاً عَنْ حَظْوَلِهِ ، خَالِصاً لِلَّهِ بِقِيَامِهِ بِحَقْوَقِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ ﴾

« قِيمًا » : أَيْ صَانَهُ عَنِ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ ، فَهُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ مِنْ رَبِّ عَزِيزٍ .

« وَالبَأْسِ الشَّدِيدِ » : مُعْجَلُهُ الْفِرَاقُ ، وَمَوْجَلُهُ الْإِحْتِرَاقُ .

وَيَقَالُ هُوَ الْبَقَاءُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْإِبْتِلَاءُ بِغَضَبِ اللَّهِ .

وَمَعْنَى الْآيَةِ لِيُنذِرَهُمْ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ .

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا يَصْلِحُ لِلْقَبُولِ ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ . وَيَقَالُ الْعَمَلُ

الصَّالِحُ مَا كَانَ بِنِعْمَتِ الْخُلُوصِ ، وَصَاحِبُهُ صَادِقٌ فِيهِ .

وَيَقَالُ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَمَجِلُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ حَظًّا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَخْذِ عَوَاضٍ ، أَوْ قَبُولِ جَاهٍ ،

أَوْ انْقِدَادِ رِيَاسَةٍ . . . وَمَا فِي هَذَا الْمَعْنَى .

وَحَصَلَتِ الْبَشِيرَةُ بِأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، وَالأَجْرُ الْحَسَنُ مَا لَا يَجْرَى مَعَ صَاحِبِهِ اسْتِقْصَاءً

فِي الْعَمَلِ .

وَيَقَالُ الأَجْرُ الْحَسَنُ مَا يَزِيدُ عَلَى مَقْدَارِ الْعَمَلِ .

وَيَقَالُ الأَجْرُ الْحَسَنُ مَا لَا يُدَكَّرُ صَاحِبَهُ تَقْصِيرَهُ ، وَيَسْتَرِ عَنْهُ عِيُوبَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿ مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُبْدَاءٌ ﴾

البشارة منه أن تلك التَّم على الدوام غير منقطعة ، وأعظم من البشارة بها قوله (١) :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾

الملم به من علمٍ ولا لأبائهم كَبُرَتْ

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ

إِلَّا كَذِبًا ﴾

قالتهم التَّبِيحَةُ نَتِيجَةُ جَهْلِهِمْ بوحدايةِ الله ، ولقد توارثوا ذلك الجبلَ عن أسلافهم ؛
والْحَيَّةُ لَا تَلِدُ إِلَّا حَيَّةً ۝

كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ لَمَّا خَسَّتْ فِي الْمَعْنَى . وَمَنْ نَطَقَ بِمَا لَمْ يَحْصِلْ لَهُ بِهِ إِذْنُ لِحَقِّهِ هَذَا
الْوَصْفِ . وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلَ أَوَانِهِ فَقَدْ دَخَلَ فِي غِمَارِ هَوْلَاءِ (٢) .

قوله جل ذكره: ﴿ فَذَلِكُنَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

مِنْ قَرْطِ شَفَقَتِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — دَاخَلَ الْحَزْنَ لِامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ ،
فَهَوَّنَ اللَّهُ — سَبْحَانَهُ — عَلَيْهِ الْحَالَ ، بِمَا يَشْبَهُ الْعِتَابَ فِي الظَّاهِرِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : لِمَ كَلَّ هَذَا ؟
لَيْسَ فِي امْتِنَاعِهِمْ — فِي عَدْنَا — أَثَرٌ ، وَلَا فِي الدِّينِ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ . . . فَلَا عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ .

ويقال أشهدده جريان التقدير ، وعرفه أنه — وإن كان كفرهم منهياً عنه في الشرع —
فهو في الحقيقة مراد الحق .

قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يفر أن يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء .

(٢) في هذه الإشارة غمزة بمن يتطوون — بدعوى الحو — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ
بالأسرار . وإنَّ قِيَمَةَ الأوطانِ لَقَطَانُهَا ، وزينة المساكن في سُكَّانِهَا .

ويقال العباد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينة الأرض وهم أمانٌ من في الأرض .

ويقال إذا تلالأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضياءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَبْلُوَهُمْ أَهْلَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

أحسنهم عملاً أصدقهم رتبةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً ، إذ لا ثواب لمن لا حسبة له ، وأعلى من يُهدأ بل
وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدهم استصغاراً لفعله ، وأكثرهم استحقاقاً لطاعته ، لشدة
رؤيته لتقصيره فيما يعمله ، ولانقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرء نظرُهُ إلى أعماله بيمين الاستحقاق والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأكبرُ من فعله وأعظمه تصغيرُهُ فعله الذي فعله

معناه : أكبرُ من فعله — الذي هو عطاؤه وبدلُهُ — تقليله واستصغاره إما يُعْطِيه

ويجود به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا

جُرُزًا ﴾

كُونُ ما على الأرض زينة لها في الحال سلب قدره بما أخبر أنه سيفنيه في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ

والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا ﴾

أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربه بقوله : « من آياتنا » ؛ فقلب العادة
من قيل الله غيرُ مُسْتَنَكِرٍ ولا مُبْتَدِعٍ .

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال: « أصحاب الكهف » ،
ولنفوس محالٍ ، ولقلوب مقارٌ ، وللهم مجال ، وحيثما يتكف يُطلبُ أبداً صاحبه (١) .

ويقال الإشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم ؛ فإلك أعجب في ذهابك إلينا في شطر من
الليل حتى قاب قوسين أو أدنى (٢) ، وهم قد بقوا في الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

أوامهم إلى الكهف بظاهرم ، وفي الباطن فهو مقيلمهم في ظلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم
عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم (٣) .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتينا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً » :
أى أنهم أخذوا في التبري من حوالم وقوتهم ، ورجعوا إلى الله بصديق فآقتهم ، فاستجاب لهم
دعوتهم ، ودفع عنهم ضرورتهم (٤) ، وبوأهم في كنف الإيواء مقيلا حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِم فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من
حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحذية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذي يتكف فيه .
(٢) يشير التشبهي بذلك إلى المنزلة الرفيمة التي وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإسراء
والمعراج ، وكيف أنه انتهى في ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف في سنين .
(٣) واضح أن التشبهي يبالغ قصة أهل الكهف في ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من التنازع
التي يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التي تقب فيها العادة ، ويحار فيها العقل .
(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يلزم الإنسان من طعام وشراب ومخلص من بقاياها . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ أَيُّ الْحَزِينِ
أَحْصَىٰ لِمَا كَانُوا يَمْدُونَ ﴾

أى زدناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم ، وأقنأهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم
عن شواهدهم بما أقنأهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

لَمَّا كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ تَوَلَّى الْحَقَّ — سبحانه — أَنْ قَصَّ عَنْهُمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ
كَانَ عَنْ نَفْسِهِ وَأَوْصَافِهِ قَاصًّا ؛ لِبَقَائِهِ فِي شَاهِدِهِ وَكَوْنِهِ غَيْرَ مُنْتَفٍ بِجَمَلَتِهِ . . . وَبَيْنَ مَنْ كَانَ
مَوْصُوفًا بِوَأَسْطَةِ غَيْرِهِ ؛ لِفَنَائِهِ عَنْهُ وَامْتِحَانِهِ مِنْهُ وَقِيَامِ غَيْرِهِ عَنْهُ .

ويقال لا تُسَمِعُ قِصَّةُ الْأَحْبَابِ أَعْلَى وَأَجَلَّ مِمَّا تُسَمِعُ مِنَ الْأَحْبَابِ ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :
« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » ، وَأَنْشَدُوا :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّنِي حَنِينًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله : « إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ » : يُقَالُ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا — عَلَى الْوَهْلَةِ —
بِرَبِّهِمْ ، آمَنُوا مِنْ غَيْرِ مَهَلَةٍ ، لَمَّا أَتَتْهُمْ دَوَاعِي الْوَصْلَةِ (١) .
ويقال فِتْنَةٌ لِأَنَّهُمْ قَامُوا لِلَّهِ ، وَمَا اسْتَقَرُّوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى
قُلُوبِهِمْ ﴾

لِإِطْفَافِهِمْ بِإِحْضَارِهِمْ ، ثُمَّ كَاشَفَهُمْ فِي أَسْرَارِهِمْ ، بِمَا زَادَ مِنْ أَنْوَارِهِمْ ، فَلَقَّاهُمْ أَوْلَى
التَّبْيِينِ ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِالْيَقِينِ .

(١) لاحظ أهمية ذلك في فهم معنى (الفتوة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى منع نهار^(١) معارفهم ، واستنضات شمس^٢ تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ في خواطرهم ، و (...)^(٢) في التجريد أسرارهم ، وتمت^٣ سكينَةُ قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفيناهم عن الأغيار ، وأغيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجس^٤ التخمين ولا وسوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومن قام بالله فقد عمّا سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فصَحَّ قيامهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ .

من أحوال الشيء على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ

بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا ﴾

(١) متوع النهار اصطلاح بأن في مذهب القشيري بعد اللوائح والطوالع والواعم ، وهو يلتق مع المعنى من حيث اللفظ (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشتبهة وهى قرية في الرسم من (واتخذوا) ومصوبة في الهامش (واتخذوا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهى على العموم كلمة تنفيذ خلوص أسرارهم في التجريد وإلا لما حدثت سكينَةُ قلوبهم .

لما لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبهم، فن اكنفى بنفى القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معاول فى نحلته .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ » فن ذكر فى الدين قولاً لم يؤيد ببرهان عقلى أو نقلى فهو مفترٍ ، ومن أظهر من نفسه حالاً لم يوجهه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذي يصدق فى قوله — فى هذه الطريقة — فهو الذى يسمع من الحق بسرّه ، ثم ينطق بلفظه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ اعْتزَلْتُمُوهُمَا وَمَا يَمْبُدُونَ إِلَّا

اللَّهُ ، فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ

لَكُمْ رَيْبَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ

مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿٢٠﴾

العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُمِدَ من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهد لهم مشوى فى كهف عنايته .

ويقال من تبرأ من اختياره فى احتياله ، وصدق رجوعه إلى الله فى أحواله ، ولم يستعن — بغير الله — من أشكاله وأمثاله آواه إلى كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهياً له محلاً يتفيؤ فيه فى برد ظلاله ، بكال إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزاورُ (٢)

عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة فى قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها فى بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهى هل يقصح الصوفي الواله أم يكتم ؟ ونلاحظ أن التشبى ربط القضية بمنصر أساسى هو الصدق . . .

(٢) تزاور من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصدق .

تَقْرَضُهُمْ (١) ذات الشمال وهم في فجوة
منه ذلك من آيات الله ﷻ

كانوا في مُتَسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب
الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تنقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم (٢) .

إن نورَ الشمس ضياءٌ يستضيءُ به الخلقُ ، ونور معارفهم أنوار يُعرَفُ بها الحق ،
فهذا نور يظهر في الصورة ، وهذا نور يلوح في السريرة . وبنور الشمس يدرك الخلق وبنورهم
كانوا يعرفون الحق .

وفي قوله — عزَّ اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف
العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمس إذا انتهى إليهم
ازورَّ عنهم ، ومضى دونهم بخلاف (٣) ما يقول أصحاب الهبة ، ليكون فعلاً ناقضاً للعادة
فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُستهلكُ في النور الذي عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ
فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾

فإنه يَهْدِي قومًا بالأدلة والبراهين ، وقومًا بكشف اليقين ؛ فمعارفُ الأولين قضية
الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم
أصحاب عيان :

« وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ : أَي مَنْ وَسَمَهُ بِسِمَةِ الْحِرْمَانِ فَلَا عِرْفَانَ وَلَا عِلْمَ وَلَا إِيمَانَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رِقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ

ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

(١) تقرضهم أى تقطعهم أى تتركهم وتعزل عنهم .

(٢) بالإضافة إلى أنوارهم أى إذا قيست بانوارهم .

(٣) أى هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق التشبى

(أصحاب الهبة) هذا الوصف عليهم فى « لطائفه » ، لهذا نهى إليه .

هم مسلوبون عنهم ، مُحْتَضَفُونَ منهم ، مُسْتَهْلِكُونَ فيما كُوشِفُوا به مِن وجود الحق ؛
فظاهرهم — في رأى الخلق — أنهم بأنفسهم ، وفي التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوُّ
فيما كُوشِفُوا به من الحقائق .

ثم قال : « وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » : وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم ؛
فلا كَشْفَةَ الأَمهات بل أتم ، ولا كَرَحَةَ الآباء بل أعزُّ . . . وبالله التوفيق .

ويقال إن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق — سبحانه — في صفة أصحاب الكهف :
« وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » فهمُ بشواهد الفرقِ في ظاهرهم ، لكنهم بعين الجمع
بما كُوشِفُوا به في سرائرهم ، يُجْرِي عليهم أحوالهم وهم غير متكلِّفين ، بل هم يثبتون
— وهم خموذٌ عما هم به — أن تصرفاتهم القائمُ بها عنهم سواهم ، وكذلك في نطقهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَلَبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَكَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾

كما ذَكَرَهُمْ ذَكَرَ كَلَبَهُمْ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي حُبِّهِ أَحَدٍ أَحَبَّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ
وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ .

ويقال كلبٌ حُطَّاءٌ مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان — بل الحق يقول بقوله
العزیز — : « وكَلَبَهُمْ بِاسِطٍ . . . » فهل ترى أن مُسَالِمًا يصحب أوليائه من وقت شبابه
إلى وقت مشيبه برده يوم القيامة خائبًا . ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعى الذى تبعهم والكلب معه : إصرف هذا الكلب
عنَّا . . . فقال الراعى : لا يمكننى ، فإنى أنا دينه .

ويقال أنطق الله سبحانه — الكلبَ فقال لهم : لِمَ تصرَّبوننى ؟

فقالوا : لِتَصْرِفَ عَنَّا .

فقال : لا يمكننى أن أنصرف . . لأنه ربانى .

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال « وكَلَبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ

(١) فتنق العبد الواله وتصرفه يكونان بالله . . . تذكر قصة الخلاج .

بالوصيد . . . فهل إذا رَفَعَهَا مُسَلِّمٌ إِلَيْهِ خَمْسِينَ سَنَةً تَرَى بِرُدِّهَا خَائِبَةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صَحَّحَهُمُ الْكَلْبُ لَمْ تَضُرَّهُ نَجَاسَةُ صَفِيَّتِهِ ، وَلَا خَسَاسَةُ قِيَمَتِهِ .

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا «سيقولون : ثلاثة رابعهم كلهم» ، أو خمسة سادسهم كلهم فقد قال في صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . .

وشتان ماها !

ويقال كُلُّ يُعَامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته ؛ فالأولياء قال في صفتهم : « وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ، والكلب قال في صفته : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كرر ذكرهم ، كرر ذكر كلهم .

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم ينصرف عنا أن نَحْمِلَهُ حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قدمه فملوه ، فكانوا في الابتداء (بل إياه) (1) وصاروا في الانتهاء مطاياها . . كنا من اقتنى أثر الأحاب .

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم ، وبنطقه ربط على قلوبهم بأن ازدادوا يقيناً بسمع نطقه ، فقال : لم تضربوني ؟ فقالوا : لننصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائى في الحال .

ثم إن بلاءكم الذى تخافون أن يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الكلب محله ولم يجاوز حدّه فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . . كنا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ اَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ

فِرَارًا وَلَمَلِكْتِ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

(1) وردت هكذا وترجح أنها (بلاياه) بدليل ما سيأتى بعد ذلك :

(وأنتم بلائى في الحال) . .

الخطاب له — صلى الله عليه وسلم . والمرادُ منه غيره .

ويقال لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتهم من حيث شهودت لوليت لهم ابقيت على حالك .

ويقال لو اطلعت عليهم وشاهدتهم لو كنت منهم فراراً من أن تُردَّ عن على منزلتك إلى منزلتهم ؛ والغنى إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فر منه ، ولم تطب به نفسه . « ولملت منهم رعباً » بأن يُسلب عظيم ما هو حالك ، وتقام في مثل حالهم النازلة عن حالك .
ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾

استقلوا مدة لبثهم وقد لبثوا (طويلاً) ، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم علمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدري أطلت ليلي أم لا ؟ كيف يدري بذاك من يتقلى ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلي ورعيت النجوم كنتُ مخللاً

ويقال أيام الوصالِ عندهم قليلة — وإن كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صباحك سُكْرٌ والمساء خُمَارٌ^(١) نِعْمَتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾

لأنه هو الذي خَصَّكم بما به أقامكم .

(١) الخُمَار = ماخالط الإنسان من سُكْر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكَيْكُمْ هَذِهِ إِلَى
الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾

ماداموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة النفس ،
فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أول ما أحسوا به ، وفي هذا دلالة على شدة (١)
ابتداء الخلق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَسْتَظْفِرْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ
أَحَدًا ﴾

تَوَاصَوْا فِيهَا بَيْنَهُمْ بِحَسَنِ التَّخَلُّقِ وَجَمِيلِ التَّرْفُقِ ، أَى لِيَتَلَطَّفَ مَعَ مَنْ يَشْتَرِي مِنْهُ شَيْئًا .
ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعام أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِالطَّفِ شَيْءٌ وَأَطْيَبِيهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ
أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ لَا يُوَافِقُهُ الْخَشَنَ مِنَ الْمَلْبُوسِ وَلَا الْمَبْتَدِلَ فِي الْمَطْمِ مِنَ الْمَأْكُولِ .
ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك (٢) .
والذى بلغ المعرفة لا يوافقه إلا أكل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مريح .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَعْذِبُوكُمْ فِي مَلَأَمِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا
إِذَا أَبَدَأَ ﴾

تَوَاصَوْا فِيهَا بَيْنَهُمْ بِكَيْمَانِ الْأَسْرَارِ عَنِ الْأَجَانِبِ (٣) وَأَخْبِرْ أَنَّهُمْ إِنْ اطَّلَعُوا عَلَيْهِمْ وَعَلَى
أَحْوَالِهِم بِالْعَوَا فِي مَخَافَتِهِمْ إِمَّا بِالْقَتْلِ وَإِمَّا بِالضَّرْبِ وَبِمَا أَمَكْنَهُمْ مِنْ وَجْهِ الْفَعْلِ ، وَلَا يَرْضُونَ

(١) شدة هنا معناها ضرورة .

(٢) معنى هذا ان القشيري يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما
كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيما بعد : « تَوَاصَوْا
فِيهَا بَيْنَهُمْ بِكَيْمَانِ الْأَسْرَارِ عَنِ الْأَجَانِبِ » .

(٣) من هذا نفهم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال أسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يدركون
حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد الضرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا بردهم إلى ما منه تخلصوا ، فمن احترق كدسه فإلم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه .
ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .

ويقال من أظهر لأعدائه سره فقد جلب باختياره ضره ، وفقد ما سره (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا

أَنَّا وَعَدَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ

لَارِيبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى

أَمْرِهِمْ لَنَنْخِذَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ مَسْجِدًا ﴿

جعل أحوالهم عِزَّةً لِيَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ حِينَ كَشَفَ لِأَهْلِ الْوَقْتِ قِصَّتَهُمْ ، فَعَانِيَهُم
النَّاسُ ، وَازْدَادَ يُقِينُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ حِينَ شَاهَدُوا بِالْعِيَانِ مَا كَانَ نَقْضًا لِلْمَادَةِ
المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذِينَ عن التمييز ، متقلبين
في القبضة على ما أَرَادَهُ الْحَقُّ ، مُسْتَوْدَعِينَ فِيهَا كَوَشَفُوا ، مُسْتَهْلِكِينَ عَنْهُمْ فِي وَجُودِ
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا ،

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا

رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ

وَأَنَا مِنْهُمْ كُلُّهُمْ ﴿

أخبر أن علوم الناس متقاصرة عن عددهم ؛ فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله
في أسرارهم وقلوبهم .. متى يكون للخلق عليها إشراف ؟

أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُعلم بالضرورة ، وهم لا يُدرَكُونُ بِالْمُشَاهَدَةِ .

(١) يقول الشبلي واصفاً سبب محنة الحلاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر
وأنا كتمت » .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيثُ كَرَّرَ الحقُّ — سبحانه — ذِكْرَهُمْ وذَكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار ، ولَمَّا ذَكَرَهُمْ عَدَّ الكلبَ في جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده ، ومن كان قريباً في الحال منهم ؛ فهم في كنفهم الغيرة وإيواء الستر لا يطالعُ الأجانبُ عليهم ؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ ؛ لأنَّ الحقَّ — سبحانه — يستر أوليائه عن الأجانب ، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة ؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب . كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : « الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

كما لا يعرفهم من كان بعزلٍ عن حالتهم ، ولا يهتدى إلى أحكامهم من لا يعرفهم . . . فلا يصحُّ استفتاه من غاب عنهم عنه في حالهم . ومن لم يكن قلبه محلاً لهجة الأجانب لا يكون لسانه مقراً لذكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ اللهَ لم يعدد من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ اللهَ سقط اختياره عند مشيئته ، واندرجت أحكامه في شهوده للحكم الله .

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه ، لكنّه يتبرأ عن حوله وقوته

(١) هذا القول للجنيد (ص ١٣٩) الرسالة .

بِسِرِّهِ ، وَالشَّرْعُ يَسْتَدْعِي مِنْهُ نَهْوُضَ قَلْبِهِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْحَقُّ يَقِفُ سِرَّهُ عِنْدَ شَهُودِ مَا مِنْهُ
لِمُحَبَّوْبِهِ تَحْتَ جَرِيَانِ قَسْمَتِهِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ
عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن
هَذَا رَشْدًا ﴾

إِنْ طَرَأَتْ عَلَيْكَ طَوَارِقُ النَّاسِيَانِ — لَا يَتَمَهَّدُكَ — فَجَرِّدْ بِذِكْرِكَ قَسْمَدَكَ عَنِ
أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : في الحقيقة نَفْسُكَ تَمْنَعُكَ مِنَ اسْتِفْرَاقِكَ
فِي شَهُودِ ذِكْرِكَ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربك : فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مَلَا حِظًّا لَذِكْرِهِ كَانَ
ذَلِكَ آفَةً فِي ذِكْرِهِ (٢) .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَقَّكَ مِنْهُ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت غَيْرَ رَبِّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَسْرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثِينَ سَنِينَ
وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾

كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ فِي إِحْسَاسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَقِفُوا عَلَى تَطَاوُلِ مَدَّتِهِمْ ، وَفِي الْمَثَلِ :
« أَيَّامُ السَّرُورِ قِصَارٌ » ، وَالذُّهُورُ فِي السَّرُورِ شَهُورٌ ، وَالشُّهُورُ فِي الْمَخْنِ دُهُورٌ ، وَفِي مَعْنَاهُ :

أَعْدُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتُ قَبْلًا لَا أَعْدُ اللَّيَالِيَا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبٌ

(١) معنى هذه الفقرة انه قد يبدو في الظاهر ان العبد إرادة في الامتثال للطاعة وفي إجراء أحكام
الشرية ، ولكن في الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى نبرته من حوله وإرادته ، وتهبته سره للتجرد عن كل
غير وسوى .

(٢) لأن أهل درجات الذكر أن يفنى التذاكر في المذكور .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ
مَا لَمْ يَنْبَغِ لَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ لَوْلَى وَلَا يَشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ❀

مَنْ لَمْ يَعِدْ أَيَّامَهُ لِاسْتِغَالِهِ بِاللَّهِ أَحْصَى اللَّهُ أَنْفَاسَهُ الَّتِي لِلَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : « أَحْصَى
كُلَّ شَيْءٍ عِدَدًا » .

قوله جل ذكره : ❀ « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ ❀ »

تَسَلَّى — حِينَمَا تَتَنَوَّعُ عَلَيْكَ الْأَحْوَالُ — بِمَا نُظِّلُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ ؛ وَإِنْ كُتِبَ
الْأَحْبَابُ فِيهَا شِفَاءً لِأَنَّهَا خُطَابُ الْأَحْبَابِ لِلْأَحْبَابِ .

قوله جل ذكره : ❀ « لَا مِثْلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ
مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ❀ »

أَيُّ لَا تَغْيِيرَ لِحُكْمِهِ ؛ فَكُنْ أَقْصَاهُ فَلَا قَبُولَ لَهُ ، وَمَنْ أَدْنَاهُ فَلَا وُصُولَ لَهُ ، وَمَنْ قَبِيلَهُ
فَلَا رَدَّ لَهُ ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فَلَا صَدَّ لَهُ .

قوله جل ذكره : ❀ « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ❀ »

قال : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ » ولم يقل : « قَلْبِكَ » لأن قلبه كان مع الحق ، فأمره بصحته
جَهْرًا بِجَهْرٍ ، وَاسْتِخْلَصَ قَلْبَهُ لِنَفْسِهِ سِرًّا بِسِرٍّ .

ويقال « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : مَعْنَاهَا مُرِيدِينَ وَجْهَهُ أَيُّ فِي مَعْنَى الْحَالِ ، وَذَلِكَ يُشِيرُ
إِلَى دَوَامِ دُعَائِهِمْ بِهِمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَكُونَ الْإِرَادَةَ عَلَى الدَّوَامِ .

ويقال « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : فَأَوْيُنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ بِمَظَانِنَا ، وَفِي عَقْبَاهُمْ بِكَرَامِنَا .

ويقال « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : فَكَشَفَ قَنَاعَهُمْ ، وَأَظْهَرَ صَفِيَّتَهُمْ ، وَشَهَّرَهُمْ بَعْدَمَا كَانُوا
قَدْ سَتَرَهُمْ ، وَأَنشَدُوا :

وكشفنا لك القناع وقلنا نعم وهتكنا لك اللستورا
 ويقال لما زالت التهم سلمت لهم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادة كل مخلوق وعن محبة كل مخلوق .

ويقال لما تقاصر لسأئهم عن سؤال هذه الجملة مراعاة منهم لهيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحرمة باب الحق — سبحانه — أمره بقوله : « واصبر نفسك » وبقوله :

﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾

أى لا ترفع بصرَكَ عنهم ، ولا تفلح^(١) عنهم نظرك .
 ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمرَ رسوله — عليه السلام — ألا يرفع بصره عنهم ، وهذا جزاء في العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعة لهم إلينا ، وخلفنا عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا ، فلا تقطع اليوم عنهم نظركَ فإننا لأنزع غداً نظرهم عنا^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يخلي لهم مجلسه من الفقراء ، وأن يطردهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لا يعينهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنعم .

ويقال هم الذين طوح نلوبهم في التفرقة ، فهم في الخواطر الرديئة مشبثون ، وعن شهود مولاهم محجوبون .

(١) لا تفلح عنهم نظرك أى لا تسكف وتبعد .

(٢) تهم هذه الإشارة في تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسفون^(١) على ما منوا به
ولا على ما فاتهم

ويقال الغفلة تزجية الوقت في غير قضاء فرض أو أداء نفل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ مِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

قُلْ يا محمد : ما يأتيكم من ربكم فهو حق ، وقوله صدق .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . هذا غاية التهديد ، أى إن آمنتم ففوائد إيمانكم عليكم مقصورة ، وإن أبيتم فعذاب الجحود موقوف عليكم ، والحق — سبحانه — عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة — إذا وحدوا — زين ، ولا من كفر الجميع — إن جحدوا — شين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتغيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ
كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجوهَ بِئْسَ
الشرابُ وساءت مرتفعاً ﴾

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من
الحق ، ولو علموا ذلك لعله كان يرحمهم . والحق — سبحانه — أكرم من أن يعذب أحداً
يؤمنهم لأجله .

ويقال لو علموا من الذى يقول : « وساءت مرتفعاً » لعله كان لهم تسلس ساعة ، ولكنهم
لا يعرفون قدر من يقول هذا ، وإلا فهذا شبه مرتبة لهم ، والعبارة عن هذا تدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا

لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا *
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرى مِنْ

(١) وردت (ولا يتأسفون) والمعنى يرفضها مما يرجح خطأ الناسخ في نقها .

تَحْتَمُّهُمُ الْأَنْهَارُ يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
 مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرَاءَ
 مِنْ سُفْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ
 فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعِيمَ الثَّوَابِ
 وَحَسَدَتُ مَرْتَقَقًا ❀

أهل الجنة طابت لهم حدائقها ، وأهل النار أحاط بهم سُراديقها .
 والحقُّ — سبحانه — مَنزَهٌ عَن أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْدِيبِ هَؤُلَاءِ عَائِدَةً وَلَا مِنْ تَنْعِيمِ
 هَؤُلَاءِ فَائِدَةً . . . جَلَّتِ الْأَحْدِيَةُ ، وَتَقَدَّسَتِ الصَّمَدِيَّةُ ۱

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتْرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خَطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ
 حِظْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحُونَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَمَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرَلْنَا لَهُ رَعْدًا ،
 وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى سُدَّةٍ (١) كَرَّمْنَا أَوْيَانَهُ فِي ظِلِّ نَعْمِنَا ، وَمَنْ شَكَفْنَا غَلِيلًا (٢) مَهَّدْنَا لَهُ — فِي
 ذَارِ فَضْلِنَا — مَقِيلًا .

« أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » : الْعَمَلُ أَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُضْبُوطًا بِشَرَائِطِ الْإِخْلَاصِ .

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » بَأَنْ غَابَ عَنِ رُؤْيَاةِ إِحْسَانِهِ .

ويقال مَنْ جَرَدَ قَصْدَهُ عَنِ كُلِّ حِظٍّ وَنَصِيبٍ .

ويقال الْإِحْسَانُ فِي الْعَمَلِ أَلَّا تَرَى قِضَاءَ حَاجَتِكَ إِلَّا فِي فَضْلِهِ ، فَإِذَا أَخْلَصْتَ فِي تَوْسَلِكَ
 إِلَيْهِ بِفَضْلِهِ ، وَتَوَصَّلْتَ إِلَى مَا مَوَّلَكَ مِنْ طَوْلِهِ بِتَبَرُّكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ اسْتَوْجِبْتَ
 حُسْنَ إِقْبَالِهِ ، وَجَزِيلَ نَوَالِهِ .

قوله « أولئك لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » أولئك هم أصحاب الجنان ،
 في رَعْدِ الْعَيْشِ وَسَعَادَةِ الْجَدِّ (٣) وَكَمَالِ الرَّفْدِ (٤) ، يَلْبَسُونَ حُلُلَ الْوُصَلَةِ ، وَيَتَوَجَّوْنَ بِنَاجِ الْقُرْبَةِ ،

(٢) وردت (عليلا) بالعين .

(١) وردت (سيده)

(٤) الرفد = العطاء والصلة .

(٣) الجد = الحظ .

وَيُحْمَلُونَ عَلَى الْمُبَاسِطِ ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ ، وَيَشْمُونَ رِياحِينَ الْأَنْسِ ، وَيَقِيمُونَ فِي مَجَالِ الزُّلْفَةِ ، وَيُسْقُونَ شَرَابَ الْحَبَّةِ ، وَيَأْخُذُونَ بِبَيْدِ الزُّلْفَةِ مَا يَنْحَنِمُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ ، وَيَسْقِيهِمْ شَرَابًا طَهْرًا يُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ عَنْ مَحَبَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ .

« نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » : نِعْمَ الثَّوَابُ ثَوَابُهُمْ ، وَنِعْمَ الرَّبُّ رَبُّهُمْ ، وَنِعْمَ الدَّارُ دَارُهُمْ ، وَنِعْمَ الْجَارُ جَارُهُمْ ، وَنِعْمَ الْحَالُ حَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا

لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ

وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا

زُرْعًا * كُنْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا

وَلَمْ تَنْظُرِي مِنْ شَيْءٍ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ

وَهُوَ يَجَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا

وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ

ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا

مِنَهَا مُمْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ

يَجَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ

تُرَابٍ نَمٍ مِنْ نُطْقَةٍ مِنْ سِوَاكَ رَجُلًا

* لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ

بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ

جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ

إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ مَالًا

وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا

من جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
 من السماء فَمَا تَصْبِحُ صَاعِدًا زَلَقًا *
 أو يُصْبِحُ مَأْوَاهُمْ زُرًّا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 لَهُ طَلَبًا *

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذَكَرَهُ ، فَشَكَرَ أحدهما
 لخالقِهِ وَكَفَرَ الآخرُ برازقِهِ ، فأصبح الكافرُ وجَنَّتُهُ أصابَتْها جَائِحَةٌ ، وَندم على ما ضَيَعَهُ
 من الشكر ، وتوجَّه عليه اللومُ .

وفي الإشارة يَخْلُقُ عِبْدِينَ يُطِيبُ لهما الوقت ، وَيُمَهِّدُ لهما بساطَ اللطف ، ويمكن لهما من
 البَسْطِ . . فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحسُنِ المنازلة وصدق
 المعاملة ، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسَنِ الاستقامة ، ثم يتحقق
 بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُحْتَضَفُ عنها بما يُكاشِفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح
 مُنتَفِيًّا عن جملته باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق .

والثاني لا يُفَدِّرُ قَدْرَ ما أَهَلَ له من حُسْنِ البداية فيرجعُ إلى مألوفاته ، فينكسُ أمرُهُ ،
 بانحطاطه إلى ذميمة عاداته ، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقةِ ويرتدِّي^(١) في ظلمةِ الغفلة ؛ فيصيرُ وقتَهُ
 ليلاً مظلمًا ، ويتطوحُ في أودية التفرقة ، ويوسمُ الطردَ ، ويسقي شرابَ الإهانة ، وينخرطُ
 في سلكِ الهجر . . وذلك جزاء مَنْ لم يَرَهُمُ الحقُّ لو صلته أهلاً ، ولم يجعل لولائهم في التحقيق
 والقبول أصلاً :

تبدلتُ وتبدلنا يا حمرَةً لِنَنْ
 ابتغى عوضاً لسامي فلم يجدِ
 قوله جل ذكره : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ
 كَفِينَهُ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَيْتِي لِمَ أَشْرِكُ
 بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ

(١) وردت (ويرتدي) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنْتَصِرًا ❀

إذا ظهرَ خسرانٌ من أثر حظّه على حقِّ الله ، قرعَ بابَ ندامته ، ثم لا ينفعه .
ولو قرع بابَ كرمه في الدنيا — حين وقعت له القفرة — لأشكاه (١) عند ضرورته ،
وأبجاه من ورطته . . . ولكنه رُبط بالخلدان ، ولُبسَ عليه الأمرُ بحكمِ الاستدراج .

قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : من أشهرَ أمره بسخطِ السلطانِ عليه لم ينظر
إليه أحدٌ من الجندِ والرعية ، كذلك من وسمَّ الحقُّ بكى الهجر لم يرث له ملكٌ ولا نبي ،
ولم يحمه صديقٌ ولا ولي .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ
نواباً وخيراً عقباً ﴾ ❀

هو الحقُّ المتمردُ بنتِ ملكوته ، لا يشرك في جلالِ سلطانه من الخلدانِ أحداً ،
وإذا بدا من سلطانِ الحقيقةِ شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هنالك لخدثان
ولا خطر ، كلاً . . . بل هو الله الخلاقُ الواحد القهار .

هنالك الولاية لله أى القدرة — والواو هنا بالكسر ،

وهنالك الولاية لله أى النصر — والواو هنا بالفتح (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا

كأنزله من السماء فاختلط به

نبات الأض فأصبح هشيماً تذروه

الرياح ، وكان الله على كل شيء

مقتديراً ❀

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .

(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أى : السلطان والملك كله لله ، يتولى الله كل مضطر فيكون

قوله : « لم أشرك بربى أحداً » كلمة ألقىء إليها فقالها جرعاً من شؤم كفره — ولولا ذلك لم يقلها .

أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصر تقريراً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ عَلَى الدُّنْيَا وَبَهَجَهَا غَرَّتْهُ بِأَمَانِيهَا ، وَخَدَعَتْهُ بِالْأَطْمَاعِ فِيهَا . ثُمَّ إِذَا تَخَنَّى الصَّابَ فِي شَرَابِهَا ، وَالْحَنْظَلَ فِي عَسَلِهَا ، وَالسَّرَابَ فِي مَارِبِهَا ، تَعَدُّ وَلَا تَقِي بَعْدَاتِهَا ، وَتَوُفِّي آفَاتِهَا عَلَى خَيْرَاتِهَا . . نَعْمُهَا مَشْوَبَةٌ بِنِقْمِهَا ، وَبُؤْسُهَا مَصْحُوبٌ بِمَأْنُوسِهَا ، وَبِلَاؤُهَا فِي ضَمَنِ عَطَائِهَا . الْمَرْوَرُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا ، وَالْمَغْبُونُ مَنْ انْخَدَعَ فِيهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

مَنْ اعْتَصَدَ بِمَتَادِهِ ، وَاغْتَرَّ بِأَوْلَادِهِ ، وَانْسَى مَوْلَاهُ فِي أَوَانِ غَفْلَاتِهِ . . خَسِرَ فِي حَالِهِ ، وَتَدَمَّ عَلَى مَا فَاتَهُ فِي مَالِهِ .

وَيُقَالُ زِينَةُ أَهْلِ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ ، وَزِينَةُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ بِالْأَعْمَالِ وَالْيَقِينَ . . فَهَؤُلَاءِ رُتِبُهُمْ لظَوَاهِرِهِمْ . . وَهَؤُلَاءِ زِينَتُهُمْ لِعِبُودِيَّتِهِ ، وَافْتِخَارُهُمْ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِتِهِ .

وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلنَّفْسِ فِيهِ حِظٌّ فَهُوَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْجَاهُ وَقَبُولُ الْمُدْحِ ، وَكَذَلِكَ تَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْمَعْبُودَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا .

وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ شِرْبٌ وَنَصِيبٌ فَهُوَ مَعْلُولٌ : إِنْ شَتَّتَ فِي عَاجِلِهِ وَإِنْ شَتَّتَ فِي آجِلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ .

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا كَانَ خَالِصاً لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُشَوَّبٍ بِطَمَعٍ ، وَلَا مَصْحُوبٍ بِغِرَاضٍ .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا يَلُوحُ فِي السَّرَائِرِ مِنْ تَجَلِيَةِ الْعِبَادَةِ بِالنُّعُوتِ ، وَيَفُوحُ نَشْرُهُ فِي سَمَاءِ الْمَلَكُوتِ .

وَيُقَالُ هِيَ الَّتِي سَبَقَتْ مِنَ الْغَيْبِ لَهَا بِالتَّقَرُّبَةِ وَشَرِيفِ الزَّلْفَةِ .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد المستكن^(١) (في السرائر مما لا يتعرض لكسوف الحجة)^(١)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشْرَتُهُمْ فَلَمَّ نُغَادِرُ مِنْهُمْ أُحْدَاً﴾

كما نُسَيِّرُ جِبَالَ الْأَرْضِ^(٢) يوم القيامة فإنها تُقْتَلَعُ بموت الأبدال الذين يديم بهم الحقُّ — اليوم — إمسالك الأرض ، فهؤلاء السادة — في الحقيقة — أوتادُ العالم .

قوله: ﴿فَلَمَّ نُغَادِرُ مِنْهُمْ أُحْدَاً﴾ : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية ، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإن شَرَفَهُمْ في الدرجات في تَوْقِيهِمْ عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾

يقيمُ كُلَّ واحدٍ يومَ العَرَضِ في شاهدٍ مخصوص ، وَيُبْلِسُ كُلًّا مَا يُؤْهَلُهُ له ؛ فَمِنْ لِبَاسِ تقوى ، ومن قِيصِ هوى ، ومن صِدَارِ وَجْدٍ ، ومن صُدْرَةِ حُبِّة ، ومن رداءِ شوقٍ ، ومن حُلَّةِ وُصْلَةٍ .

ويقال يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة . وينادي المنادى على أجسادهم : هذا الذي أُنِيَّ وَوَجِدَ ، وهذا الذي أُبِيَّ وَجَجِدَ . وهذا الذي خَالَفَ فَأَصَرَ ، وهذا الذي أُنَمِنَّا عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وهذا الذي أَحْسَنَّا إِلَيْهِ فَذَكَرَ . وهذا الذي أَسْقَيْنَاهُ شَرَابِنَا ، ورزقناه عَابِنَا ، وشوقناه إلى لقائنا ، ولَقِينَاهُ خِصَائِصَ رِعَائِنَا^(٣) .

وهذا الذي وَصَّمْنَاهُ بِحُبِّبَتِنَا ، وحرمانه وُجُوهَ قَرِيبِنَا . وألبسناه نطاق فراقنا ، ومنعناه ، توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

(١) نكلمة في أسفل الصفحة موضحة في المتن بالعلامة X .

(٢) نلاحظ كثيراً أن التشبيري يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كما ورد في القرآن ذكر للجبال ، فكأن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يقوم هؤلاء بحفظ الخلق ، وبكرامتهم بتدفع البلاء عنهم .
(٣) الرعاء : الرعاية والمحافظة .

واخجلتني من وقوفي وَسَطَ دَارِهِمْ ۱ وقال لي مُعْضَبًا : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ ؟
 قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ
 مَوْعِدًا ﴾

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر ، ولا معينٍ ولا مظاهر .

قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . كيف أنتم ؟ وكيف وجدتم مقيلاكم ؟ وكم إلى
 لقائنا اشتقتم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتُم ، وما ضيَّعتُم ؟ ما قدَّمتُم ، وما أخرتُم ؟ ما أعلنتُم ، وما أسررتُم ؟
 قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنْفُسِ (١) كيف أنت وكيف حالك ؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفصِّحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ما هم به من
 أحوالٍ مع محبوبهم . وآخرون تملكهم الحيرة وتُسكِّتُهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق
 عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سَكِينَةُ مَنْ هَذَا فَقُلْتُ لَهَا : أَنَا الَّذِي أَنْتِ مِنْ أَعْدَائِهِ زَعَمُوا

قوله جل ذكره : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

إنما يصيبهم ما كَتَبَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وهو المحفوظ ، لا ما في الكتاب الذي
 هو كتاب أعمالهم أَسَخَّه ما في اللوح المحفوظ .

ويقال إنَّ عَامِلَ عَبْدًا بما في الكتاب الذي أثبتته الْمَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده ياملهم
 بما في كتاب الْمَلِكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامَلُ بما في كتاب الْحَقِّ من الرَّحْمَةِ (٢)
 والشَّقَّةِ وبين مَنْ يُحَاسَبُ بما كَتَبَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ مِنَ الزَّلَّةِ (٣) .

(١) التنفس : الاستراحة من السكد والتعب .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كتب على نفسه الرحمة » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى :

« قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حسبهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال ما فارقوا الزلّة ، وإن كانت مباشرة الزلّة قد مضت عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾

يملك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع الخجل لتقصيره . وإن رأى حسنة فهو في موضع الخجل أيضاً لقلّة توبيره ؛ فخجلة أهل الصدق عند شهود حسناتهم توفى وتزيد على خجلة أهل الفعلة إذا عمروا على زلاتهم .

ويقال أصحاب الطاعة إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فألم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة ، وأمّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيها قدّموا مجاوزة الحدّ ونقض العهد ، وما في هذا الباب من الزلّة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

أظهر للملائكة شطيّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسير من الله — سبحانه ، وسكّر بصر العين فما شهد منه غير العين^(١) ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق في قوله : « أنا خير منه » لما فسق عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفنتخذونه وذريته أولياء من

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد المادى لآدم فقال : خلقتني من نار وخلقته من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب في ذلك في رأى القشيري أن الله أخلق عليه .

دونى وهم لكم عدوٌّ يبئس للظالمين
بَدَلًا ❁

في الآية إشارة إلى أن مَنْ يُفَرِّدُهُ بالولاية فلا يقفَى غَيْرَهُ ولا يخافُ غَيْرَهُ .

قوله جل ذكره : ❁ ما أشهدتهم خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ
ولا خَلَقَ أَنفُسَهُمْ وما كُنْتُ مُتَّخِذًا
المُضِلِّينَ عَصَدًا ❁

أ كذب المنجمين والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله : « ما أشهدتهم
خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : و بَيَّنَّ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه
الكائنات لا أصل له في التحقيق .

« وما كنت متخذ المضلين عضداً » : أى لم أجعل للذين يُضِلُّونَ الناسَ عن دينهم
يُسَبِّهِمُ في القول بالطبائع حجةً ، ولم أعظم لتصحیح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علوم الخلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بحقائق الصمدية ،
واستحقاقه لنعونه إلا بمقدار ما يخصهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد
بما جملة له أهلاً ؟

ويقال أخبر أن علومهم تنقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وغن كلِّ
ما فى الكون ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ؛ ولا حاجة بهم إلى الوقوف على ما قصرت علومهم عنه ،
إذ لا يتعلق بذلك شيء من الأمور الدينية . فالإشارة في هذا أن يَصْرِفُوا عنايةهم إلى طلب
العلم بالله وبصفاته وأحكامه ، فإنه لا بُدَّ لهم — بحكم الديانة — من التحقق بها ؛ إذ الواجبُ
على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام (١) .

قوله جل ذكره : ❁ ويومَ يقولُ نادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ

(١) في هذا أبلغ رد على من يتهمون الصوفية بمجانفاتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة ؟

زَعَمُوا فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٦﴾

علم الحق - سبحانه - أَنَّ الأَصْنَامَ لَا تَعْنَى وَلَا تَنْفَع وَلَا تَضُر ، ولكن يعرفهم في العاقبة بما يُصَيِّرُ معارفهم ضرورية^(١) حَسَبًا لِأَوْهَامِ الْقَوْمِ ؛ حيث توهموا أَنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »^(٢) .

فإذا تحققتوا بذلك صدقوا في الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النارَ فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾

إذا صارت الأوهام منقطعة ، والمعارف ضرورية ، والنارُ معيّنة استيقنوا أنهم واقعون في النار ، فلا يُسمع لهم عذرٌ ، ولا تنفع لهم حيلة ، ولا تُقبلُ فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل . . . لقد استمكنك الخيبة ، وغلبَ اليأسُ ، وحصلَ القنوط ، وهذا هو العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ﴾

أوضح للسكافة الحجيج ، ولكن لبسَ على قوم النهج فوقعوا في العوج .

« وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً » الجدكُ في الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله شركٌ لأنه صرفٌ إلى مخالفةِ توهمٍ أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويزُ ذلك انسلخُ

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والكسبية من الخلق .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدين: ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتَحُ بَابِ الْعَمَلِ عَلَيْهِ ، وَإِعْلَاقُ بَابِ الْجِدَلِ دُونَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ۗ إِلَّا أَنْ
تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ قُبُلًا ۗ ﴾

لا عُذْرَ لَهُمْ إِذَا جَاءُوا إِلَىٰ مَا تَعَاوَاهُ مِنَ الْعَصِيَانِ وَتَرَكَ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الْمَأْمُورِ ، وَلَا تَوْفِيقَ
يَسَاعِدُهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ عَنْ حِوَارِ الدَّاعِي إِلَى عَزْمِ الْفِعْلِ ، فَهَمْ — وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِنِعْمَتِ الْإِسْتِطَاعَةِ
عَلَى مَا لَيْسُوا يَفْعَلُونَهُ — لَيْسُوا عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَلَسْكَتُهُمْ بِحَيْثُ لَوْ أَنَّ الْعَبْدَ مِنْهُمْ أَرَادَ مَا أَمَرَ بِهِ
لَتَأْتَىٰ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ ؛ فِي الْحَالِ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ مَا لَيْسَ يَفْعَلُهُ وَلَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ ،
وَهَذَا يُسَمِّيهِ الْقَوْمُ حَالَ التَّخْلِيَةِ وَهِيَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الْقُدْرَةِ وَالْعَجْزِ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا
آيَاتِي وَمَا أَنْزَلْتُهَا هُزُوعًا ۗ ﴾

أَرْسَلَ الرِّسَالَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — تَتَرَى ، وَأَيَّدَهُم بِالْحُجُجِ وَالْبُرَاهِينِ ، وَأَمَرَهُم بِالْإِنذَارِ
وَالنَّخْوِيفِ ، وَالتَّشْرِيفِ فِي عَيْنِ التَّكْلِيفِ ، وَتَضْمِينِ ذَلِكَ بِالتَّحْقِيقِ ، وَلَسْكَتِ سَعْدَ قَوْمٍ
بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَشَقَى آخَرُونَ بِخِلَافِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ
فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ
يَدَايَهِ إِنَّهَا جَمَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ
يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۗ ﴾

لا أحدَ أظلمُ مِنَّ ذُكْرٍ ووُعِظَ بما لَوَّحَ له من الآياتِ ، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ
أُصْلِحَ أو شُغِلَ كُفِي أو دُعِيَ أُجِيبَ له ، أو سوءَ أدبٍ حصلَ منه ، فأدبَ بما يكونُ تنبيهاً
له ، أو حصلتَ منه طاعةٌ وكوفءٌ في العاجلِ إِمَّا بِمعنى وَجَدَه في قلبه من بسْطٍ أو حلاوةٍ
أو أنسٍ ، وإِمَّا بِكفايةٍ شُغِلَ أو إصْلَاحِ أمرٍ . ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عوملَ به ، أو أعرضَ
عن تذكُّرِهِ ، ونَسِيَ ما قَدَّمتُ يده من خيرِهِ وشرِّهِ ، فوجدَ في الوقتِ موجهه . .
ومنْ كانتَ هذه صِفَتُهُ جعلَ على قلبه سترًا وغفلةً وقسوةً حتى تنقطعَ عنه بركاتُ ما وُهِبَ .
ويقالُ مَنْ أَظلمَ منْ يستقبله أمرٌ بِمجازاةٍ لما أسلفه من تركِ أَرَبِهِ فَيَسْتَهْمُ رَبَّهُ ، ويشكو
مما يلاقيه ، وَيَنسى حُرْمَةَ الذي بسببه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأى مِضْياعُ لِفُرْصَتِهِ حتى إذا قاتَ أمرٌ غابَ القَدَرُ

قوله جلَّ ذكروه : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ

بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بل لهم موعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ

مَوْئِلاً ﴿

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجبت المغفرة لهم .

ويقال « الغفور » : للعاصين من عباده ، و « ذوالرحمة » بجميعهم فيُصلح أحوالَ كآفئهم .

« لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا » : لعجل لهم العذاب ، أي عاملهم بما استوجبه من عصياتهم ،

فمعجل لهم العقوبة ، لسكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية
إرادته وحكمه .

قوله جلَّ ذكروه : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا

وَجَعَلْنَا لِمَن لَّا يَشْكُرُ مَوَدَّةً ﴿

لَمَّا لم يشكروا النعم ولم يصبروا في المحن معجلنا لهم العقوبة .

ويقال لَمَّا عَقَلُوا عن شهود التقدير ، وحرِّموا رُوحَ الرضا وَكُنَّاهُمْ إلى ظلماتٍ تدبيرهم ،

فطاحوا في أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهِ لَا أَبْرَحُ
 حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
 حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا
 نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
 سَرَبًا ﴾

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال :
 « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهِ » وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك (١) ، ثم أدخل النسيان عليهما
 ليكون أبلغ في الآية ، وأبعد من اختيار البشر .

قوله جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهِ آتِنَا غَدَاءَنَا

لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾

كان موسى في هذا السفر مُسْحَمَلًا ، فقد كان سفر تأديبٍ واحتمال مشقة ، لأنه
 ذهب لاستكثار العلم . وحال طلب العلم حال تأديبٍ ووقت تحمل المشقة ، ولهذا لحقه
 الجوع ، فقال : « لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوع
 ولا المشقة ، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محملاً .

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ

فَأَنبَى نَسِيْتُ الْحُوتِ وَمَا أَنَسَانِيهِ

إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ

(١) كان الحوت سمكة مملوحة ، فتزلا ليلة على شاطئه عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة الماء
 عاشت ووقعت في الماء (النسي) .

ما كنا ننبغ فارتدّا على آثارهما
قصصاً (١)

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما ، ثم قال يوشع :
« وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدخل عليه النسيان ليكون
الصيّد من تكلفه ، ثم قال : « ذلك ما كنا نبغ » : يعنى دخول السك للماء وكان
مشوياً ، فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهى إلى الموضع الذى دخل السك فيه الماء
لقياً الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها
رحمةً من عندنا ، وعلمناه من
لدنا علماً ﴾

إذا سمي الله إنساناً بأنه عبده جعله من جملة الخواص ، فإذا قال : « عبدي »
جعله من خاص الخواص .

« آتيناها رحمةً من عندنا » : أى صار مرحوماً من قبلنا بتلك الرحمة التى خصصناه بها من
عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بهارحماً على عبادنا .

« وعلمناه من لدنا علماً » : قيل العلم من لدن الله (٢) ما يتحصل بطريق الإلهام دون
التكلف بالتطلب .

ويقال ما يُعرف به الحق — سبحانه — الخواص من عباده .

ويقال ما يُعرف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده .

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فقص قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يتخذ الصوفية من قصة الخضر وموسى مصدراً ثورياً لاستمداد كبير من أصولهم فيما يتصل بالعلم
اللدنى وعلم الوراثة ، والولاية والنبوّة ، والملاقة بين المرید والشیخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، والملازمة
على ظاهر مستشع باطنه سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشيري شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يعود منه نفعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعه لعباده مما فيه حقُّ الله — سبحانه .

ويقال هو ما لا يجِدُ صاحبه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَطَّفَ فِي الْخُطَابِ حَيْثُ سَلَكَ طَرِيقَ الْأَسْتِزْدَانِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بِمَقْصُودِهِ مِنَ الصَّحْبَةِ بِقَوْلِهِ : « عَلَىٰ أَنْ تَعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا » .

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَهُ من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . . متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا *

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف ١

ثم ندارك قلبه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » ، فأجابه موسى : « قال ستجدني . . . » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيه فيما يأمر به ، فأما الصبر فقرَّنه بالاستثناء بمشيئة الله فقال : « ستجدني إن شاء الله صابراً » ، فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثاني قوله : « لا أعصى .

(١) وسر قوة العلم الذي يمد عن الدليل أنه من الحق ، وبقدر ما تختفي الجوانب الإنسانية في العلم وتبرز الماتن الإلهية فيه تكون نضاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً : أطلقه ولم يُقرِّنه بالاستثناء ، فما استنشأ لأجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخُلفُ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العامى للعالم المفتى فيما يفتى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

لما ركبوا الفُلكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغب في السفينة المخروقة المملكت الطامع في السفن .

وقوله : « لنغرق أهلها » أى لتؤدى عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنا نُجزيه من حيث الحُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

طالبه بما هو شرط العلم حيث قال : « لا تأخذنى بما نسيت » ؛ لأن الناسى لا يدخل تحت التكليف ، وأيد ذلك بما قرن به قوله : « ولا ترهقنى من أمرى عسراً » فالتسكُّن من حقه

(٢) الخُلف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان ينسى ويتساءل عقب كل حادثة في القصة ، وكان الخُلف في كل مرة يقول : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

التكليف ، ومن لا يصحُّ منه الفعلُ والتَّركُ لا يتوجه (١) (والناسي (٢) من جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ،

قال أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِمِثْرِ

نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾

كان يخلقُ العلمَ واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُهُ حيث يرى في الظاهر ظُلماً ، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ ، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع

معى صبراً ﴾

كرّر قوله : « إنك لن تستطيع . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأمّا في محل الكشف

فشرطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قال إن سألتك عن شئٍ بعدَهَا

فلا تصاحبني قد بلغت من لدني

عُدراً ﴾

بلغ عصيانه ثلاثاً ؛ والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّةِ وأوَّلُ حَدِّ الكثرة ، فلم يجدِ المُسأحةَ

بعد ذلك (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ

استطما أهلها فأبوا أن يُصَفِّوها

فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ

فأقامه قال لو شئت لآخذت عليه

أجرأ ﴾

(١) بياض في النسجَةِ ، ونزجح أن المفقود (عليه لوم) او مؤاخِذَةٌ .

(٢) وردت (والناس) والسياق يشطب (والناسي) بالياء إذ جاء في الآية (. . . بما نديت) .

(٣) قد تكشف هذه المِبارة عن تصور التشيرى لأقصى درجات الذنب القابل للتوبة .

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من التكبير عليهم ؛ ولو كان أغصى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلما أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمتَ به حظور، ولكنه قال له : « لو شئت لتخذت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وجبَ حقهم فليمَ أخلتَ بحقنا ؟

ويقال إن سفره ذلك كان سفر تَأديبٍ فَرُدَّ إلى تَحْمُلِ المشقة ، وإلاً فهو حين سقى لبنات شعيب فإن ما أصابه من التعب وما كان فيه من الجوع كان أكثر (١) ، ولكنه كان في ذلك الوقت مجولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قال هذا فراقُ بيني وبينك
سأنبئك بتأويل ما لم تستطع
عليه صبراً ﴾

أى بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إنك نبي . . وإنما أوأخذك بما قلت ، فأنت شرطت هذا الشرط ؛ وقلت : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ؛ وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لما لم يصبر موسى معه في ترك السؤال لم يصبر الخضر أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير — في أمر السفينة التي كانت للمساكين ، وقتل النفس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلما صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حظاً لنفسه من طلب الطعام ابتلي بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بيني وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يجب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يجب ترك صحبة موسى عليه السلام إيثارةً للخلوقة بالله عن المخلوقين .

(١) ومع ذلك لم يطب أجراً ، ولم يفكر في ذلك ألبتة . . لأنه كان بحق الله ؛ ولكنه في هذا الموقف كان متكلفاً ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر في الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا
وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَضَبًا ﴾

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُردُّ أن يبقى في قلبِ موسى شبهُ اعتراضٍ ؛
فألزَمَ عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ، وكشف له أن السرَّ في قصده من خرقِ السفينة
سلامتها وبقاؤها لأهلها حيث لن يطعمَ فيها المَلِكُ الغاصبُ ، فبقاها السفينةُ لأهلها — وهي
معيبةٌ — كان خيراً لهم من سلامتها وهي مَعْصُوبَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ
فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا *
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ
زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

بَيَّنَّ له أن قَتَلَ الْغُلَامِ لَمَّا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الْحُكْمُ أن في بقائه فتنَةٌ لو ألبسه ،
وفي إبدالِ الْخَلْفِ عنه سعادةٌ لها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحًا فَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ،
ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا ﴾

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كَنْزِ الْغُلَامَيْنِ وترك طلب الرفق من الخلق .

قوله جل ذكره ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها
تطلع على قوم لم نجعل لهم من
دونها سترًا ﴾ كذلك وقد أحطنا
بما لديه خبراً ﴿ ثم أتبع سبياً ﴾

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طول نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل
مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم .. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد : منهم
الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور نعمهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لهم
من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأردل .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من
دونها قومًا لا يكادون يفقهون
قولاً ﴾ قالوا ياذا القرنين إن يا جوج
وما جوج مفسدون في الأرض فهل
نجعل لك خراجاً على أن تجعل بيننا
وبينهم سداً ﴿ قال ما مكنتي فيه
ربِّي خيراً فأعينوني بقوة أجعل
بينكم وبينهم ردماً ﴾

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم ، وما كانوا يفقهون فقه غيرهم فاجتوا إلى
عبراتهم في شرح قصتهم ، ورفعوا إليه - في باب يا جوج وما جوج - مظالمهم ،
وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بفتيتهم ، ولم يأخذ منهم
ما ضمنوا له من الجباية ، لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة .

قوله جل ذكره : ﴿ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى
بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا

جملة ناراً قال آتوني أفرغ عليه
قطراً ❊

استعان بهم في الذي احتلج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتوني زبر الحديد » فلما فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أن يأذن الله له في الخروج ، وتندفع عن الناس عادية (....) (١) إلى الوقت المضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون من شأنهم ما يريد الله . وبينَ — سبحانه — أن خروجهم من وراء سدِّهم من أشراف الساعة .

قوله جل ذكره : ❊ الذين كانت أعينهم في غطاء
عن ذكري وكانوا لا يستطيعون
سمعا ❊

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ، ولم يكن لهم سماع الإجابة لما فقدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .
قوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعا » : لأنهم فقدوا من قبله — سبحانه — الإسماع ؛ فلم يستطيعوا لهم القبول .

قوله جل ذكره : ❊ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا
عبادي من دوني أولياء إنا أعزُّنا
جهنم للكافرين زُلاً ❊

أي توهموا أنه يفهم ما فعلوه حسب ظنهم ، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم ، وكانوا يقولون : « ما نمبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٢) ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

(١) مشتبه .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ أَهْلَ نُفُوسِكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَالًا ﴾ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة

الدنيا ﴿

ضلَّ سعيهم لأنهم عملوا لغير الله . . وما كان لغير الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سعيهم هم الذين قرَّروا أعمالهم بالرياء ، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالتمنُّ .

ويقال هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار (١) .

قوله جل ذكره: ﴿ وهم يحسبون أنهم يُحسنون

صنعًا ﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعملوا من غير علمٍ ، ولم يكونوا على وثيقة (٢) .

قوله جل ذكره: ﴿ أولئك الذين كفروا بآياتِ ربِّهم

ولقائه فحَبِطَتْ أعمالهم فلا نُقِمُ

لهم يومَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا ﴾

عوا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد ، ففرقت بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوع بها ؛ فليس لهم في الآخرة وزن ولا خطرٌ ، اليومَ هم كالأنعام ، وغداً واقعون ساقطون (. . .) (٣) الأقدام .

قوله جل ذكره: ﴿ ذلك جزاؤهم جهنمُ بما كفروا

وأتخذوا آياتي ورُسلي هُزُوًا ﴾

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذَّر منها أهل الملامة في نيسابور — موطن القشيري .

(٢) الوثيقة ما يضبط به الأمر ومبهمك .

(٣) مشبهة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الهذرة مراعاة للانسجام مع (الأنعام) على عادة القشيري في ضبط الموسيقى الداخلية للجمل والفقرات ، ومع ذلك فإنَّ صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة للمشبهة .

هم اليوم في عقوبة الجحد ، وغداً في عقوبة الرد . اليوم هم في ذلّ الفراق ، وغداً في
أليم الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ
نَزْوَالًا ﴾

لم جنات مُعَجَّلَةٌ سرّاً ، ولم جنان مؤجلة جهراً .
اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .
اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا
حِوَلًا ﴾

عرفنا — سبحانه — أن ما يحوّله لهم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن
أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم
الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ
رَبِّي لَفَنَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ
رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

أى لا تعدّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها ؛ فإنّ متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها ؛
كمعلومات الحق — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .
والذي هو مخلوق (٢) لا يَسْتَوِي في ما هو غير مُتَنَاهٍ — وإن كثر ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾

(١) التفسيري من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار في الآخرة ، أما في الدنيا فيقول : الأخرى
فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .
(٢) يفصد (البحر) إذا صار مَدَادًا ؛ فالبحر يتناهى ؛ وكلمات الله لا تنانئ .

أَخْبِرْ أَنْتَ لَمْ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَالْجَنَسِيَّةُ مُشَاكِلٌ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ تَخْصِيصُ اللَّهِ
— سُبْحَانَهُ — إِيَّاكَ بِالسَّالَةِ ، وَتَرْكِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْجِهَالَةِ .

ويقال : قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)^(١) ، وإن كنا — أنا وأتم —
في الصورة أكفاء .

قوله جل ذكره : * فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا *^(٢)

حَمَلُ الرَّجَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى خَوْفِ الْعُقُوبَةِ وَرَجَاءِ الْمَثُوبَةِ حَسَنٌ ، وَلَكِنْ تَرَكَ هَذَا عَلَى
ظَاهِرِهِ أَوْلَى ؛ فَالْمُؤْمِنُونَ قَاطِبَةً يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ .

والعارف بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظر إليه .

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُهُ عَلَى لَوَاعِجِ اشْتِيَاقِهِ ، وَأَنْ يُخْلِصَ
فِي عَمَلِهِ .

« وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ » : أَى لَا يَلَاحِظُ عَمَلَهُ ، وَلَا يَسْتَكْبِرُ طَاعَتَهُ ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْ
حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته)^(٣)

(١) هنا كلمة منبهة في الخط ، فوضنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهي أليق بالمعنى والسياق .
(٢) هكذا في ص . وليس واضحاً عودة الضمير في (رؤيته) هل هي على الصراط أم على الحق . فنحن
نعلم أن التشبيري شافعي من حيث مذهب الفقيه ، ونعلم كذلك أن الشافعي يقول : لو علم ابن لأدريس
أنه لا يرى ربه يوم القيامة ما عبده .

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل في السسخة من .

[ثم بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول از تفسير

محقق إمام أبو قاسم التشبيري رحمة الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ ، اسم عزيز من عبده وأصل جهاده ، ومن طلبه ودع وساده ، ومن عرفه أنكر أحبابه . ومن يسر له أوقفه على محبته .

من ذكره نسي اسمه ، ومن شهده فقد عقله ولبه (١) .

اسم عزيز جيلت القلوب على محبته ، وكل قلب ليس يوقفه على محبته ، فليس بحيلة يصل .

اسم ما انصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته ، وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا بشاهدته .

اسم عزيز من عرفه اعترف أنه وراء ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كَهَيْسِ ﴾

تعريف للأحباب بأسرار معاني الخطاب ، حروف خص الحق المخاطب بها بفهم معانيها ، وإذا كان للأخبار سماعها وذكرها ، فلا رسول — عليه السلام — فهمها وسرها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحكم .

(١) المقصود بفقد العقل واللب هنا غيبة التمييز في حال الشهود .

ويقال في الكاف تعريفُ بكونه مع أوليائه ، وتخويفُ الخبيثِ مكره في بلائه .
ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه قبل كتابة الملائكة الرزقَ
على عباده .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ،
وماله من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يسر نعمة بعد عسر محنته . وإلى يده الملبسوة بالرحمة للمؤمنين
من عباده .

والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده في سره وجهره ، وقله وكثره ، وحاله وماله ،
وقدر طاقته وحق فاقته .

وفي الصادق إلى أنه الصادق في وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ﴾

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال ولده ، وما أراد أن يتصل بأعتابه من تخصيص القربة له
ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيئاً ﴾ .

وإنما ذلك لئلا يطلع أحدٌ على سرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه
عن نفسه بالتعمى عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسوء في نفسه ، ثم أخفى سيره عن الخلق لئلا
يقع لأحدٍ إشرافٌ على حاله ، ولئلا يشمت بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾

واشتمل الرأسُ شيئاً ﴾ .

أى لقيتُ بضعفٍ عن خدمتك ما لا أحبُّه ، فطعنتُ في السنِّ ، ولا قوةَ بعد المشيبِ ؛
فهبَّ لي ولداً ينوب عني في عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبِّ شَقِيئاً ﴾ .

أى إني أسألك وإثماً بإجابتك ، لعلني بأنى لا أشقى بدعائك فإنك تحبُّ أن تسأل .

ويقال إنك عودتني إجابة الدعاء ، ولم تردني في سالف أيامي إذا دعوتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي
وَكُنْتُ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ يرثني ويرث من آل
يعقوب واجعله رب رضياً .

إني خفت أن تذهب النبوة من أهل بيتي ، وتنقل إلى بني أعمامى فهب لي ولداً يعبدك ،
ويكون من نسلي ومن أهلي .

وهو لم يرذُ الولدَ بشهوة الدنيا وأخذَ الحظوظِ منها ، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله ،
وفي قوله : « يرثني » دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده ؛ فقال : ولداً يكون وارثاً لي ؛
أى يبقى بعدي ، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة .

واجعله ربّ رضياً : رضىّ فاعيل بمعنى مفعول أى ترضى عنه فيكون مرّضياً لك . ويحتمل
أن يكون مبالغة من الفاعل أى راضياً منك ، وراضياً بتقديرك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى
لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

أى استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذكراً اسمه يحيى ؛ يحيى به عقره أمه ، ويحيى به
نسبك ، ويحيى به ذكرك ، وما سألته من أن يكون نائباً عنك ؛ فيحيى به محلّ العبادة والنبوة
في بيتك .

« لم نجعل له من قبل سمياً » : انفراده — عليه السلام — بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛
أى لم يكن له سمي قبله ؛ فلا أحد كفو له في استجاء أوصاف فضله .

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنب له قبل النبوة ولا بعدها
غيره (١) .

(١) هذا رأى في مذهب القشيري الكلامي يتصل بفضيلة هامة : هل يكون من النبي ذنب ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ
امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر
عِشْيَا ۗ .

سأل الولدَ فلماً أُجيبَ قال أُنَّى يكون لي غلام ؟ ومعنى ذلك — على ما جاء في التفسير —
أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلةً ؛ فكأنه سأل الولدَ في ابتداء حال سنِّه ،
واستجيبَ دعوتُه بعد ماتئاهي في سنِّه ، فلذلك قال : « أُنَّى يكون لي غلام ؟ » .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِن هذه المرأة وهي عاقرة أم من امرأة
أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين من منها يكون الولد . فقال تعالى :
﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هِينٍ ۗ

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقرَّ العادة
ولادة مثل هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك ، فتكون للإجابة بالولد من وجهٍ
معجزةٌ ؛ ومن وجهٍ راحةٍ وكرامةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ
دَلَّت الآيه على أن المعدوم ليس بشيء ؛ لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِهِ له كان شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۗ

أراد علامةً على علق المرأة بالولد ؛ ولم يرد علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صدق ما يقال له .
فأخبره تعالى : أَنبِئُكَ علامةً وقت إجابتك . . إِنَّ لِسَانَكَ لا ينطق معهم بالمخاطبة
— ولو اجتهدتَ كُلَّ الجهد — ثلاثة أيام ، وعليك أن تخاطبني ، وأن تقرأ الكتب المُنزَّلةَ
التي كانت في وقتك . فساكن لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكَلِّمَهُمْ ، وإذا أراد أن يقرأ
الكتبَ أو يسبِّحَ الله انطلق مع الله لسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ أَنِ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۗ

أى فلما خرج عليهم عرفهم — من طريق الإشارة^(١) — أن اللسان الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾

أى قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة منّا ، خصصناك بها . . لا قوة يدٍ ولكن قوة قلبٍ ، وذلك خيرٌ خصّه الله تعالى به وهو النبوة .
ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب .
« وآتيناه الحكم صبياً » أى النبوة ، بعثه الله بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبى .
ويقال الحكم بالصواب والحق بين الناس .
ويقال الحكم هو لإحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وحناناً من لدنا . . . » أى آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجاولات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموعٌ ومجلوبٌ يتوصل إليه العبد بتكليفه وتعلّمه ، وموضوعٌ من الله تعالى وموهوبٌ منه يصل إليه العبد ببذله سبحانه وبفضله .
قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبًّا بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾

« رباً بوالديه » كأمر الله — سبحانه — له بذلك لا لمودّة البشرٍ وموجبِ عادةِ الإنسانية .
ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يَمُوتُ ويومَ يُبعثُ حَيًّا ﴾

أى له منّا أمانٌ يوم القيامة ، ويوم ولادته فى البداية ، ويوم وفاته فى النهاية ، وهو أن يصونه عن الزيف والعوج فى العقيدة بما يشهدُه على الدوام من حقيقة الإلهية .

(١) كأنما يقصد القشبرى إلى بيان أن الإشارة تبنى هن العبارة وأنها بأمر إلهى .

وكذلك هو في القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو في الدنيا معصومٌ عن الزلَّة ،
محموظٌ عن الآفة . وفي الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ

مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ

مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * ﴿

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلَمَّا أَبْصَرَتْ جِبْرِيْلَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ لَمْ تَتَوَقَّعْهُ أَحْسَتْ فِي نَفْسِهَا رُغْبًا ، وَلَمْ تَسْكُنْ لَهَا
حِيلَةً إِلَّا تَخَوَّفَهُ بِاللَّهِ ، وَرَجَعَهَا إِلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ

كُنْتَ تَقِيًّا * ﴿

قالت مريمُ لجبريل — وهي لم تعرفه — إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب
أن يُخَافَ وَيُتَّقَى مِنْهُ ؛ أَي إِنْ كُنْتَ تَقْصِدُ السُّوءَ . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل :
« بالله » — أَي بالذي يرحمني فيحفظني منك .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ اللَّهَ وَتَكُونُ مُتَقِيًّا مُخَالَفَةً أَمْرِهِ فَإِنِّي أَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْكَ وَأَحْذَرُ عَقُوبَتَهُ .

قوله جل ذكره . ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ

لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا * ﴿

تعرفُ جبريلُ إليها بما سَكَنَ رُوعَهَا ، وَقَرَنَ مَقَالَتَهُ بِالتَّبَشِيرِ لَهَا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ

يَمَسَّسْنِي بِشَرٍّ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ

كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَهْنٍ

ولنجمه آية للناس ورحمة منا وكان
أمراً مفضياً ❀

قالت أنى يكون لى ولدٌ ولم أليم بزلة ولا فاحشة ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — :
الأمرُ كما قلتُ لك ؛ فلا يتعصى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أقدرُ أن يجعل هذا الولدَ
دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لمن آمن ، وسببَ
جبلٍ للآخرين .

قوله جل ذكره : ❀ فَخَمَلَتْهُ فَأَنْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا
قَصِيًّا ❀

مما ظهر بها الحملُ ، وعلمتُ أن الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تثقُ بأحدٍ تُفشي
إليه سرّها . . . مضتُ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الخلق .

قوله جل ذكره : ❀ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ
نَسِيًّا مَنْسِيًّا ❀

أجاءها وجعُ الولادةِ إلى الاعتمادِ إلى جذعِ النخلة . ولما أخذها الطلقُ ، ودأخلها
ألخجلُ من قومها نطقتُ بلسانِ العجزِ ، وقالت : « يا ليتني متُّ قبل هذا » .
ويقال يحتملُ أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها علمتُ أنهم سيضطون لسانَ اللامةِ
فيها بلسانِ العجزِ ؛ وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصيبهم بسببها عقوبةٌ .

ويقال قالت : « يا ليتني متُّ قبل هذا » حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسببي إن عيسى
ابن الله وابن مريم ، وابن مريم زوجته . . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ويقال « يا ليتني متُّ قبل هذا » : في الوقت الذى كنتُ مرفوقاً بى ، ولم تستقبلنى
هذه الخشونةُ في الحالةِ التى ليحفتني .

ويقال «يا ليتني ميتٌ قبل هذا» : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكره : ﴿ فناداها من تحتها ألا تعجزني قد

جعل ربك تحنك سرياً ﴾ (١)

في التفسير أن المعنى بقوله «من تحتها» : جبريلُ عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام .
والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أي يرزقك
الله ولداً سرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وهزى إليك بجمع النخلة تساقط

عليك رطباً جفياً ﴾

وكان جذعاً يابساً أخرج الله تعالى منه في الوقتِ الثمرة ، وهي الرطبُ الجنى ، وكان
في ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام —
من غير أب .

ويقال عندما كانت مجردةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا — عليه السلام — يجيدُ عندها
رزقاً من غير أن أمرت بتسكف ، فلما جاءت علاقةُ الولدِ أمرت بهزُ النخلةِ اليابسة —
وهي في أضنفِ حالها ؛ زمان قرب عندها بوضع الولد ، ليُعلمَ أن العلاقةَ توجبُ
العناء والمشقة .

ويقال بل أمرت بهزُ النخلةِ اليابسة ، وكان تمسكها من ذلك أوضح دلالة على صدقها
في حالها .

ويقال لما لم يكن لها في هذه الحالة من يقوم بتعمدها تولى الله تعالى كفايتها ؛ ليُعلمَ
العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عبادِهِ في وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فسكلى واشربني وقرى عيناً ،

(١) السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صغير أو جدول .

فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ،
فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا *

كفأها أسباب ما احتاجت إليه من أكلها وشربها ، وسكن من خوفها ،
وطيب قلبها .

« فإما ترين من البشر أحداً » : فلا تخاطبيهم وعرف فيهم - بالإشارة - أنك نذرت
للرحمن الصمت مع الخلق ، وذلك المحاطية معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا :

يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا *
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ
سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتِيًّا *

بسط قومها فيها لسان الملامة لما رأوها قد ولدت - وظاهر الحال كان معهم -
فقالوا لها على سبيل الملامة : يا من كنا نعدك في الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالساد
والصلاح . . من أين لك هذه الحالة الشنعاء ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم ، فقالوا :
يا شبيته في الفساد . . ما هذا الولد ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، يا من في حسابنا
وظننا ما كان أبوك فيهما سوء ولا فساد . . كيف أتيت بهذه الكبيرة العظيمة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ *

في الظاهر أشارت إلى الولد ، وفي الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهم ما قرب وما بعد
وقالوا : كيف نكلّم من هو أهل بأن ينوم في المهد ؟

فـ « كان » هاهنا في اللفظ صلة .. وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إني عبدُ الله آتاني الكتابُ

وجعلني نبياً ﴾

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال : إني عبدُ الله ، فظهرت براءةُ ساجيتها بكلامِ عيسى قبل أن يتكلم مثله . وجرى على لسانه حتى قال : إني عبدُ الله ؛ يُقال للنصارى إِنْ صَدَّقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولكم إنه ثالثُ ثلاثة ، وإن كذب فالذي يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عبداً هواه ، ولا في أمرٍ شيءٍ سواه فمن نحرر من غيره فهو في الحقيقة عبده .

« وآتاني الكتاب » : أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه .

« وجعلني نبياً » بفضله . وفي الآية ردُّ على من يقول إن النبوة تُستحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته ؛ ولم تكن منه بعدُ عبادةً وأخبر أن الله جعله نبياً (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلني مبارَكًا أينما كنتُ

وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ

حياً * وبراً بوالدتي ولم يجعلني

جباراً شقيماً ﴾ .

أي نافعاً للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزلَّة التي فيها هلاكهم ، ومن استضاء بنوره نجا . فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق . ومن بركاته إغاثةُ الملهوف ، وإغاثةُ الضعيف ، ونصرةُ المظلوم ، ومواساةُ الفقير ، وإرشادُ الضال ، والنصيحةُ للخلق ، وكفُّ الأذى عنهم وحلُّ الأذى منهم .

« وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً » أي لم يجعلني غيرَ قابلٍ للنصيحة .

(١) في موضع آخر حاول القشيري أن يوضح ضرورة استقلال عمل الإنسان والنظر إليه بعين الاستصغار رغبة منه في ربط كل شيء بالفضل والاجتباء الإلهيين ، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متعجباً . ويقال مخنوماً بكُفْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسّلام علىّ » ، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج :
« السّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . . . فشتان ما هما !

والسّلام بمعنى السّلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلى من قول النصارى
فى مجاوزة الحدّ فى المدح ، ومما وصفنى به اليهود من الذمّ^(١) ، فلست كما قالت
الطائفنان جميعاً .

وسلام علىّ يوم أموت ؛ فى ذلك اليوم تسكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفانى .
وسلام علىّ يوم أُبعثُ ؛ أى سلامة لى فى الأحوال ممّا يبئلى به غيرُ أهل الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أى يكون بقول إله ؟
وقد شكّ فيه أكثر الخلق فردّه قومٌ وقيله قومٌ ، والفرق بينهما فى استحقاقه^(٢) .
وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلَدٍ سُبْحَانَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿

لا يجوز أن يكون له ولدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والولدُ بعضُ والده .

(١) فقد اتهم اليهود امه بالزنا .

(٢) أى فى نصيبه من الحق الفارق بين الرذِّ والقبول .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التنبئ لأحدٍ لعدم الجنسية بينهما.

وقوله : « وإذا قضى أمراً . . . » إذا أراد إحداثَ شيءٍ خلقه بقدرته ، وخاطبته بأمر التكوين^(١) ، ولا يتعمى عليه — في التحقيق — مقدر .

« وإنَّ اللهَ ربِّي وربكم » أي أمرني بأن تعلموا ذلك ؛ وأمرني بتبليغ رسالتي ، واتباع ما شرعَ اللهُ من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم قَوِيلٌ

للذين كفروا من مشهدٍ يومٍ

عظيمٍ ﴾

قَمَنْ مَحْنَتٌ بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتُهُ أَطَاعَ فِي عَاجِلِهِ وَمَا ضَاعَ فِي آجِلِهِ ، وَمَنْ أَقْصَتَهُ الْقِسْمَةُ السَّابِقَةُ لَمْ تُدْنِهِ الْخِدْمَةُ الْآلِاقَةُ ، وَسَيَلْقَوْنَ غِيبَ هَذَا الْأَمْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوفَسَالِكِينَ

الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

تصير معارفهم ضرورية ، وأحوالهم كلها معكوسة ، والحجة تناكدهم عليهم ، والحاجة لا تسمع منهم ، والرحمة لا تتعلق بهم ، فلا ترحم شكائهم ، ولا يسمع نداؤهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

تقوم الساعة بفتنة ، وتصادفهم القيامة وهم غير مستعدين لها فيتحسرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سبقت لقوم الشقاوة — وهم في محو العدم ، ولآخرين السعادة — وهم بنعت العدم ، ولم يكن من أولئك جرم بعد ، ولا من هؤلاء وقائق بعد .

(١) أي كن فيكون .

قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

يريد به إذا قبضَ أرواحَ بنى آدمَ بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ،
وليس يريد به استحداث مُلكه ، وهو اليومَ مالكُ الأرضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ، ومالكُ الكونِ
وما فيه .

ويقال إن زكريا قال — لما سأل الولد : « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى
في صفة بنى إسرائيل : « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل »^(١) وقال : « إن الأرض لله
يورثها من يشاء من عباده »^(٢) ، ولما انتهى إلى هذه الأمة^(٣) قال : « إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا » . . فستان بين مَنْ وَاوْرَثَهُ الْوَالِدُ وبين مَنْ وَاوْرَثَهُ الْأَحَدُ
ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وَاوْرَثَهُ . . وهذا مخلوق يقول
في صفة مخلوق :

فإن يك عتَابُ مَضَى لسبيله فما مات من يبقَى له مثلُ خالدٍ

وقال تعالى : « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء »^(٤) . لماذا ؟ لأنَّ
وَارِثَهُمُ اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ كُفِرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾

الصدِّيقُ الكثيرُ الصدق ، الذي لا يمازج صدقَه شوبٌ .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصدِّيقُ لا يناقضُ سيرَه علمَه .

(١) آية ٥٩ سورة الشعراء .

(٢) آية ١٣٨ سورة الأعراف .

(٣) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذى لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافيًا .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملةً وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عوم الأوقات على حدّ الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي

عَنكَ شَيْئًا ﴾ .

دات الآية على استحقاق المعبود الوصف بالسمع والبصر على الكمال دون نقصان فيه ،

وكذلك القول في القدرة على الضر والنفع .

وإذا رجع العبد إلى التحقيق علم أن كل ما خلق لا تصلح قدرة واحد منهم للإبداع

والإحداث ، فمن علق قلبه بمخلوق ، أو توهم شظية منه من النقي والإثبات فقد ضاهاى

عبدة الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا

سَوِيًّا ﴾ .

أمره باتباعه لما ترجح عليه جانبه في كونه الحق معه — وإن كان أكبر منه منياً ،

وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحق ، وأن الهلاك في الابتداع والتطوح في مغاليط الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ .

بين أن العلة في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فيبان أنه لا ينبغي أن تكون

طاعة لمن يعصى الله بحال .

ويقال أساس الدين هجران أرباب العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ

مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ .

لم ينادِرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينفعه جميل وعظه ، ولم تنجم فيه كثرةُ
نُصحه ، فإنَّ من أقصته سوايقُ التقدير لم تُخلِّصه لواحقُ التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أرأغب أنت عن آلمتى يا ابراهيم ﴾
منه ابراهيمُ بجميل العُقبي ، فقابلهُ بنوعه العقوبة فقال :

﴿ لئن لم تنته لأرجمك واهجرني
ملياً ﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال :

﴿ قال سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ
ربى إنّه كان بى حفيياً ﴾ .

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه ، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء في شأنه ، فلما تحقق
أنه مخنومٌ له بالشقاوة قال له :

﴿ وأعزركم وما تدعون من
دون الله وأدعوا ربى عمى ألا
أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ .

« ما تدعون » : أى ما تعبدون ، « وأدعوا ربى » : أى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون
الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً
جعلنا نبياً ﴾ .

لما أسَّ من أصله آتسه الله بما أكرمه من نسله ، فأنتهم نباتاً حسناً ، ورزقهم النبوة ،
ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام (١) فقال :

(١) ربما يشير التشبى بذلك إلى : (الصلاة على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) فى تشهد كل صلاة ،

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ
كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾

مُخْلِصًا خَالصًا لِلَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لغيرِهِ بوجهٍ ، فَلَمْ تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأَمِّمْ ، وَلَمْ يَسْتَفْزِهِ طَمَعٌ
نَحْوُ إِثَارِ حَظٍّ ، وَلَمْ يُفْضِ فِي اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَا نَبَأَهُ نَبِيًّا ﴾ .

النَّجْوَى مَزِيَّةٌ عَلَى النَّدَاءِ ، فَجُمِعَ لَهُ الْوَصْفَيْنِ : النَّدَاءُ فِي بَدَايَتِهِ ، وَالسَّمَاعُ وَالنَّجْوَى فِي نَهَائَتِهِ ؛
فَوَقَّفَهُ الْحَقُّ وَنَادَاهُ ، وَفِي جَمِيعِ الْحَالَيْنِ تَوَلَّاهُ .

« مِنْ جَانِبِ الطُّورِ » : تَرْجِعُ إِلَى مُوسَى فَهُوَ كَانَ بِجَانِبِ الطُّورِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ .

مِنْ خِصَائِصِ مُوسَى أَنَّهُ وَهَبَ لَهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ إِذْ وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى ذَبْحِ أَبِيهِ (٢) ، وَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ ظَهَرَ
الْفِدَاءُ . وَصَدَقَ الْوَعْدَ لِأَنَّهُ حَفِظَ الْعَهْدَ . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ — بِأَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهُ — وَبِالزَّكَاةِ ،
وَيَشْتَمِلُ هَذَا عَلَى مَا أَمَرَهُ إِيَّاهُمْ بِالْعِيَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ حَيْثَمَا وَكَيْفَمَا كَانَ .

(١) بهذا يتجنب التشبُّهَ مزلتاً خطراً فلا يكون النداء الإلهي من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه) تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الإشارة نعرف أن التشبُّهَ يرى أن إسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرف خصاله وأجل صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه

كان صديقا نبيا * ورفعناه مكانا
عليا * .

الصديق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مدق^(١) ، ويكون قائما بالحق للحق ، ولا يكون فيه نفس لغير الله .

« ورفعناه مكانا عليا » : درجة عظيمة في التربية لم يساوه فيها أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من

النبيين من ذرية آدم ومن حملنا
مع نوح ومن ذرية إبراهيم
وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا
إذا تلى عليهم آيات الرحمن خرّوا
سجداً وبكياً *

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن منته كآمنته في تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم
لما رقام إليه من المال ، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم . ومما أنعم به عليهم من الخصائص
رقة قلوبهم ، فهم إذا تلى عليهم الآيات مجدوا ، وسجود ظواهرهم يدل على سجود سرائرهم
بما حقق لهم من شواهد الجمع ، وأمارة صحته ما فقههم إليه من عين الفرق ، فيوصف التفرقة
قاموا بحق آداب العبودية ، وبنعت الجمع تحقّقوا بحقائق الربوبية^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا

(١) مدقّ اللبن والشراب بالماء مدقاً أي مزججه وخلطه ، ومدق الود أي شابه ولم يخلصه .

(٢) هذا من أشد البراهين نصاعة على تمسك التشيرى بالشرعية ، فإن صدق العبد في التوجه أمارته ان يكون محفوظاً — من يقبل الحق — كي يؤدي فرائض الشرع .

الصلاة وَأَتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ
يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿١﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيعوا حقَّ الشرع ، وتخطوا واجبَ الأمر ، وزاغوا عن طريق الرشد ، وأخلوا بأداب الشرع ، وانخرطوا في سلكِ متابعة الشهوات — سيَلْقَوْنَ عن قريبٍ ما يستوجبونه ، ويُعَامَلُونَ بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا ﴾ جناتِ عدنِ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴿٢﴾

فأولئك الذين تداركهم الرحمةُ الأزليَّةُ ، وسيبقون في النعمِ السمرديَّةِ . يستنجز الحقُّ لهم عِدَاتِهِمْ ، وَيُؤَصِّلُهُمْ إِلَىٰ دَرَجَاتِهِمْ ، وَيُحَقِّقُ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ .
« إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا » : لأن ما أتيتنه فقد أتاك أو ما أتاك فقد أتيتنه ^(١) .
« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » : فإن أسمعهم مصوتهٌ عن سماعِ الأغيارِ ، لا يسمعون إلا من الله وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ كانوا يعدون من عنده طعام البكرة والعشية من جملة الميسير والأغنياء لكونهم فقراءً ؛ وإن وجدوا غداءهم في الغالب يعدمون عشاءهم ، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا يجدون غداءهم . ويقال في « لهم ما يشتهون فيها » : بمقدار الغدو والعشى من الزمان في الجنة أي كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة ؛ فلاشباح رِزْقٌ من مطعومٍ ومشروب ، وللأرواح رِزْقٌ من سماعٍ وشهود ، ولسكلي — على قدرِ استحقاقه — قِسْطٌ معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾

(١) أي أن (ما أتيتنه) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجرح .

فالجنةُ للأتقياء من هذه الأمة مُعدَّةٌ لهم ، والرحمةُ لمصابةِ المسلمين مُدخَرَةٌ لهم ، الجنةُ لُطْفٌ من الله تعالى ، والرحمةُ وَصْفٌ لله تعالى . وقوله : « من عبدانا » : فَعَبَدَهُ على الخصوصيةِ مَنْ كان اليومَ في قيد أمره . وقوله : « من كان تقياً » : قوم يتقون المعاصي والمخالفات ، وقوم يتقون الشهواتِ ، وآخرون يتقون الغفلاتِ ، وآخرون يتقون شهودَ كُلِّ غير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ننزِّلُ إلا بأمرٍ ربِّك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربُّك نسيًّا ﴾

إن الملائكةَ — عليهم السلام — أبداً ينزلون بإذنِ الحقِّ تعالى ، فبعضهم بإنجادِ المظلومين ، وبعضهم بإغاثةِ الملهوفين ، وبعضهم بتدميرِ الجاحدين ، وبعضهم بنصرةِ المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمورِ الناسِ أجمعين . واللهُ — سبحانه — لا يتركُ جاحداً ولا عابداً من حفظٍ وإنعامٍ ، أو إهمالٍ ونسكالٍ . . .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فاعبُدْهُ واصطبرِ لِعِبَادَتِهِ هل تعلمُ له سميًّا ﴾

بحقِّ الإظهارِ يجب أن يكون هو ربُّها ، ويكون مالِكها ، ويكون قادراً عليها . وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمعنى كون فعل الشيء لفاعلِه أنه في مقدوره وجوده . ويقال إذا كان ربُّ الأَكْبَرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغرِ من الضعفاءِ ، وقيمةُ العَبْدِ بِمَالِكِهِ وَقَدْرِهِ^(١) ، لا بثمانه في نفسه وخطره .
قوله : « فاعبُدْهُ » أي قِفْ حيناً أمرِك ، ودَعْ ما يقع لك ، واخلِّ رأيتك وتدبيرك .
قوله : « واصطبرِ لِعِبَادَتِهِ » : الاصطبارُ غايةُ الصبرِ .

قوله : « هل تعلمُ له سميًّا » : أي كفوا ونظيراً . ويقال هل تعرف أحداً يسمى « الله » غيرَ الله ؟ ويقال أتى بالنظيرِ . . . وهو بالقدمِ متوحدٌ والتشبيهُ يقتضى التسويةَ بين المتشابهين ، ولا مثلَ له . . لا موجوداً ولا موهوماً .

(١) أي قدر هذا المالك

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ
أُخْرِجُ حَيًّا ﴾ * أولاً يذكر الإنسان
أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا

أنكروا حديث البعث غاية الإنكار ، فأقام الحجة عليهم بالنشأة الأولى ؛ فقال : إن الذي
قدر على خلق الخلق في الابتداء وهم نُطْفُ ضَمَعَاءُ ، وقَبْلُ كانوا في أصلاب الآباء وأرحام
الأمهات ففَطَّرَهُمْ ، وعلى ماشاء صَوَّرَهُمْ ، وفي الوقت الذي أراد — عن (١) بطون
أمهاتهم أَخْرَجَهُمْ .

قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المدوم لم يك شيئاً في حال
عَدَمِهِ (٢) .

ويقال أبطل لهم كل دعوى حيث ذكَّروهم نَسَبَهُمْ وَكَوَّنَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنُنْخِشُهُنَّ وَالشَّيَاطِينَ
ثُمَّ لَنُخْضِرَهُنَّ حَوْلَ جَهَنَّمَ جَنِيًّا ﴾

نخشهم جميعاً فيجتمعون في العرصة (٣) . ثم يخلف مُنْقَلِبُهُمْ ؛ فيصير قومٌ إلى النار
ثم إلى دَرَكَاتٍ بعضها أسفل من بعض — واسمُ جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قومٌ إلى الجنة
ثم هي دَرَجَاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض — واسمُ الجنة يشمل على جميع مساكنهم .
ويقال التفاوت في الجنة بين الدرجات أكثر من التفاوت بين أهل الدارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد في الآية ٧٨ سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون
أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

(٢) وفيه رد على الفاتلين بأن المادة لا تستحدث .

(٣) الرصة = ساحة الدار أو صفيحة من الحديد توضع في التنور لينضج عليها الخبز
وغيره (الوسيط) .

مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلَالِ وَالضَّلَالِ ضَوْعَفَ عَلَيْهِ غَدَاً الْعَذَابِ وَالْأَغْلَالِ .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتهما من هو أهل لها ، فمن كان عتوه اليوم أشدَّ غلوا كان في النار أبعد من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾

كلُّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (...) (١) والزلل ؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتمالاً واحتراقاً . وقوم يردونها — كما في الخبر : « إن للنار عند مرورهم عليها إذوابةً كإذوابةِ اللَّبَنِ ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أوليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شعرتم (٢) »

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

يُنَجِّي مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبقى من

(١) مشتبهة وهي في الرسم هكذا (الالتباس) وربما كانت في الأصل (الالتباس) أي الوقوع في (الليس) والالتباس مناسب (للال) .

(٢) الإذوابة : الزبد حين يوضع في البرمة لينذاب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣٦٢) .
وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد ورد تموها وهي خامدة (القاضي البيضاوي ط الحبشال مجده) ص ٤١٠ .

وعن جابر أيضاً ، ورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم « [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١١ ص ١٣٦ سلسلة التراث] .
وعن الحسن « ليس ورود الدخول ، إنما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ؛ فالوؤود أن يبروا على الصراط . » وقد استند كثير إلى رأى الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لا ينجيهم . ويترك الكفار فيها بنمت الخلية عن الخروج منها ، وعند ذلك يشتد عليهم البلاء ، وتطبق عليهم أبواب جهنم ، وينقطع منهم الرجاء والأمل .

ولمَّا ينجو القوم بحسب تقواهم ؛ فزيادة التقوى توجب لهم التعجيل في النجاة ؛ فمن سابق ومن لاحق ، ومن منقطع ، ومن محترق . . إلى كثير من الأصناف والألوان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ

الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يعنى إذا قرئت عليهم آيات القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيف ، ويدعون أنهم على حق ، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحدس والظن .

قوله جل ذكره ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ

أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئِيًّا ﴾

أى إن هؤلاء ينخرطون في سلك من تقدمهم ، كما سلكوا في الريب منهاجهم ، وسيلقون ما يستوجبونه على سوء أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ^(١) مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْسُدْ

لَهُ الرَّحْمُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا

مَأْيُوعَدُونَ إِمَّا الْمَذَابَ وَإِذَا السَّاعَةُ

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا

وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾

إن الله تعالى يُمهِّلُ الكفار ليركضوا إلى أباطيل ظنونهم ، ويُغترُّوا بِسلامة أحوالهم ، فينسونه في غفلة الإمهال والاعتزاز بِسلامة أحوالهم ، ثم يفشاهم التقدير بما يستوجب حسابهم قوله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . . ﴾ أى يحل بهم موعود العقوبة عاجلاً أو قياماً

(١) سقطت (قل) من الناسخ فأثبتناها .

الساعة^(١) آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تماماً عنه من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾
أى يُغْنِيهِمْ بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ،
فإذا مَتَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة .

« وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ
عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

« الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق
الإخلاص .

ويقال « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : التي تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خَيْرٌ » لأن في استحقاقِ القبولِ زيادةً للهدى ؛ فيصيرُ عِلْمُ اليقينِ عَيْنَ
اليقينِ ، وعَيْنُ يقينهم حَقُّ اليقينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ
لَأُوتَيْنَ مَالًا وَلَدًا ﴾

أخبرُ بقصة ذلك الكافر^(٢) الذي قال بيمين — من غير حجة — لأُعْطِينَ مَالًا وولداً ،
ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟ ﴾

(١) وردت (السرعة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية :

(٢) عن الحسن : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . والمشهور أنها في العاص بن وائل فقد روى أن خباب
ابن الأرت صاع للعاصي حلياً فاقضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون أنكم تيمثون وإن في الجنة ذهباً وفضة
فأنا أقضيك ثم فإني أوتى مالا وولداً حيائذا !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك عن مسروق وعن الكلبي وعن مقاتل . (أسباب النزول
ط مؤسسة الحلبي) ص ٢٠٤ .

ورواه البخارى عن الحميدى عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريفٍ منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك .
 ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً ، أو أملّ منه أشياء
 كثيرة فאלله تعالى يحقّقها له ، ويصدقُ ظنّه لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى
 لا يخلف عهده .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّا سَنَكْتُمِبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ
 مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَزَّهَتْهُ مَا يَقُولُ
 وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

كلا . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سنمد لهم من العذاب مداً
 أى سنطيل في العذاب مدتهم . .

« وَنَزَّهَتْهُ مَا يَقُولُ . . . » لن نمتعه بأولاده وحشمه وخدمته وقومه ، ويعود إلينا
 منفرداً عنهم .

قوله جل ذكر : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا
 لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

حكوا بظنهم الفاسدين أن أصنامهم تمنعهم ، وأن ما عبده من دون الله تعالى توجبُ عبادتهم
 لهم عند الله تعالى وسيلةً . . وهيات هيات أن تكون لغاليط حسابهم تحقيق ، بل إذا
 حشروا وحشرت أصنامهم تبرأت أصنامهم منهم ، وما أملوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم .
 ويقال طلبوا العِزَّ في أما كن الذل ، فأخفقوا في الطلب ، ونفوا عن المراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى
 الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

تؤزهم أى تزعمهم ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وُعته ، وخاطر الحق يكون بروح
 وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾
 الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا اقتضاء لها . وإذا انتهى الأجل فلا تنفع
 بعد ذلك الحيل ، وقبل اقتضائه لا يزيد ولا ينقص بالعمل .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ
 وَفِدَاءً﴾

قيل ربكنا على نجائب طاعتهم ، وهم مختلفون ؛ فمن راكب على صدور طاعته ، ومن
 راكب على مرأب هممه ، ومن راكب على نجائب أنواره . ومن محمول يحمله الحق في عقبه
 كما يحمله اليوم في دنياه . وليس محمول الحق كحمول الخلق 1

قوله جل ذكره: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾
 فأولئك يساقون بوصف العز ، وهؤلاء يساقون بنعت الذل ، فيجمعهم في السوق ، ولكن
 يعابر بينهم في معانيه .. فشتان ما هما 11

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ
 عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم — يوم الميثاق — من القيام بالشهادة
 بوحدانية مولاهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ
 شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ
 يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ
 وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا
 لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾

ما أعظم بهتانهم في مقالتهم ! وما أشد جرأتهم في قببح حالتهم ! لكن الصمدية متقدسة
 عن عائدي يعود إليها من زين بنوحيد موحّد ، أو شين بلحاد ملحد ... فاشاغت الأوجوههم
 بما خاضوا فيه من مقالهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يتجمل بما قاله الآخرون إلا القائل ،
 وما عاد إلا على القائل مقابل من عاجل أو آجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يُنبئنا للرحمن أن يتخذَ وُلداً
 إن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ
 أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ
 آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

أنى بالولد وهو واحد ١٢ ، وأنى بالولادة ولا جنس له وجوباً (١) ولا جوازاً ١٢
 « لقد أحصاهم .. » : لا يُعزَّب عن علمه معلومٌ ، ولا يُنكَّر عن قدرته — مما يصح
 أن يقال حدوته — موهوم .

« وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » : لا خَدَمَ يصحبهم ، ولا حَسَمَ يلحقهم ، كلُّ بِنَفْسِهِ
 مشغولٌ ، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾

يجعل في قلوبهم ودًّا لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة ، وفي الخير : « لا يزال العبد يتقرب
 إلى بالنوافل حتى يحبني وأحبه » (٢) .

ويقال يجعل لهم الرحمن ودًّا في قلوب عباده ، وفي قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة
 محبوبون من كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل (٣) .

(١) وردت (وجوداً) والأرجح أن تكون (جوباً) لتلائم مع (جوازا) أي لا يجب عليه
 ولا يجوز في وصفه — لتفدسه وتنزهه — أن يكون له جنس .

(٢) ... فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبسط بها) وهو
 حديث قديمي رواه البخاري عن أبي هريرة ، وواحد عن عائشة ، والطبراني في الكبير عن أبي امامة ،
 وابن السني عن ميمون ، وقد أخطأ من زعم أن البخاري انفرد بروايته .

(٣) أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : « إنى
 قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادى في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض .. وذلك قوله تعالى : « سيجعل
 لهم الرحمن ودًّا » .

السيوطي في إتقانه ص ١٩٩ ج ٢ ط مصطفى الحلبي .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأِنَّمَا (١) يُسِّرُّنَاهُ يَلِيسًا إِنَّكَ لِتُبَشِّرُ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم يسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فطوبى
لِمَنْ يُسِّرُّ لِمَا وَفَّقَ بِهِ ، والويل لمن خُوفَ بل خُدِلَ فِيهِ . والقومُ بين موفِّقٍ ومُخْدُولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ
نُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ
لَهُمْ رِكْنًا ﴾

أُنْبِتَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ ، وعلى ما شاء فطَرَهُمْ وَأَبْقَاهُمْ ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أَمَاتَهُمْ وَأَفْنَاهُمْ ،
فَبَادُوا بِأَجْمَعِهِمْ ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ،
وَسَيِّطُ الْبَوْنِ — يوم النشور — بالنقيير والقطمير .

سورة طه

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ اسْمَ عَزِيزٍ مَنْ تَحَقَّقَ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ تَمَحَّضَ (٢) فِي خُلُوصِ عِبَادَتِهِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى
ضِيَاءِ صِفْوَتِهِ نَزَلَ عَنْ سَبَاءِ نَعْوَتِهِ .

اسْمَ عَزِيزٍ مَنْ عَرَفَهُ سَمَّتْ هِمَّتُهُ ، وَإِذَا سَمَّتْ هِمَّتُهُ سَقَطَتْ عَنِ الدَّارِينَ طَلِبَتُهُ .

اسْمَ مَنْ عَرَفَهُ زَالَ كَرُّهُ وَطَابَ قَلْبُهُ ، دِينُهُ رَبُّهُ (٣) وَجَنَّتْهُ حَبَّةٌ .

اسْمَ عَزِيزٍ مَنْ وَصَّيْتَهُ بِعِبَادَتِهِ حَرَّرَهُ مِنْ رِقِّ شَهْوَاتِهِ ، وَأَعْتَقَهُ مِنْ أَسْرِ مَطَالِبِهِ ، فَلَالَهُ
لِحُبُوبِ طَلْبٍ ، وَلَا يَسْتَفْزُهُ لِحُدُورِ هَرْبٍ .

(١) أَخْطَأَ النَّاسُخَ إِذْ جَمَعَهَا (وَإِنَّمَا)

(٢) الْمَحْضُ = اللَّابِنُ الْحَالِضُ ، وَتَمَحَّضَ = خَلَسَ مِنَ الشَّوَابِثِ .

(٣) أَى عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ لِدَانَتِهِ ، لَا طَلِبًا لِثَوَابٍ وَلَا خَوْفًا مِنْ عِقَابٍ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي الْعِبَادَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي ﴾

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طأً يسرك بساط القربة فأنت لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرِّك ذكر غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيش من اهتدى بك .

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاح الوصلة ، والتمهيد لبساط القربة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم »^(١) وقف بفرد قدم تباعداً وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجه فقيل له : طأ الأرض بقدميك .. لم كل هذا التعب الذى تتحملة ؟ فزاد في تعبه ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه^(٢) وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إلات تدكرة لمن يمشى ﴾

فالقرآن تبصرة لذوى العقول ، تذكرة لذوى الوصول ، وهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحة النفس فى آجالهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنسِ فى عاجلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تنزلاً ممن خلق الأرض والسماوات

العلى ﴾

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) ترجح أنها (تورمت قدماه) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[انه كان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له : يا رسول الله « أليس قد حضر لك ما تقدم من ذنوبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشيخان ، والنسائي . والترمذى عن المغيرة بن شعبه .

(وسيمود القشيري إلى فسكرة « طأ بقدميك الأرض .. » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك .. آية ١٣١) .

جَمَلَ الْأَرْضِ قَرَارًا لِعِبَادِهِ . وَنَفُوسُ الْعَابِدِينَ أَرْضٌ وَقَرَارٌ لَطَاعَتِهِمْ ، وَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ قَرَارٌ لِمَعَارِفِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

استواء عرشه في السماء معلوم ، وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد .

قال تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ثَمَانِيَةَ ﴿١﴾ » وعرش القلوب : قال تعالى :

« وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٢) . أمّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرش القلوب الرحمن عليه استوى . عرش السماء قبلة دعاء الخلق ، وعرش القلب محل نظر الحق . . . فشتان بين عرش وعرش !

قوله جل ذكره . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

له الأشياء على العموم ملكاً ، والأولياء تخصيصاً وتشريعاً . له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العدم ، فالكل له إثباتاً وخلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ

السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

النفس لا تتقف على ما في القلب ، والقلب لا يقف على أسرار الروح ، والروح لا سبيل له إلى حقائق السر . والذي هو أخفى من السر فهو ما لا يطلع عليه إلا الحق (٣) .

ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه الملكان ، ويستأثر بعلمه الجبار ، ولا تقف عليه الأعيان .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى ﴾

(١) آية ١٧ سورة الحاقة .

(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(٣) يسميه التشبيهي في مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

فَقِيَ كُلُّ مَوْهُومٍ مِنَ الْحَدِيثَانِ أَنَّ يَكُونُ شَيْءٌ مِنْهُ صَالِحًا لِلْإِبْدَاعِ ، وَأُثْبِتَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ
بِاسْتِحْقَاقِ الْقِدَمِ .

« له الأسماء الحسنى » أى صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى (١) .
ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ لِلخَلْقِ بِأَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْعَالَمِ وَالنَّقْدُسِ عَنْ
النَّقَائِصِ لَهُ عَلَى وَصْفِ التَّفَرُّدِ بِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير (٢) والإثبات . وأجرى - تعالى - سُنَّتَهُ
في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا
صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾

الأح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم ، فكان
موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهله :

« امكثوا إني آنست نارا » فقال أهله : كيف تتركنا والوادي مسبع ؟

فقال : لِأَجْلِكُمْ أَفَارِقُكُمْ ؛ فَلَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْ هَذِهِ النَّارِ بِقَبَسٍ .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ ، فلم يتمالك حتى خرج . ففي القصة
أنه لما أتاهَا وَجَدَ شَجَرَةً تَشْتَبِلُ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا ، فجمع موسى - عليه السلام -
حشائشَ لِيَأْخُذَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ ، فَعَرَفَ أَنَّ هَذِهِ النَّارَ لَا تَسْمَحُ نَفْسُهَا بِأَنْ تُعْطِيَ إِلَى
أَحَدٍ شَعْلَةً :

(١) الأريج - حسب الذى ذكره القشيري في كتابه التجميع في التذكير - أنها (. وصفه فعل) .
(٢) وردت (التقدير) والصواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغي الذى يطلق على مثل
هذا الاستفهام .

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَفِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بِلَيْلٍ وَلَا نُفْرِي
يا موسى هذه النارُ تضيءُ ولكن لا تعطى لأحدٍ منها شعلة . يا موسى هذه النارُ تحرق
القلوبَ لا النفوس .

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قبسٍ من النار فسكان يجتال كيف يأخذ منها
شيئاً ، فبينما هو في حالته إذ سمع النداء من الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي
الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾

علم موسى أنه كلام الحق — سبحانه — لما سمع فيه الترتيب والتنظيم والتركيب ، فعلم
أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى — عليه السلام — أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصه الحق
— سبحانه — به من حيث الإلهام دون نوعٍ من الاستدلال .

« قوله : « فاخلع نعليك . . » فَإِنْ بَسَّاطَ حَضْرَةَ الْمَلُوكِ لَا يُوْطَأُ بِنَعْلِهِ .

ويقال ألقِ عَصَاكَ يَا مُوسَى ، واخلع نعليك ، وَأَقِمِّ عِنْدَنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَلَا تَبْرَحْ .
ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعْلين تفرغ القلب من حديث الدارين ، والتجرد للحق
بنت الانفراد .

ويقال « اخلع نعليك » : تَبْرَأُ عَنْ نَوْعِي أفعالِكَ^(١) ، وَاْمُحُّ عَنِ الشُّهُودِ جَنْسِي أَحْوَالِكَ
من قَرَبٍ وَبُعْدٍ ، وَوَصْلٍ وَفَصْلٍ ، وَارْتِيَاحٍ وَاجْتِيَاحٍ ، وَفَنَاءٍ وَبِقَاءٍ . . وَكُنْ بَوْصَفْنَا ؛ فَإِنَّمَا
أَنْتَ بِحَقِّنَا .

أَثْبَتَهُ فِي أَحْوَالِهِ حَقِّي كَانَ كَالْمَجْرَدِ عَنْ جَمَلَتِهِ ، الْمُصْطَلَمِ عَنْ شَوَاهِدِهِ .

(١) ربما حدث سقوط ، فالكلام يحتاج إلى توضيح (نوعي أفعالك) قياساً على ما ذكر في (جنسي
أحوالك) ونرجح أن نوعي الفعل هما الأمر والنهي ، أو المأمور به والمزجور عنه . . أو ما في هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادي المقدس طوى » : أى إنك بالوادي المقدس عن الأعلام ؛
وساحات الصمدية تجلُّ عن كل شين ، وإيمانٍ وزينٍ ؛ عن زينٍ بإحسانٍ وشينٍ بمصيانٍ ؛ لأنَّ
للربوبية مطعَماتٍ عِزٌّ تَهْرُكُ كلَّ شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾
وعلى علمٍ منى بك اصطيفيتك ، وجردتُكَ ونقيتُكَ عن دَنَسِ الأوهامِ وكلِّ
مَا يَكْذُرُ صَفْوَكِ .

ويقال بعدما اخترتُكَ فأنت لى وبى ، وأنت محو فى فناءك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾
تقدَّستُ عن الأعلام فى أزلِّ ، وتنزهتُ (.....) (١) والأشكال باستحقاقِ
جلالى وجمالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأغيار فى وجودى فَقَدْتُ ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ
حَقِّ محوِّ .

قوله : « فاعبدنى » : أى تَدَلَّلْ لِحِكْمِي ، وَأَنْفِذْ أَمْرِي ، وَاخْضَعْ لِجَبْرَتِ سُلْطَانِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

إقامتها من غير ملاحظة مجربها ومنشئها يُورث الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاته على نعت
الشهود والتحقق بأن مجربها غيره (٢) كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة ، والوقوف على
محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِنُجْزَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾

الفائدة فى تعريف العبادِ بِقُرْبِ السَّاعَةِ أَنْ يَسْتَفِيقُوا مِنْ غَفَلَاتِ التَّفَرُّقَةِ ، فَإِذَا حَضَرُوا

(١) حدث هنا طمس أفقدنا بقية الجملة ، وربما كانت (عن الأمثال) .

(٢) الضمير فى (غيره) يعود على العبد والمقصود أن يتحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه تعبده .

بقلوبهم - ففي حال استئدامة الذكر - فما هو موعودٌ في الآجل أ كثره للحاضرين موجودٌ في العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَإِ يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

إذا أكرمه اللهُ بحُسْنِ التنبيهِ ، وأحضره بنعمتِ الشهودِ فلا ينبغي أن ينزل عن سماءِ صفاته إلى جحيمِ أهل الغفلة في تطوحهم في أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾
كرَّرَ عليه السؤال في غير آية عن عصاه لما كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحْبَتُهُ هَيْبَةُ الْمَقَامِ عِنْدَ فَجْأَةِ سَمَاعِ الْخَطَابِ ؛ فَلَيْسَ كُنَّ
بعض ما به من بؤاده الإجلال . . رَدَّهُ إِلَى سَمَاعِ حَدِيثِ الْعَصَا ، وَأَرَاهُ مَا فِيهَا
من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الْهَيْبَةِ لَعَلَّهُ كَانَ لَا يَبْعِي وَلَا يَطِيقُ ذَلِكَ . .
فقال له : وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ
بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ
أُخْرَى ﴾

قال هي عصاي ، وأخذ يُعدُّ ما له فيها من وجوه الاتئاع فقال له :

﴿ قَالَ أَلْقِيهَا يَا مُوسَى ﴾

(١) فالقيامة عند هؤلاء ، تقوم كل يوم غير مرة بالهدر والنوى والفراق (و جهنم الفراق اشد هولاً من جهنم الاحتراق) . اللطائف في مواضع أخرى .

فإنَّكَ بنعت التوحيد^(١) ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحُّ ذلك ، ومتى يسلمُ لك أن يكون لكَّ معتمدٌ تنوكاً عليه ، ومستند عليه تسمين ، وبه تنفع ؟

ثم قال : « ولي فيها مآرب أخرى » : أوَّلُ قَدِيمٍ في الطريق تركُ كلِّ سَبَبٍ ، والتَّمَقُّي عن كلِّ طَلَبٍ ؛ فكيف كان يسلمُ له أن يقول : أفعلُ بها ، وأمتنع^(٢) ، ولي فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفصيلاً في انتفاعه بمصاهه إلا كان أقوى وأولى بأن يؤمن باللقائها ، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامة صحته سقوط الإضافات^(٣) بأسرها ؛ فلا جرم لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أمرًا باللقائها فجعلها الله حيةً تسمى ، وولى موسى هارباً ولم يُعَقَّب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كوشف صاحبها يسرُّها يهرب منها .

ويقال لما باسطه الحقُّ بسماح كلامه أخذته أريحية سماح الخطاب ، فأجاب عما يُسأل وعما لم يُسأل فقال : « ولي فيها مآرب أخرى » ، ودَّكَرَ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤنسني^(٤) في حال وحدتي ، وتضئ لي الليل إذا أظلم ، وتحملني إذ عييت في الطريق فأركبها ، وأهشُّ بها على غنمي ، وتدفع عني عدوِّي . وأعظم مآرب لي فيها أنك قلت : « وما تلك بيمينك ؟ » وأيةُ نعمةٍ أو مآربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ من أن تقول لي : وما تلك ؟ ويقال قال الحقُّ — بعد ما عدَّد موسى وجوه الآياتِ وصنوف انتفاعه بها — ولك يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانٌ صدق .

(١) إذا صح نقل هذه العبارة عن الأصل فالقشيري يقصد بها (فانك موحد) ، والموحد أعلى درجات العارفين .

(٢) أي تسكون لي بها منعة وقوة ، وربما كانت (وانتفع) وكلاما صحيح في المعنى .

(٣) سقوط الإضافات أي لا يقول لي ولا بي ولا مني — وهذه آية صحة التوحيد عندهم (أنظر الرسالة ص ١٤٩) .

(٤) وردت (تسمى) ، وقد وجدنا (تؤنسني) أقرب إلى المعنى وإن كانت بعيدة في الرسم ، فأثرناها ونهنا إلى الأصل : أو ربما سقطت (ممي) بعد (تسمى) ويكون السياق آنذاك منسجماً .

ويقال جميعُ ما عَدَدَ من المنافع في المصا كان من قِبَلِ اللَّهِ . . فكيف له أن ينسبها
ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يَا حَيَّةَ الْخُلْدِ ، وَالْهُدَايَا إِذَا هُدَى إِلَيْكَ فَمَا مِنْكَ يُهْدَى
ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لقد عَلِمْتُ كُلَّ وَصْفٍ بِهِذِهِ الْعَصَا ، أَمَا هَذِهِ
الوَاحِدَةُ فَلَمْ أَعْرِفْهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى ﴾ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى ﴿

لَا عِبْرَةَ بِمَا يُوْهِمُ ظَاهِرُ الْأَشْيَاءِ ؛ فَقَدْ يُوْهِمُ الظَّاهِرُ بَشْيَءٍ ثُمَّ يَبْدُو خِلَافَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ؛
فَعَصَا مُوسَى صَارَتْ حَيَّةً .

ثم قال المقصودُ بذلك أن تكون لك آيةٌ ومعجزةٌ لا بلاءٌ وفننةٌ (١) .

قوله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . . ﴾ : أشهدَه — بانقلاب العصا من حالٍ إلى حالٍ ؛
مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أَنَّهُ يُنْبِتُ عِبَادَةَ فِي حَالِ التَّلْوِينِ مَرَّةً وَمَرَّةً ؛
فَمِنْ أَخْذٍ وَمِنْ رَدٍّ ، وَمِنْ جَمْعٍ وَمِنْ فَرْقٍ الْحَقِّ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ
بِيضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى *
لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نَفْسِهِ ، وَهِيَ قَلْبُ يَدِهِ بِيضَاءً ؛ إِذْ جَعَلَهَا فِي جَيْبِهِ
مِنْ غَيْرِ الْبَرَصِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لِهِمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٣)

(١) وهذا الكلام يتطبق كذلك على الكرامة التي تظهر على يدي الولي ، وهذا فرق بين المعجزة
والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التمكين) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنما قال : أُدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ولم يقل كُمِّكَ لأنه لم يكن لِمَا عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ كُمًّا .
 قوله : « لنريك ^(١) من آياتنا الكبرى » : الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من
 الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكليف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها
 صاحبها ذوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾

بعدما أسمه كلامه من غير واسطة ، وشرف مقامه ، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب
 ليدعو فرعون إلى الله — مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعرف — فشق على
 موسى ذهابه إلى فرعون ، وسماع جحده منه ، بعد ما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه أثر
 أمر محنته على مراد نفسه .

ويقال لما أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أهبة النقل وما به يتم تبليغ ما حمل من
 الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قال رب أشرح لي صدري *
 ويسر لي أمري * واحلل عقدة من
 لساني * يفقهوا قولي ﴾

لِيَعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أَدَاءِ الْأُمُورِ بِهِ .

ويقال إن موسى لما أخذ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو :
 « رب أشرح لي صدري ، ويسر لي أمري . . . » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .

قوله « قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري » : حتى أطيق أن أسمع كلام غيرك
 بعدما سمعت منك . « واحلل عقدة من لساني » : حتى ينطلق بمخاطبة غيرك ، وقوتي حتى
 أردد ما أردت . . . بك لا بي .

قوله جل ذكره : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون
 أخي * أشدّد به أزري ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (لربه) .

سَأَلَ أَنْ يَصْحَبَ أَخَاهُ مَعَهُ ، وَلَمَّا ذَهَبَ لِسَمَاعٍ كَلَامَ اللَّهِ حِينَ قَالَ تَعَالَى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » (١) كَانَ بِفِرْعَوْنَ ، لِأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى الْخَلْقِ يُوجِبُ الرَّحْشَةَ ؛ فَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ الصَّحْبَةَ لِيُخَفِّفَ عَلَيْهِ كَلْفَةَ الْمَشَقَّةِ .

وَيُقَالُ إِنْ الْمَحَبَّةَ تَوَجَّبَ التَّجَرُّدَ وَالْإِنْفِرَادَ وَالْأَيْلَانَ لِلغَيْرِ مَعَ الْمَحَبِّ مَسَاغٍ ؛ فَفِي ذَهَابِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ اسْتَصْحَبَ أَخَاهُ ، وَلَمَّا كَانَ الذَّهَابُ إِلَى الْمِيَقَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلغَيْرِ سَبِيلًا إِلَى صَحْبَتِهِ ، إِذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَهَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِجَاهِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ كِي نَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴾ وَنَذْرُكَ

كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿

بَيْنَ أَنْ طَلَبَهُ مُشَارَكَةَ أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رَبِّهِ لَا بِحِظِّ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ : « كِي نَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذْرُكَ كَثِيرًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾

أَعْطَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَ ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفِظْنَاكَ فِي الْبَيْمِ وَنَجَّيْنَا أُمَّكَ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ ، وَرَبَّيْنَاكَ فِي حِجْرِ الْعَدُوِّ . . فَأَيْنَ — حِينَئِذٍ — كَانَ سُؤْلُكَ وَاخْتِيَارُكَ وَدَعَاؤُكَ (٢) ؟ وَأُبْتَنَّا فِي قَلْبِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ شَفَقْنَاكَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ حَقَّ أَحْبَبِكَ عَدُوِّكَ ، وَرَبَّكَ حَقَّ قَتَلَ سَيْبِكَ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْوُلْدَانِ ، وَالَّذِي بَدَأَكَ بِهِذِهِ الْمَنِّ هُوَ الَّذِي آتَاكَ سُؤْلَكَ ، وَحَقَّقَ لَكَ مَأْمُولَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمَّكَ مَا يُوحَى ﴾

أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْبَيْمِ ، فَلْيَلْقِهِ الْبَيْمُ بِالسَّاحِلِ ، بِأَخْذِهِ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ ﴿

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) أى أن فضل الله دائم ، وسابق للدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنساني ولا بالعمل الإنساني ، وهذه نظرة في الشمول قلما يقطن إليها غير الصوفية . فأين منهم المعتزلة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المرامى البعيدة التي يقصد إليها القشيري .

كان ذلك وحى إلهام ؛ ألقى الله في قلبها أن تجعله في تابوت ، وتلقيه في اليم يعني نهر النيل ، ففعلت ، فألقاه النهر على الساحل ، فحوّل إلى فرعون . فلما وقع بصراً امرأة فرعون عليه باشر حبه قلبها ، وكذلك وقعت محبته في قلب فرعون ، ولكنها كانت أضعف قلباً ، فسبقت بقولها « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه . . » (١) ، ولولا أنها علمت أنه أخذ شعبة من قلب فرعون ما أخذ من قلبها لم تقتل : « قرّة عين لي ولك » .

قوله : « يأخذه عدو لي وعدو له » : ربّه في حجر العدو وكان قد قتل بسببه أوفاً من ولدان . . ولكن من مأمّنه يؤتى الخنير ١ وبلاء كلّ أحده كان بعدة إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تقدّم عليه بسنين ؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في حجره كان قد أمر بقتل كثير من ولدان ، ثم إنه ربّه ليكون إهلاك مملوكه على يده . . ليعلم أنّ أسرار الأقدار لا يعلمها إلا الجبار .

ويقال كان فرعون يُسمّى والد موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لامّ موسى ظنر (٢) موسى — ولم تكن ؛ فمن حيث الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصة (٣) .

ولقد جاء في القصة أن موسى لما وُضع في حجر فرعون لطم وجهه فقال : إن هذا من أولاد الأعداء فيجب أن يُقتل ، فقالت امرأته : إنه صبي لا تمييز له ، ويشهد لهذا أنه لا يميّز بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدق زوجها قائلاً ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدّ يده إلى الجواهر فأخذ جبريل عليه السلام بيده وصرفها إلى النار فأخذت جمره بيده ، وقرّبها من فيه فاحترق لسانه — ويقال إن العقدة التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فعند ذلك قالت امرأة فرعون : ها قد تبين أن هذا لا تمييز له ؛ فقد أخذ الجمره إلى فيه . وتخلّص موسى بهذا مما حصل منه من لطم فرعون .

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظنر . المرصعة لغير ولدها .

(٣) يقصد بالحديث والقصة التصوف وأهله ؛ فاقب العبد مرتبط بقلبه وحقيقة باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق من أخذ الحجر وهو صبي رضيع ، ثم احترق لسانه ، فعلم السكُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس . فإنه سبحانه فعَّال لما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِي ﴾

أى أحببتك . ويقال فى لفظ الناس : فلان ألقى محبته على فلان أى أحبه . ويقال « ألقى عليك محبة منى » : أى طرحت فى قلوب الناس محبة لك ، فالحق إذا أحب عبداً فكل من شاهده أحبه . ويقال ملاحه فى عينيه ؛ فكان لا يراه أحداً إلا أحبه .

ويقال « ألقى عليك محبة منى » : أى أثبت فى قلبك محبتي ؛ فإن محبة العبد لله لا تكون إلا بإثبات الحق — سبحانه — ذلك فى قلبه ، وفى معناه أشدوا :
إِنَّ الْمَحَبَّةَ أَمْرٌهَا عَجَبٌ تُلْقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبٌ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾

أى برأى منى . ويقال لا أمكن غبرى بأن يستبعدك عنى .
ويقال أحفظك من كل غبرٍ ، ومن كل حديث سوى حديثنا . ويقال ما وكلنا حفظك إلى أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا .. ﴾

البلاء على حسب قوة صاحبه وضعفه ، فكلمها كان المره أقوى كان بلاؤه أوفى^(١) ، وكلمها كان أضعف كان بلاؤه أخف . وكانت أم موسى ضعيفة فردد إليها ولدها بعد أيام ، وكان يعقوب أقوى فى حاله فلم يعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَقَّلتَ نَفْسًا فَجَيْشًاكَ مِنَ النِّعَمِ ﴾

(١) قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأمثل فالأمثل » رواه الترمذى ، وابن ماجه والحاكم عن سعد بن أبى وقاص .

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق ، ثم بين الله أنه لا يضره ذلك ، فليست العبرة بفعل العبد في قلته وكثرته إنما العبرة بعناية الحق بشأن أحدٍ أو عداوته .

ويقال قد لا يموت كثير من الخلق بفنون من العذاب ، وكم من أناس لا يموتون وقد ضربوا ألوفاً من الشياطين ، وصاحب موسى عليه السلام ومقتولُهُ مات بوكزة إيش^(١) الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنة لموسى ؟ وفي بعض الكتب أنه — سبحانه — أقام موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمعه كلامه كل مرة بإسراع آخر ، وفي كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » .

« فنجيناك من الغم » : أريناك عين الجمع حتى زال عنك ما داخلك من الغم بصفة مقتضى التفرقة ، فلما أريناك سير جريان التقدير نجيناك من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

استخلصناك لنا حتى لا تكون لغيرنا . ويقال جنسنا عليك البلاء ونوعناه حتى جردناك عن كل اختيار وإرادة ، ثم حينئذ رقيناك إلى ما استوجبه من العلم الذي أهلناك له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

وكنيت عند الناس أنك أجير لشعيب ، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك ، وكان يسكني — عندهم — أن تكون محنتاً^(٢) لشعيب .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ .

أي عددنا أيام كونك في مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرفك ومحبتك منتظرين لك ، فجئت على قدر .

(١) أي (أي شيء) وهي لفظة نود في مصنفات القشيري من حين إلى آخر . وجاء في الوسيط ج ١ ص ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أي زوجاً لابنته ، وفي الحديث « سحلي فختن رسول الله »

ويقال إنَّ الأَجَلَ إذا جاءَ للأشياءِ فلا تأخيراً فيه ولا تقدماً ، وأنشدهوا في قريب من هذا المعنى :

بينما خاطرُ المني بالتلاقى سابعٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بفتنةً بلا ميعادٍ
قوله جل ذكره : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ .

استخلصتُك لي حتى لا تصلحَ لأحدٍ غيري ، ولا يتأتَّى شيءٌ منك غير تبليغِ رسالتي ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردتُ سيرك لي ، وجعلتُ إقبالك عليّ دون غيري ، وحملتُ بينك وبين كل أحدٍ من هو دوني .

ويقال ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ : قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ ، ثم قال له : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبِئَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

تعاملَ موسى عليه السلام لما أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِللِ مثل قوله : « يضيق صدري ولا ينطلق لساني » (١) ، « إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » (٢) .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : « إني معكم أسمع وأرى » ، فاستقل (٣) موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أبالي بمد ما أنت معي .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسْنَا لَعَلُّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ .

(١) آية ١٣ سورة القصص .

(٢) آية ٣٣ سورة القصص .

(٣) الاستقلال هنا معناه الاكتفاء .

إنما أمرها بالملائنة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْهُ إلى الدين ، وفي حال الدعوة يجب اللين ^(١) ، فإنه وقت المهلة ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر ^(٢) ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتي هي أحسن » ^(٣) . وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من حجة » ^(٤) .

ثم إذا ظهر من الخَصْمِ التمرُّدُ والإيابة فحينئذٍ يُقابلُ بالغلظة والحنف .
ويقال علمهما خطابَ الأكبرِ ذوى الحشمة ؛ ففرعونُ — وإن كان كافراً — إلا أنه كان سلطاناً وقته ، والمتسلطُ على عبادِ الله .

ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالرفق والملائنة . . فكيف مع المؤمن في السؤال ؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال الملّكَيْنِ في القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ جَعَدَهُ فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ وَحَدَهُ ؟

ويقال إذا كان رِفْقُهُ بالكفّارِ فكيف رِفْقُهُ بالأبرار ؟

ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ قال : أنا . . فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ قال : أنت ؟

ويقال إنه ^(٥) أحسنُ تربيةٍ موسى عليه السلام ؛ فأرادَه أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » ^(٦) .

وقوله : « لعله يتذكر أو يخشى » : أى كونا على رجاء أن يؤمن . ولم يخبرها أنه لا يؤمن

(١) وردت (التمكين) وهى خطأ في النسخ وقد انتبه أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استفهام صغيرة .

(٢) النظر هنا معناها التفكير في الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة النازعات .

لثلاثا تنبأخلمهما، ففترة في تبليغ الرسالة علماً منه (١) بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ

عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى ﴾

في الآية دليل على أن الخوف (٢) الذي تقتضيه جِبَلَةُ الإنسان غير ملومٍ صاحبه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: « إِنَّمَا نَخَافُ » .

ثم إنه سبحانه سَكَنَ ما بهما من الخوف بوعده النصر لهما .

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهِمَا شَقَقَةً عليهما ، ولكن قالا: إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ نَحِلَّ بِنَا مَكِيدَةً من جهته ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوف لأجل حق الله لا لأجل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأدَّبَا في الخطاب .

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَ لَا نَخَافُ إِنْ نِيَّ مَعَكُمْ أَسْمَعُ

وَأَرَى ﴾

تَلَطَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله: « إِنِّي مَعَكُمْ » بقولها: « إِنَّمَا نَخَافُ » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما: « إِنِّي مَعَكُمْ » وإلا فأتى بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بِالنَّبُوَّةِ ؟ !

ويقال سَكَنَ فِيهِمَا الخوف بقوله: « إِنِّي مَعَكُمْ » ، ففَقْوَا على الذهاب إليه ، إِذْ مِنْ شَرَطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكِينُ .

قوله جل ذكره: ﴿ فَأَنبِيَاكَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾

(١) وردت (منهم) وهي خطأ في النسخ لأن المقصود: مع انه سبحانه علم بانه لن يؤمن ولن يقبل .

(٢) في هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طالَّ البلاءُ بني إسرائيلَ من جهةِ فرعونَ ، فتدركهُمُ الحقُّ سبحانه ولو بعد حينَ ،
بذلك أجرى سنتَهُ أنه برُخِيَ عِنَانُ الظالمِ ، ولكن إذا أَخَذَهُ فَإِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾

من شرطِ التكليفِ التمسكينُ بالبينَةِ والآيةِ للرسولِ حتى يتَّضَحَّحَ ما يدلُّ على صدقِهِ
فما يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآيَةَ وتلك البينَةَ ما نفعتمهُم ، وإنما تأكدتْ بهما عليهم
الحُجَّةُ ، فإذا عميَ بَصَرُ القَلْبِ فَأَتَى تنفع بصيرةُ الحجَّةِ ؟ وفي معناه قالوا :

وَفِي نَظَرِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ إِذَا كَانَ مَمْنوعًا سَبِيلَ الْمَوَارِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾

إنما يتَّبِعُ الْهُدَى مَنْ كَمَّلَ قَلْبَهُ بِنُورِ الْعِرْفَانِ ، فأما من كانت على قلبِهِ غشاوةُ الجهلِ ..

فتى يستمع إلى الْهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ

عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

ما بعث اللهُ نبيًّا إلا وقد أُنذِرَ قومهَ بالعذابِ على تركِ الأمرِ ، وبشَرُّهُمُ بالتوابعِ
على حِفْظِ الأمرِ . والعذابُ مُعَجَّلٌ ومُؤَجَّلٌ ، فمُؤَجَّلُهُ لا يُوقَفُ على تفصيلهِ الأعداءِ وكذلك
مُؤَجَّلُ التوابعِ ، قال تعالى : « فلا تعلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرةِ أعينٍ » (١) .

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواعُ ، وعلى حسبِ مقامِ المرءِ تَسَوَّجَهُ عَلَيْهِ الْمُطَابَّاتُ ، والزيادةُ
في العقوبةِ تدلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرُّتْبَةِ ، كالخُرِّ والعَبْدِ في الخلدِ . وقسوةُ القَلْبِ نوعُ
عقوبةِ ، وما يتداخلُ الطاعةُ نوعُ عقوبةِ ، وخسرانُ نصيبٍ في المالِ والأَنْفُسِ نوعُ عقوبةِ ..
إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ قال

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

ثم هدى

(١) آية ١٧ سورة السجدة .

« فمن ربكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالخطاب بعدما قال : « فَمَنْ ربكما ؟ » : فيحتمل أن ذلك لمشاكلة رهبوس الآي ، وبجتمل أن موسى كان مُقَدِّمًا على هارون فخصه بالنداء .

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فعله — سبحانه فقال : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه » ليُعلم أن الدليل على إثباته — سبحانه — ما دلت عليه أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ * قال
عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربِّي ، فَمَا عَرَفْتَنِي عَرَفْتُ ، وما ستره
عَلَيَّ وَقَفْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ
نَبَاتٍ شَتَّى ﴾

جَعَلَ الْأَرْضَ مُسْتَقْرًا لِأَبْدَانِهِمْ ، وجعل أبدانهم مستقرًا لعبادته ، وقلوبهم مستقرًا
لمعرفته (١) ، وأرواحهم مستقرًا لمحبتة ، وأسرارهم مستقرًا لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ ﴾

هَيَّا لَهُمْ أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ ، وكما نَظَرَ إِلَيْهِمْ وَرَزَقَهُمْ رَزَقَ دَوَابَّهُمْ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا ،

(١) وردت (وارواحهم مستقرًا لعبادته) والصواب ان تكون (وقلوبهم مستقرًا لمعرفته) حسبما
نعرف من مذهب القشيري في ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا في الدكتوراه عن الإمام القشيري
وتصوفه) ط مؤسسة الحلبي .

وَأْمُرَهُمْ أَنْ يَتَّقُوا بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ يَنْفَعُوا — مَا أَمْكَنَهُمْ — بِأَنْعَامِهِمْ لِيَكْمَلَ
لَدَيْهِمْ أَنْعَامُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

إِذْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنَ التُّرَابِ ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ صُلْبِهِ . . . فَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضًا .
وَالْأَجْسَادُ قَوَالِبُ وَالْأَرْوَاحُ وَدَائِعُ ، وَالْقَوَالِبُ نَسَبُهَا التُّرْبَةُ (١) ، وَالْوَدَائِعُ صَمْتُهَا الْقُرْبَةُ (٢) ،
فَالْقَوَالِبُ يَزِيئُهَا بِأَفْضَالِهَا ، وَالْوَدَائِعُ يَحْيِيهَا بِكَشْفِ جَلَالِهِ وَلَطْفِ جَمَالِهِ . وَالْقَوَالِبُ الْيَوْمِ
اعْتِكَافٌ عَلَى بَسَاطِ عِبَادَتِهِ ، وَالْوَدَائِعُ اتِّصَافٌ بِدَوَامِ مَعْرِفَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ
وَأَنَّى ﴾

أَمْرَهُ بِجَهَنَّمَ ، وَأَعْمَاهُ عَنْ شَهَادَةِ ذَلِكَ بِسِرِّهِ ، فَمَا نَجَّحَ فِيهِ كَلَامُهُ ، وَمَا نَفَعَ بِمَا حَبَّرَهُ مِنْ
انْتِقَامِهِ ، وَبَسَّرَ لَهُ مِنْ أَنْعَامِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
مَكَانًا سُوًى ﴾

دَعَا مُوسَى إِلَى اللَّهِ ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبَشِيرِ بَشَوَابِ ، وَإِنْذَارِ بَعْدَابِ ،
فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا ، وَمَا زَادَهُمْ تَذْكَيرًا إِلَّا زَادُوا غَفْلَةً وَجَهَالَةً .

(١) ، (٢) وردتا (البرية) و (القوية) ولم نجد للجملتين معنى على ذلك — في حدود ما نعرف —
بينما لو صارت النسبة إلى (التربة) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف في بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا
(القرية) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن في هذا لا نصدر إلا عن استخدام التبشيري لهذا الأسلوب
في مواضع مماثلة — والله اعلم .

كذلك صفة من ويحده الحق بالإبعاد، لم يكن له عرفان، ولا بما يقال إيمان، ولا يتأسف على ما يفوته، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده.

قوله: « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه . . . » تأهبوا لمناسبة الحقيقة، وتشمروا للمخالفة، فقصمهم المشيئة، وكبستم القدرة، وكما قيل:

استقبلني وسيفه مسلول . وقال لي واحداً معذول .

قوله جل ذكره: ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن

يخسر الناس ضحى ﴾

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم (١).

قوله جل ذكره: ﴿ فتولى فرعون فجمع كيدَه

ثم أتى ﴾

كاد فرعون فكيد له، وأراد فارتد إليه، ودعا للاستعداد فأذل وأذيق البأس. ولم يدع موسى شيئاً من الوعظ والرفق، ولم يعادر فرعون شيئاً من البهله والخفق، ولكن:

« قال لهم موسى ويلكم لا تقفروا

على الله كذباً فيسحقكم بعداب

وقد خاب من افتري * فتنزعوا

أمومهم بينهم وأسروا النجوى »

إعلموا أنه لا طاقة لأحد مع الله — سبحانه — إذا عذبه، فحملوا ثقله على الإفك،

ورموا معجزته بالسحر فقالوا:

﴿ قلوا إن هذان ساحران يريدان

أن يخرجكما من أرضكم

(١) يشير القشيري بذلك إلى شاهد شعري سبق وزوده:

من نحلي بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان .

ويهدف إلى ان يثبت ان تزوين الظاهر لا جدوى منه في الحقيقة .

بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمَثَلِي *
فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوُوا صَفًّا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى *

ها في دعواها كاذبان يقصدان إلى إخراجكم من بلدكم ، والتشويش عليكم
في معتقدكم .

* قالوا يا موسى إيمان نلقى وإيمان
نكون أول من ألقى *

أظهروا من أنفسهم التجلد ظناً بأن النصر لهم ، وإخلاداً إلى ما كان السحرة يسؤلون
لهم ، فحيروا موسى في الابتداء بناءً على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى :

* قال بل ألقوا ، فإذا حيلهم
وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم
أنها تسهى * فأوجس في نفسه
خيفة موسى قلنا لا تخف إنك
أنت الأعلى * وألقى ما في يمينك
تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد
ساحر ولا يفليح الساحر حيث
أتى * فألقى السحرة سجداً قالوا
آمنّا برب هارون وموسى * قال
وآمنتم له قبل أن آذن لكم
إنه لكبيركم الذي علمكم السحر
فلا تطعن أيديكم وأرجلكم من
خلاف ولا صلبكم في جدوع النخل
ولتعلمن آيننا أشدّ عدواً باوأ بقى *

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذناً لهم في السحر ، ولكن أراد الحق إظهاراً
 لهم ، فلما خيلوا للناس بإلقاء الحبال أنها حياتٌ ابتلعت عصا موسى جملة ما صنعوا ،
 وتحقق السحرة أن ذلك أمرٌ سماوي حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار^(١) الحبال ،
 وصار الثعبان عصاً كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، وانقلب فرعون وقومه خائبيين ،
 وتوعدهم بالقتل والصلب ، وفنون من العذاب الصعب ، وبعدهما كانوا يقسمون بعزّة
 فرعون صاروا يحلفون بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ
 الْبَيْنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ
 قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

أى بالله الذى فطرنا إنّنا لن نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْنَاتِ . ولما طلعت في أسرارهم
 شمسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان
 التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتمسوا بما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك
 من الله فاستعدبوا البلاء ، وتحملوا الأواء^(٢) ، فكانوا في الغدأ ككفاراً سحرةً ، وأمسوا
 اختياراً بررةً^(٣) .

قوله « فاقض ما أنت قاضٍ . . . » علموا أنّ البلاء في الدنيا ينقضى — وإن تهادى ،
 وينتهى وإن تنهى^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا
 وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَإِنَّ اللَّهَ
 خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

أهم الأشياء — على من عرفه — مغفرته لخطاياها ؛ فهذا آدم — عليه السلام — لما

(١) الأوقار جمع وقر = الحمل الثقيل .

(٢) الأواء = منيق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .

(٣) في هذه الإشارة فتح لباب الأمل امام العصاة نظراً لتصر المسافة بين الكفر والإيمان ، فهي
 كما بين الغداة والمساء .

(٤) أى وإن تنهى في الشدة .

استكشف^(١) من حاله ، وحلَّ به ما حلَّ قال : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بَاءً . » (٢) وقال لنبينا - صلى الله عليه وسلم - « وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » (٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ لِيَفَانٌ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٤) . وَمَنْ عَلَيْهِ بَقُولُهُ : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ﴾ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ .

لما عبرَ موسى ببني إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحرَ منفلقًا والطريقَ فيه يَبَسًا عَيْرَ قَوْمِهِ بَنَلِيْسِه فقال : « إِنَّهُ بِحَشْمِي انْفَلَقَ ، فَأَنَارُ رَبِّكُمْ الْأَعْلَى ا » وحصل - كما في القصة - من دخوله بعسكره البحرَ حتى دخل آخرهم ، وهم أن يخرج أولهم ، فأمر الله البحرَ حتى التظمت أمواجه ففرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس^(٦) ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره ، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ *

-
- (١) يقصد التشيرى حين (بَدَتْ لَهَا سَوَاتِمُهَا وَانْكَشَفَتْ) وربما كانت في الأصل (استكشف) اي خجل مما فعل فهي قريبة في الكتابة وملائمة السياق .
(٢) آية ١٦ سورة القصص .
(٣) آية ٥٥ سورة غافر .
(٤) عن اعر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليفان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .
(٥) آية ٢ سورة الفتح .
(٦) راء كانت (البأس) بالباء فهي ملائمة للسياق .

يُذَكِّرُهُمْ آلَاءَهُ ، وَيَعِدُّ عَلَيْهِمْ نِعْمَاءَهُ ، وَيَأْمُرُهُم بِالْإِتِمَامِ الطَّاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالشُّكْرِ لِمَا أُسْبِغَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَنُونِ النِّعَمِ ، ثُمَّ يَذَكِّرُهُمْ بِمَأْمَنٍ بِهِ عَلَى أَسْلَافِهِمْ مِنْ إِتْزَالِ الْمُنِّ وَالسَّوَى ، وَضُرُوبِ الْمِحْنِ وَفَنُونِ الْبَلَايِ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ .

الطيبُ ما كان حلالاً . ويقال الطيب من الرزق ما لا يعصي الله مُكْتَسِبُهُ . ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق . ويقال الطيب من الرزق ما حصل منه الشكرُ . ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من الله ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ في عقابهم جبراً ، معجَّلٌ لأصفيائه في دنياهم سراً ، قال تعالى : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبَّهُمْ ﴾ (١) .

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلا قوامَ حظوظُ النفوسِ ولآخرينِ حقوقُ القلوبِ ، ولأقوامٍ شهودُ الأسرارِ ؛ ففرقُ النفوسِ التوفيقُ ، ورزقُ القلوبِ التصديقُ ، ورزقُ الأرواحِ التحقيقُ (٢) .

قوله : ﴿ لَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بمجاوزةِ الحلالِ إلى الحرامِ .

ويقال ﴿ لَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بالزيادةِ على الكفافِ (٣) ، وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمقِ .
ويقال ﴿ لَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بالأكلِ على الغفلةِ والنسيانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ .

فيحلُّ عليكم غضبي بالخلدانِ لمناجعةِ الزَّلةِ بعد الزَّلةِ .

ويقال فيحلُّ عليكم غضبي لفقْدِكُم التَّأْسِفَ عَلَى مَافَاتِكُمْ .

ويقال بالرضا بما أتمَّ فيه من نقصانِ الحلالِ .

(١) آية ١٦ سورة الداريات .

(٢) نضع ذلك في اعتبارنا عند بحث الملكات الباطنية ، ووظائفها وأفاتها ... وأرزاقها .

(٣) الكفاف من الرزق ما كان على مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ .

الغفَّارُ كثيرُ المغفرة ؛ فَمَنْكَ التوبةُ عن زَلَّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرةُ لذنوبٍ كثيرةٍ ، ومنه السَّريَّةُ التي لا اطلاعَ لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لمن عَمِلَ مثلَ عَمَلِكَ ، وهو يغفر لمن قَلْبِكَ مُرِيدُهُ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا .

إِنِّي — على جَفْوَاتِهَا — فِرْبِهَا وبكل مُصْبِلٍ بِهَا متوسِّلٌ
وَأُحِبُّهَا وَأُحِبُّ مَنْزِلَهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأُحِبُّ أَهْلَ الْمَنْزِلِ

قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ » : فلا تَصِحُّ التوبةُ إِلَّا لمن يكون مؤمناً .
وقوله هنا : « وَآمَنَ » : أى آمَنَ فى المآلِ كما هو مؤمنٌ فى الحال .

ويقال آمَنَ بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاته برحمته .

ويقال « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ » : مِنَ الزَّلَّةِ « وَآمَنَ » : فلم يَرَأ أعماله من نفسه ، وآمن بأن جميع الحوادث من الحق — سبحانه — « وعمل صالحاً » : فلم يُخَلِّ بالفرائض ثم اهتدى للسنة والجماعة (١) .

ويقال « ثُمَّ » : للتراخي ؛ أى آمَنَ فى الحال « ثُمَّ » اهتدى فى المآل .

ويقال مَنْ سَمِعَ مِنْهُ « وَإِنِّي » لا يقول بعد ذلك : « إِنِّي » (٢) .

ويقال من سَمِعَهُ سَمِعُ قَوْلِهِ : « وَإِنِّي » اسْتَمَلِكُ فى استيلاء ما غَلَبَ عَلَيْهِ من ضياءِ القربة ، فإذا جاءت « لَغَفَّارٌ » صار فيه بعين المحو ، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعنى بشأنه .

ويقال « إِنِّي لَغَفَّارٌ » كثيرُ المغفرة لمن تاب مرةً ؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يَتَّبِعْ منها سِرِّهَا وَجَهْرَهَا ، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، وما يتذكر منها وما لا يتذكر . ولا ينبغي أن يقول :

(١) واضح حرص القشيري السني على التمسك بسنيته — وهذا أصل ثابت في مذهبه سواء في علم الكلام أو في علم التصوف .

(٢) فالتوحيد الصادق إسقاط البهات ونفي كل دعوى للنفس .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظ عمله بعين الاستصغار ، وحالته بغير الاستقرار .
 وقوله « ثم اهتدى » : أى اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَا مُوسَى ﴾
 أَخْرَجَهُمْ مَعَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَصْحَبَهُمْ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هُمْ (١) بِخَطَوَاتٍ فَنَاقَرُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ
 مِرَاعَاةَ حَقِّ صِحْبَتِهِمْ .

ويقال قومٌ يُعَاتَبُونَ لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . فشتان ماها !

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَيَحْتَلُّ
 إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَىٰ ﴾

أى يحْتَلُّ إِلَيْكَ شوقاً إليك ، فاستخرج منه هذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه
 لَمَّا أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى (٢) .

قوله « هم أولاء على أثرى . . » أى ما خلقتهم لتضييعى أياى ، ولكنى يحْتَلُّ إِلَيْكَ
 لترضى . قال : يا موسى إن رضائى فى أن تسكون معهم وألا تسبقهم ، فكونك مع الضعفاء
 الذين استصحبتهم — فى معانى حصول رضائى — أبلغ من تقدُّمك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾
 فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ؛ فَأَخْبَرَ الْحَقُّ — سبحانه — أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ تَقْدِيرٌ ،
 وَفِي هَذَا تَكْذِيبٌ لِمَنْ جَعَدَ الْقَوْلَ بِالْقَدْرِ .

ويقال طَلَبَ مُوسَى — عليه السلام — رِضَاءَ الْحَقِّ ، وَقَدَّرَ الْحَقُّ — سبحانه — فَتْنَةَ
 قَوْمِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ ، ثُمَّ الْحُكْمُ لِلَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 مِنَ الرِّضَاءِ بِقَضَاءِ اللَّهِ — فلا اعتراض على الله — وَمِنَ الْعِلْمِ بِحَقِّ اللَّهِ فِي أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ،
 وَأَشْدُوا :

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرِكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

(١) حين ذهب لبعثات ربه .

(٢) وإلا كان دعوى من النفس . ويفيدنا هذا الرأى فى قضية الإفصاح والسكران .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل ، وهو نوع من التفرير ، وحصل ما حصل ، وظهر ما ظهر من (. . .) (١) .

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

ورجع نبينا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنعت البسط ، وجاء بالنجوى (٢) لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القربة بالزلفة . . فستان ماها !
ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخطبهم ببيان العتاب :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ؟
أَمْ أُرَدْتُمْ أَنْ يُحْلِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبَ
مَنْ رَبِّكُمْ فَمَا خَلَقْتُمْ مَوْعِدِي ﴾

ظنوا بنبيهم ظنَّ السوء في خلفه الوعد ، فلاحقهم شؤم ذلك حتى زاغوا عن العهد ،
وأشركوا في العقد . . وكذلك يكون الأمر إذا لم يف المرء بعقده ، فإنه ينخرط
في هذا السلك .

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا

وَلَكِنَّا كُنَّا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى
السَّامِرِيُّ﴾

قَالُوا لَمْ نَكُنْ فِي ابْتِدَاءِ حَالِنَا قَاصِدِينَ إِلَىٰ مَا حَصَلَ مِنَّا ، وَلَا عَالِينَ بِمَا آلَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ

(١) مشتبهة ، وهي قرينة في الخط من (التبديء) وربما كانت صحيحة بمعنى التبديء ؛ لأنهم تركوا عبادة
الله إلى عبادة العجل فظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم .
(٢) ربما كانت (بالنجاة) حيث تنضح المقابلة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة
عاد إليها نبيها منذراً بالعقوبة ومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة .

حَالِنَا ، وَإِن الَّذِي سَمَلْنَا مِنْ حُجَلِي الْقَبْطِ صَاعِ السَّامِرِيِّ مِنْهُ الْعِجْلُ . . . وَكَذَلِكَ الْحَرَامُ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا لَا يَخْلُو مِنْ شَوْمِ أَثَرِهِ . فَلَقَدْ كَانَتْ الْغَنِيمَةُ وَأَمْوَالُ الْمُشْرِكِينَ حَرَامًا عَلَيْهِمْ ، فَاسْتَمَارُوا الْحُلِيَّ مِنَ الْقَبْطِ ، وَآلَ إِلَيْهِمْ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ ، فَكَانَ سَبَبَ عِبَادَتِهِمْ الْعِجْلُ . . . كَذَلِكَ مَنْ أَنَهَكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِ حَلَالٍ يَكُونُ عَلَى خَطَرٍ مِنْ رِقَّةِ دِينِهِ ، قَالَ تَعَالَى : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورَانٌ ﴾ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانصَبُوا لَهُ مَذْبُوحًا وَأَقْرَبُوا إِلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرُوا فِيهِمْ وَقَالُوا لَوْلَا إِذْ سَأَلْتَهُمْ لَآتَيْنَاكُمْ بِالْبُرْهَانِ فَقَالَ مَسْمُوعٌ إِذْ سَأَلْتَهُمْ إِنِّي لَأَكْفَرُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْعِجْلَ وَجَعَلْنَاهُ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

يَقَالُ لَهُمْ لَمَّا مَرُّوا عَلَى قَوْمٍ يَمْبُدُونَ أَصْنَامًا لَهُمْ قَالُوا الْمَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، وَكَانَ ذَلِكَ الصُّنْمَ عَلَى صُورَةِ الْعِجْلِ فَكَانَ مِثْلَهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ مُسْتَسْكِنًا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَصَاغَ السَّامِرِيُّ الْعِجْلَ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ . وَفِي هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ خَفَايَا الْهَوَى إِذَا اسْتَكْبَرَتْ فِي الْقَلْبِ قَلَّمَ يُنْقَسُ ذَلِكَ الشَّرْكَ بِمَنْقَاشِ الْمَنَازِلَةِ يُخْشَى أَنْ يَلْقَى صَاحِبَهُ (. . .) (٢) .

وَيَقَالُ إِنْ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أُمَّتِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَرَضِيَ قَوْمُهُ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَنَبَيْنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أُمَّتِهِ وَأَتَتْ سَنُونَ كَثِيرَةً وَلَوْ ذُكِّرَ وَاحِدٌ عِنْدَ مَنْ أُلْخِصَ مِنْ أُمَّتِهِ فِي التَّوْحِيدِ حَدِيثًا فِي التَّشْبِيهِ لَعَدُوا ذَلِكَ مِنْهُ كَبِيرَةً لَيْسَ لَهُ مِنْهَا مَخْلَصٌ (٣) .

كَذَلِكَ فَإِنَّهُمْ اسْتَحْفَظُوا كِتَابَهُمْ فَبَدَّلُوهُ تَبْدِيلًا ، بَيْنَمَا ضَمَنَّ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — إِعْرَازًا هَذَا الْكِتَابَ بِقَوْلِهِ : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (٤) .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مشتبهة وهي في الرسم تقرب من (نعيه) والنعيب صوت الغراب . . فهل يقصد القشيري — ماذا كره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شَوْمَ أَثَرِ ذَلِكَ ؟ أَمْ أَنَّ اللفظة في الأصل غير ذلك ؟ ربما كانت (حبه) أو (نعيه) أو (مغيته) .

(٣) لأن المشبهة يدنون بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبادة العجل .

(٤) آية ٩ سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدين كله » (١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً . . . » بين أن من لا قول له لا يتكلم ، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه ردٌ على من لم يُثبِت له في الأزل القول ، ولم يصفه بالقدرة على الخير والشر :

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ يا قومِ
إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر من هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فمن ترك أمر الحق . . كيف يُطمع فيه أن يحترم الشيوخ وأكابر الناس ؟ لهذا قيل : لا حرمةَ لفاسق ؛ لأنه إذا ترك حق الحق فحقٌ يحفظ حقَّ الخلق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين
حتى يرجع إلينا موسى ﴾

كان ذلك تعاملاً منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على ترك عبادة العجل ؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة غير الله . . ولكن كل متعملاً يستند إلى ما يحتاج به من الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم
ضالوا * ألا تتبين أفعصيت
أمرى ﴾

ضاق قلبُ موسى — عليه السلام — لما شاهد من قومه بالمعينة عبادة العجل ، ولقد كان سمع من الله أن السامري أضلهم حين قال : « إنا قد فتنا قومك » ، ولكن قديماً قيل : ليس الخبث كالعيان ، فلبتاً عابراً ذلك ضاق قلبه ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر (١) ،

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله غضباً ، وغيره في الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبه اتسع لسانه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظن أن أخذ هارون يقابله بالرفق والالطف وحسن المداراة . . . وكذلك الواجب فى الصحبة لثلا يرتقى الأمر إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى
ولا برأسى إني خشيت أن تقول
فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب
قولى ﴾

أنت أمرتني ألا أفارقهم . وقد يقال إن هارون لو قال لموسى فى الوقت الذى احتجبت أن تمضى إلى فرعون قلت : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقلت : « أرسله معى » ، وقلت حين مضيت إلى سماع كلام الحق : « اخلفنى فى قومى » . . . فما اكنفت بأن لم تستصحبني . . . وخلفتني ، وقد علمت أنى برىء الساحة مما فعلوا فأخذت بلحيتى وبرأسى . . . ألم ترض بما أنا فيه حتى تزيدنى حرئاً على حرئى (١) ١٩ . . . لو قال ذلك لكان موضعه ، ولكن لجله ، ولعلمه — بأن ذلك كله حكم ربهم — فقد قابل كل شىء بالرضا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فما خطبك يا سامريء ؟ ﴾

سأل موسى كل واحد منهم بنوع آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتغيره فى نفسه ، واستيلاء الغضب عليه — لم يغير التقدير ، ولم يؤخر المحكوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾

فقبضت قبضة من أثر الرسول
فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾

علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيت جبريل ، فقبضت التراب من موضع حافر

(١) الحرى = الغضب (الوسيط ج ١ ص ١٦٩)

دابته ، وأُلقي في روعي أن ذلك سببُ حياةِ العجلِ فطرحتها في جوفه . . . هكذا زينت لي
نفسى فاتبعتُ هواها .

ثم كان هلاكه . . . لثلاثاً يأمنُ أحدٌ حتى مَكُرَ التقدير ، ولا يركنُ إلى ما في الصورة
من رَفَقٍ فَلَعَلَّهُ — في الحقيقة — يكون مكرراً ، ولقد أشدوا :

فَأَمِنْتُهُ فَأَتَاكَ لِي مِنْ مَأْمِنِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمِنُ الْأَحْبَابَا

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ
تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا
لَنْ نُخْلِفَهُ ﴾

لم يخفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال
في خطابه مع الحق : « إن هي إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإحلال العقوبةِ
بِالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه ؛ ليعلم أن الحكمَ في الإبداع والإيجاد — وإن كان لله —
فالمعاقبةُ والمطالبةُ تتوجهان على اتِّلاقٍ في مقتضى التكليف ، وإجراء الحقِّ ما يجزئيه ليس
حُجَّةً للعبد ولا عُذْرًا له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا ﴾

كلُّ ما تعلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنسِفُهُ الحقُّ — سبحانه بِحُجَّتِهِ^(١) ؛ ولهذا يُلقَى
الأصنامَ غداً في النار مع الكفار ، وليس لها جرمٌ ، ولا عليها تكليف ، ولا لها علمٌ
ولا خبر . . . وإنما هي جماداتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

إي إلهكم الذي نجب عليكم عبادته بحقِّ أمره هو الله الذي لا إله إلا هو ، وهو بوصف
الجلال ، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من المعلومات هو الله ، وليس مثل الذي هو جماد لا يعلمُ

(١) الباء هنا معناها (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يَحْيَا ولا يَسْمَعُ ولا يَبْصُرُ . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجَمَادَ ويحرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا ﴾

نَعْرِفُكَ أَحْوَالَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِئَلَّا يَلْتَسِبَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ طُرُقِهِمْ ؛ فَتَتَأَدَّبَ بِأَادَابِهِمْ
وَتَجْتَمِعَ فِيكَ مُتَفَرِّقَاتُ مَنَاقِبِهِمْ .. وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّا لَمْ نُبَلِّغْ أَحَدًا مَبْلَغًاكَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَّا
مَلَائِكَةٌ ؛ آتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِنَا شَرَفًا وَفَخْرًا لَمْ يَشْرَكَكَ فِيهِمَا أَحَدٌ ، وَذَكَرْنَاكَ مَاسَلَفَ لَكَ مِنْ
الْعَهْدِ مَعْنَا ، وَجَدَدْنَا لَكَ بَيْنَهُمْ تَخْصِيصًا لِيَاكَ ، وَكَرِيمَ إِقْبَالِنَا عَلَيْكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

الْمُعْرِضُونَ عَنْهُ شُرَكَاءُ يَحْمِلُونَ غَدًا وِزْرًا وَثِقَلًا ، أُولَئِكَ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ الْخُصُوصِيَّةِ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَظٌّ فِي التَّحْقِيقِ ؛ فَعَقُوبَتُهُمْ لَا تَزِيدُ عَلَى آلَامِ نَفْسِهِمْ وَإِحْرَاقِ أَشْبَاحِهِمْ ،
وَأَمَّا أَهْلُ الْخُصُوصِيَّةِ فَلَوْ غَفَلُوا عَنْهُ سَاعَةً وَنَسَوْهُ لِحِظَّةِ الدَّارِ — فِي الْحَالِ — عَلَى رِهْوَسِهِمْ
الْبَلَاءِ بِحَيْثُ تَتَلَاشَى فِي جَهَنَّمَ عَقُوبَةُ كُلِّ أَحَدٍ (بِالإِضَافَةِ إِلَى هَذِهِ الْعَقُوبَةِ) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ
أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ مُؤَجَّلٌ ، وَهُوَ بَعْدَ النِّفْخِ فِي الصُّورِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ
وَفِي الْخَبَرِ الْمَأْتُورِ .

(١) ما بين القوسين أضفناه من عندنا ليتضح المعنى المطلوب حسبنا نعرف من مذهب الصوفية أن عذاب
الفراق أشد من عذاب الاحتراق .

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلَةٌ (١) ؛ فيها محاسبةٌ وعليهم فيها مطالبةٌ ، وهوانٌ حاضرٌ وعذابٌ حاصلٌ ، فكما تَرَدُّ على ظواهرِ قويمٍ في الآخرة عقوباتٌ ، تَرَدُّ على سرائرِ آخرين عقوباتٌ في الحياة الحاضرة ، والمعاملةُ مع كلِّ أحدٍ تخالفُ المعاملةَ مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم . . . » مَنْ تَفَرَّغَ اِمْدُ الأوقاتِ والتمييزِ بين اختلافِ الحالاتِ فنوعٌ غيرٌ مستوفٍ في بلائه ، وأمره سهلٌ . . . وَمَنْ كان يرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعتِ الحالِ ؛ فالأحوالُ تخبرُ عنه وهو لا يُسألُ عن الخبرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن الجبالِ فقلْ ينسفها ربي نسفاً * فيدثرها قاعاً صمصماً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾

كما أنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُغيَّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهي كالعينِ المنفوشِ فكذلك في القيامةِ الموجودةِ . . . فلا يخبرك عنها إلا الأكبر الذين هم كالرواسي ثباتاً ؛ فإنه يدخلُ عليهم من الأحوالِ ما يعجزهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُنته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ ينبهون الداعي لا عوجَ له وخشعت الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلا همساً ﴾

تنقطعُ الأوهامُ ، وتقفُ الأفهامُ ، وتنخسُ العقولُ ، وتندرسُ العلومُ ، وتنحيرُ المعارفُ ، ويتلاشى ما هو نعتُ الخلقِ ، ويستولى سلطانُ الحقيقةِ . . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أثرٌ ، ولا رسمٌ ولا ظلمٌ ولا غبرٌ ، في الحضورِ خرسٌ ، وعلى البساطِ فتماءٌ ، والرسمُ امتحاءٌ ، وإنما الصحةُ على الثباتِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ لا تمنعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أذن له الرحمنُ ورَضِيَ له قولاً ﴾

(١) أى القيامة التي تحمل بأرباب القلوب في هذه الحياة الدنيا .

(٢) لأنه يكون فانياً عن نفسه ، والقائم عنه ربه .

دليلُ الخُطابِ أَنَّ مَنْ أَدِنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ تَنْفَعَهُ الشَّفَاعَةُ ، وَإِذَا قُبِلَتْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ فَمِنْ الْمُحَالِ أَلَّا تُقْبَلَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهُوَ أَفْضَلُ الْكِفَاةِ ، وَشَفَاعَةُ الْأَكْبَرِ مِنْ صِفْوَتِهِ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَصَاغِرِ فِي الْمُؤَجَّلِ فِي الْمَعْجَلِ . وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يُشْفَعُ الشِّيُوخَ فِي مَرِيدِهِمُ الْيَوْمَ (١) .

ويقال شفاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَدًّا لِلْمَطِيْمِينَ بِزِيَادَةِ الدَّرَجَةِ ، وَالْعَاصِينَ بِفِرَانِ الزَّلَّةِ ، كَذَلِكَ شَفَاعَةُ الشِّيُوخِ — الْيَوْمَ — لِلْمَرِيدِينَ عَلَى قَسْمَيْنِ : لِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ السُّلُوكِ فَبِزِيَادَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْفِيقِ ، وَلِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ التَّخْبِطِ وَالغِرَّةِ فَبِالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ قَائِلِهِمْ :

إِذَا مَرَضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذَنِّبُونَ فَنَأْتِيكُمْ وَنَعْتَدِرُكُمْ

وَحِكَايَاتُ السَّلَفِ مِنَ الشِّيُوخِ مَعَ مَرِيدِهِمْ فِي أَوْقَاتِ فِتْرَتِهِمْ مَعْرُوفَةٌ ، وَهِيَ مُشَاكِلَةٌ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِتَعْرِيفٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَدْبًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾

لا يَخْفَى عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ مِمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَلَا مِنْ آتِيَّاهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا . وَالْكِنَايَةُ (٢) فِي قَوْلِهِ : ﴿ بِهِ ﴾ بِحْتَمَلِ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْحَقِّ — سَبْحَانَهُ — ، وَهُوَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ ؛ يَقُولُونَ : يَعْلَمُ الْخَلْقَ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ ، كَمَا قَالُوا : إِنَّهُ يَرَى وَلَا يُدْرِكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَمَّتْ أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

(١) بينما ينكر المعتزلة الشفاعَةَ (أنظر الملل والنحل للشهرستاني) يثبت التشبُّهَ الشَّفَاعَةَ لَا لِلرَّسُولِ فَقَطْ بَلْ لِلْأَوْلِيَاءِ فِي الدَّارِينَ ، وَالشِّيُوخِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ إِشَارَتِهِ .
(٢) الكِنَايَةُ فِي تَعْبِيرِ التَّشْبِيهِ مِمَّا هِيَ (الضمير) ، وَهُوَ هُنَا الْهَاءُ فِي (بِهِ) .

ذَلَّتْ لَهُ الرقاب واستسلم لحُكْمِهِ الخلقُ ، وخَصَّصَتْ لَهُ الجبابةُ ، وَمَنْ اقترف الظلمَ بقي في ظُلُماته ، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

العمل الصالح ما يصلح للقبول ، وفاعله هو المتجرّد عن الآفات الواقفة لحقيقة الأمر .
ويقال العمل الصالح مالم يستمجل عليه صاحبه أجرًا .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المال كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمن مُصدّق لربه أنه لا يعطى المؤمن لأجل إيمانه شيئاً ، ولكن بفضلّه ، وإيمانه أمانةٌ لذلك لا موجبٌ له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًّا وصرّفنا فيه من الوعيدِ لهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذِكْرًا ﴾ .

أَتَبَعْنَا دليلاً بعد دليل ، وبعثنا رسولا بعد رسول ، وحدّرناهم بوجوه من التعريفات ، وإظهار كثيرٍ من الآيات .

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ ﴾ .

تعالى اللهُ فى كبريائه ؛ وكبرياؤه : سناؤه وعُلاه ومجدهُ ورفِعتهُ وعظمتُه ، كل ذلك بمعنى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و « المَلِكُ » : مبالغةٌ من المالك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و « الحقُّ » : فى وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام :

« العين حق » ^(٢) أى موجود .

(١) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يثبت من أطاع ويماقب من أذنب .

(٢) يقول القشيري فى تحبيره ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : السجرحق « أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحق ، ويكون بمعنى مُحَقِّق الحق . كل ذلك صحيح .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي

عِلْمًا ۖ ﴾ .

كان يتمجل بالتلف من جبريل مخافة النسيان ، فأمره بالتثبت في التلقين ، وأمنه من طوارق النسيان ، وعرفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .

والآية تشير إلى طرف من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إن لم يوجد ما يوجب بالتحقيق أجراء على مقتضى العموم بحق اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف . فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط ^(١) .

قوله : (وقل رب زدني علماً) : فإذا كان أعلم البشر ، وسيد العرب والعجم ، ومن شهد له الحق بخصوص العلم حين قال « وعلمك ما لم تكن تعلم » ^(٢) يقال له : « وقل رب زدني علماً » — علم أن ما يخص به الحق أولياءه من لطائف العلوم لاحصر له .

ويقال أحاله على نفسه ^(٣) في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتبعك على أن تُعلمن مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أُحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معي صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر :

« هذا فراق بيني وبينك » . . . وبين عبدٍ أمره عند استزادة العلم بأن يطلبه من قبيل ربه فقال : قُلْ يا محمد : « وقل رب زدني علماً » ۝

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » ^(٤) ، قال له : « وقل رب زدني علماً » ليعلم أن أشرف خصال العبد الوقوف في محلّ الايقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في معرض الدعوى ^(٥) .

(١) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه في تناول النص النقلى .

(٢) آية ١١٣ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(٤) البخارى عن أنس : (والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له) .

والشيجان عن عائشة : (والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٥) أى أن يكون العبد داعياً لا دعياً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل
فَدَسَّىٰ ولم نجِدْ له عِزْمًا ﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمةُ العصيان بقوله :
« وعصى آدم ربه » (١) .

ويقال « لم نجد له عزمًا » : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزمًا في القصد على الخلاف (٢) ، وإن كان .. فذلك بمقتضى النسيان ، قال
تعالى « فَدَسَّىٰ ولم نجد له عِزْمًا » على خلاف الأمر ، وإن كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر .
ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة التوسل لقلوبهم حتى لا يفتنوا
من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى
« فَنَسِيَ » من النسيان ، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله : « فَنَسِيَ » ثم أظهر عُذْرَهُ فقال : « ولم نجد له عِزْمًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر ، ولم تنضم (٣) [من آدم عليه السلام طاعة
ولا عبادة فَخَلَقَهُ الْحَقُّ بِيَدِهِ ، وَرَفَعَ شَأْنَهُ بَعْدَمَا عَلَّمَهُ ، وَجَلَّى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ
فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ تَسْكَرِيماً لَهُ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ ، وَاسْتِبْرَاراً لَهُمْ . فَسَجَدُوا بِأَجْمَعِهِمْ ، وَامْتَنَعَ
إِبْلِيسُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَكَلَّمَ مِنَ الْهَوَانِ مَا سَبَقَ لَهُ فِي حِكْمِ التَّقْدِيرِ . وَالْعَجَبُ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ
مِثْلَ هَذَا يَجْرِي مِنْ دُونِ إِرَادَةِ الْحَقِّ وَمَشِيئَتِهِ وَهُوَ عَالِمٌ بِأَنَّهُ كَذَلِكَ يَجْرِي ، وَاعْتَبَرُوا الْحِكْمَةَ
فِي أَعْمَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ عِلْمٌ مَا سَيَكُونُ مِنْ حَالِ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَكَثْرَةَ مَخَالَفَاتِهِ

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهي الكلام بين الغوسين الكبيرين وضمه الناسخ خطأً فيما بين
الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أى في مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضمه ، ونهينا
إلى ذلك في مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم ، وكان علما بما سيكون ا ثم خلق إبليس ومكثته من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك ا ويدعون حسن ذلك في الفعل اعتباراً أنما هو الحكمة . . . فسبحان من أعى بصائرهم ، وعمى حقيقة التوحيد عليهم ا

قوله جل ذكره : ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك

ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة
ففتشقا ﴾

وما كان ينفعهم النصيح وقد أراد بهم ما حذرهم ، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به .
قوله : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقي » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأما إنه أضاف الشقاء إلى آدم وحده - وكلاهما لحقه شقاء الدنيا - فذلك لمصارعة رءوس الآي ، أو لأن التعب على الرجال دون النساء . ومن أصغى إلى قول عدوه فإنه يتجرع الندم ثم لا ينفعه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى *

وأنك لا تظما فيها ولا تضحى ﴾

لا تصديق أتم من تصديق آدم ، ولا وعظ أشد رحمة من الله ، ولا يقين أقوى من يقينه . . . ولكن ما قاسى آدم الشقاء قبل ذلك ، فلما استقبله الأمر وذاق ما خوف به من العناء والكد ندم وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنك لا تظما فيها ولا تضحى » أوتر بكل وجه ، فلم يعرف قدر العافية والسلامة ، إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القسمة .

ويقال تنعم آدم في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوع والعطش ، والبلاء من كل (. . .) (1) .

(1) هنا طمس أخق لفظة في نهاية السطر وهي أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتقياها ، فالعشيري يستعملها في مواضع مماثلة (أنظر مثلا استعماله (فنون الحدلان) عند تفسير الآية التي ستأتي بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى (. . .) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتي في العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه السلام يأتي ويقول: « رَبُّكَ يَقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: لِمَ تَبْكِي؟ فَكَانَ يُذَكِّرُ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَقُولُ: أِهَذَا الَّذِي قُلْتِ: « وَأَنْتِ لَا نَظْمًا فِيهَا وَلَا تَضْحَى » . . . وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ !

قوله جل ذكره: ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يذكر آدم في الحال أن هذا من نزغات من قال له — سبحانه: « إن هذا عدو لك » .

ويقال: لو سمى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها ، ولو لم يكن (. . .)^(١) حتى دلّه على تلك الشجرة (إيش)^(٢) الذي كان يمنعه منه إلا أن الحكم منه بذلك سبق ، والإرادة به تعلقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقي ، فعلت وصنعت . . . ا فقال إبليس لآدم : إن كنتُ شيطانك فمن كان شيطاني^(٣) ؟

ويقال سُمِّيَ الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبعِدُ النَّاسَ عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإنس ، وشياطين الإنس شرٌّ من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته . والناسُ تكلموا في الشجرة : ما كانت ؟ والصحيح أن يقال إنها كانت شجرة الخنة . ويقال لو لم تُخلَقْ في الجنة تلك الشجرة لَمَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ تَقْصَانٌ فِي رَتْبِهَا^(٤) .

(١) مشتبه .

(٢) معناها (فأى شيء ؟) وهي هنا استفهامية .

(٣) في ذلك تنصل من اللعين أساسه المغالطة والتلبس .

(٤) أى أن الجنة في عريف هذا المتكلم (مخلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لتصل إليها يده ،
ولكنه — كما في القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — بعد ما أكل منها — حينما
أراد أن يأخذ منها ليستتر عورته (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوْءُهَا ۖ ﴾
لما ارتكبا المنهى عنه ظهر ما يستحى من ظهوره ، ولكن الله — سبحانه — ألطف
معهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَتَ لَهَا سَوْءُهَا ، ولم يقل — مطلقاً — فَبَدَتَ سَوْءُهَا ؛
أى أنه لم يُطْلِعْ على سوءها غيرها .

ويقال لَمَّا تَجَرَّدَا عن لباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ

وَرَقِّ الْجَنَّةِ ۖ ﴾

أول الحرف والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطة ، وخياطة الرقاع بعضها
على بعض للفقراء ميراث من أبينا آدم — عليه السلام (٢) .

ويقال كان آدم — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلل الجنة وفنون اللباس
ما الله به أعلم ، ثم لم يُمس حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان
في الابتداء ما هو موروث في أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهَا رَبُّهَا أَلَمْ أَنهَكَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ۗ ﴾ (٣) : عند ذلك وقعت عليهما
الخلجة لما وردَ عليهما خطاب الحق : ﴿ أَلَمْ أَنهَكَا عَنْ . . . ﴾ ولهذا قيل : كفى للمُقصر
الحياة يوم اللقاء .

قوله تعالى : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا . . . ﴾ (٤) : لم يتكما بلسان الحجة فقالا : « ربنا
ظلمنا أنفسنا » ، ولم يقولوا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالوا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

(١) وفي هذا تحذير ضمني للأكابر من الوقوع في الزلة ، وكيف أن كرامة الولي تتلشى بزلاته .

(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نُورخ للخيرية والمرقعة عند الصوفية .

(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .

(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكونن من الخاسرين « لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى حُكْمِ الرَّبِّ لَا عَلَى جُرْمِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾

لَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ سِمْةُ الْعَصِيانِ — وهو أَوَّلُ الْبَشَرِ — كان في ذكر هذا تنفيسٌ لأولاده ؛ أن تجرى عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة في حين الفترة .
ويقال كانت تلك الأكلة شَيْئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربّه لِيُعْلَمَ أَنَّ عِظَمَ الذُّنُوبِ لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَعِظَمَ قَدْرِهِ . . لا لكثرة المخالفة في نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فَعَلَهُ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا عِلَّةٍ (١) اجْتَبَاهُ ثانياً بعد الزَلَّةِ ، فَتَابَ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، « وهدى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر! .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ فَايْمًا يَا آدَمُ إِنَّكَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ

اتَّبَعَكَ هِدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالى المحنُّ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعبادة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فَمَنِ اتَّبَعَ هِدَايَ . . . وَتَرَكَ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِوَسوسةِ الْعَدُوِّ فَلَهُ كُلُّ خَيْرٍ ، وَلَا يَلْحَقُهُ ضَيْرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾

الكافر إذا أَعْرَضَ عَن ذِكْرِهِ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَهُ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي الْقَبْرِ ،

(١) تفيد هذه العبارة في بيان أهمية الاصطفاء الإلهي ، وأن العمل الإنساني له الدرجة الثانية في الأهمية . ثم تفيد في بيان الفرق في الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفي النار ، وبالقلب من حيث وحشة الكفر ، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور .
 ويقال مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْإِنْحِرَاطِ فِي قَضَايَا الْوَفَاقِ ائْتَلَتْ عَلَيْهِ فَنُونَ الْخُلْدَانِ ،
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اسْتِمَامَةِ ذِكْرِهِ — سُبْحَانَهُ — بِالْقَلْبِ تَوَالَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَفْرِيقَةِ الْقَلْبِ
 مَا يَسْلُبُ عَنْهُ كُلَّ رَوْحٍ .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْاسْتِنَاسِ بِذِكْرِهِ انْفَتَحَتْ عَلَيْهِ وَسَاوَسُ الشَّيْطَانِ وَهُوَ اجْسُ الْغَفْسِ
 بِمَا يُوْجِبُ لَهُ وَحْشَةَ الضَّمِيرِ ، وَالسَّدَادُ أَبْوَابِ الرَّاحَةِ وَالْبَسْطُ .
 وَيَقَالُ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْخَلْوَةِ قَبِضَ اللَّهُ لَهُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْقَرِينِ السُّوءِ
 مَا تُوْجِبُ رُؤْيُتَهُ لَهُ قَبْضَ الْقُلُوبِ وَاسْتِيْلَاءَ الْوَحْشَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ * قال
 رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
 بَصِيرًا * قال كذلك أتتك آياتي
 فَانْسَيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾

في الخبر : « مَنْ كَانَ بِجَاهِلٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبِ يُحْشَرُ
 عَلَى حَالَتِهِ ، وَمَنْ يَعِشْ عَلَى جَهْلٍ يُحْشَرُ عَلَى جَهْلٍ ، وَلِذَا يَقُولُونَ : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرَقَدْنَا ؟ » (١)
 إِلَى أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً .

وَكَأَيُّتَرُ كُونَ — الْيَوْمَ — التَّدْبِيرُ فِي آيَاتِهِ يُتَرَ كُونَ غَدًا فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ
 عَلَى ضَعْفِ حَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
 بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
 وَأَبْقَى ﴾

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلَّ مَا يَلْبِقُ بِجَاهِلِهِ ، فَمَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سَيْلِقِي غَيْبِهِ ، عَلَى الْخَيْرِ
 خَيْرًا ، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا .

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

أى أفلا ينظرون فيتفكرون^(١) ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون ؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدحرون ؟ أم على وجوههم — فى ميادين غفلاتهم يركضون ، وعن سوء معاملاتهم لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعملون !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ

لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

لولا أن كلمة الله سبقت بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأن جماعة من الأولياء فى أصلابهم لعجل عقوبتهم ، ولكن . . كما ذكر من الأحوال أمهلهم مدة معلومة ، ولكنه لم يمهلهم أصلاً .

وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت ، والعلم بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى — فالسعى والجهد ، والانكاش والجد . . متى تنفع ؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ

وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

سماع الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان لحقه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون ، وأمره : إن كان سماع ما يقولون يوحسبك فتسبيحنا — الذى تُثني به علينا — يروحك .

« قبل طلوع الشمس » : أى فى صدر النهار ؛ ليبارك لك فى نهارك ، وينعم صباحك .

« وقبل غروبها » أى عند نقصان النهار ؛ ليطيب كيالك ، وينعم رواحك .

(١) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتبرناها سببية نقول (فيتفكروا) لوقوعها بعد أسلوب طلي ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى النص لتكرار ذلك فيما تلاه .

« ومن آناء الليل » أى فى ساعات الليل ؛ فإن كمال الصفة فى ذكر الله فى حال الخلو .
« وأطراف النهار » أى استندم ذكر الله فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمَنَّ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

فضل^(١) الرؤية فيها لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام ، والذى له عند الله منزلٌ
وقدرٌ فليحَقَّ على جميع أحواله غيرَةٌ ؛ إذ لا يرضى منه أن يبذل شيئاً من حركاته وسكناته
وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رضاء ، وفى معناه أنشدوا :

فعمى إذا استحسنمت غيركم أمرت الدموع بتأديها

ويقال لما أذبه فى ألا ينظر إلى زينة الدنيا بكمال نظره وقَفَّ على وجه الأرض بفردٍ
قدمٍ تصاوناً عنها حتى قيل له : « طه » أى طأ الأرض بقدمك . . ولم كل هذه المجاهدة
وكل هذا التباعد حتى تقف بفردٍ قدمٍ ؟ ! طأ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشغَل به عن الحق ، ويستولى حُبُه على القلب ،
ويُجسِّر وجوده على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البطر والأشر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام . .
ومعه سُخْطُه . ويقال قليلٌ يشهدك ربك خيرٌ من كثيرٍ يُنسيك ربك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

الصلاة استفتاحُ بابِ الرزق ، وعليها أحال فى تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه .
ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قوت النفس قوتى قوت القلب .
وأمر - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة ، وأن يصطبر عليها .

(١) الفضل هنا معناه الزيادة (وفضل الرؤية) زيادة التطلم إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ؛ وهو ألاَّ يَجِدَ صاحِبُه الأَمُّ بل يكون محمولاً مَرَوَّحاً .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا أَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾

أى لا نكفلك برزق أحدٍ ؛ فَإِنَّ الرَّاغِقَ اللهُ — سبحانه — دون تأييد الخلق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾

ها شيئان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة^(١) النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة^(٢) القلوب .

ويقال استقلال^(٣) العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرزاق .

ويقال نفى عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فَإِنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ .

ويقال خففَ على الفقراء مفاصلةً قلة الرزق وتأخره عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله : « نحن »^(٤) .

قوله : « والعاقبة للتقوى » : أى العاقبة بالحسنى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي ، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر^(٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ

أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بِآيَةٍ مِمَّا فِي الصُّحُفِ
الأولى ﴾

عميت بصائرهم وأدعوا أنه لا برهان معه ، ولم يكن القصور في الأدلة بل كان الخلل في بصائرهم ، ولو جمع الله لهم كل آية اقترحت على رسولٍ ثم لم يرِدْ اللهُ أَنْ يُؤْمِنُوا لَمَّا

(١) ، (٢) ، (٣) وبما كانا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بالثناء المفتوحة ؛ فقد سبقا هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يمنع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٤) لأن من عاش ؛ (نحن) اكتفى بها ولم يستعمل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلا (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا طغيانا وكفرا وخسرانا وتلك سنة أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ،
ولذا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أننا أهلكناهم بمذابٍ من
قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا
رسولاً ففتمتع آياتك من قبل
أن نذلل ونحزى ﴾ .

إن أرسلنا إليهم الرسل قابوهم بفنونٍ من الجحد ، ووجوهٍ من العلل ، مرة يقولون
فما بال هذا الرسول بشر ؟ هلاً أرسله ملكاً ؟ ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هلاً أرسل إلينا
مثلنا بشرًا ؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا : هذا سحرٌ مفترى ! ولو أخلصناهم من رسولٍ
وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا :

هلاً بعث إلينا رسولاً حتى كنا نؤمن ؟ فليست تنقطع أعلامهم ، ولا تنفك —
عما لا يرضى — أحوالهم . وكذلك سبيل من لا ينجح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد ،
وفي معناه أنشدوا :

وكذا المول إذا أراد قطيعةً
ملّ الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قل كل متربصٌ فترَبصوا
فستعلمون من أصحاب الصراطِ
السوى ومن اهتدى ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف ،
إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك ، وما الذي توجهه
الطبائع والنجوم . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في روح التوحيد ، والباقون
في ظلمات الشرك .

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

بسم الله اسم عزيز من توسّل إليه بطاعته تفضّل عليه بجميل نعمته ؛ إن أطاع فضله ، وإن أضاع أمهله ، ثم إن أب وأقر . . . ذكره ، وإن عصى وعاب ستره ، فإن تضرّ رحمة ، وإن تكبّر قصمه (١) .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه ؛ بتوفيقه وصلّ العابدون إلى مجاهدتهم ، وبتحقيقه وجدّ العارفون كمال مشاهدتهم ، وبتمام مجاهدتهم وجدوا أجّل ثوابهم ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ .

فالمطيعون منهم عظم لديننا ثوابهم ، والعاصون منهم حقّ مينا عقابهم .

« في غفلة » يقال الغفلة على قسمين : غافل عن حسابيه باستغراقه في دنياه وهواه ، وغافل عن حسابيه لاستهلاكه في مولاة ؛ فالغفلة الأولى سمة المهجر والغفلة الثانية صفة الوصل ؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبداً الأبد لفنائهم في وجود الحق تعالى (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانسجام بين إشارات البسلة — على هذا النحو — وبين جزئيات السورة ، حيث انقسم الناس إزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب ، ومؤمن وجاحد . . . ونال كل جزاءه .

(٢) نهجنا هذه الإشارة عند دراسة المصطلح الصوفي ؛ فالغفلة نوعان : مذمومة ومحمودة ؛ غفلة ناشئة عن المهجر وغفلة ناشئة عن الوصل .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفورا ، ولم يُنزل عليهم خطاباً إلا ردّوه جحداً
وتكديباً ، وما زدناهم فضلاً إلا عدّوه هزلاً ، وما جددنا لهم نعمة إلا فعلوا ما استوجبوا
نقمة ، فكان الذى أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . وهذه صفة من أساء مع الله خلقه ،
وخسِرَ عند الله حقّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى

الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم
أفتأتون السحرَ وأنتم تبصرون ﴾

عميت بصائرهم وغامت أفهامهم ، فهم فى غياوة لا يستبصرون ، وفى أكنة عما أقبل لهم
من البرهان فهم لا يعلمون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . » لَمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عند التحدى ،
وظهرت عليهم حجته رجحوا فيه الفسك ، وقسموا فيه الظن ، فرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً
وصفوه بقول الشعر ، ومرةً رمّوه بالجنون وفنون من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه :
هو محمد الأمين ، كاقيل :

أشاعوا لنا فى الحى أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سائماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض

وهو السميع العليم ﴾

الأقويل التى يسمعها الحق — سبحانه — مختلفة ، فَمِنْ خطابٍ بعضهم مع بعض ، ومن
بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحق : فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا ، ومن داعٍ يطلب كرائم
العُقبى ، ومن مُنِّى يثنى على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال يسمع أنينَ المذنبين سراً عن الخلق حذراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاةَ
العابدين بنعت التسييح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مستهم البرحاء^(١) فضجروا
من شدة الاشتياق .

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال يسمع خطاب من يناجيه سراً بسر ، وكذلك تسبيح من يمدحه ويثني عليه بلسان سره .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾

نوعوا ما نسبوا إليه — بعدما نزلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا همته على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال ، وكما قيل :
رمتي بدائها وانسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ ما آمنت قبلكم من قرية أهلكتها أفهم يؤمنون ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سنته أن يعتدب من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المال . وإن هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أمثالهم في الكفران ، وقد حكّم الحق لهم بالحرمان والخللان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

لما قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يرسل إلى الناس رسولا فيما سبق من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بشراً ، وذكر أن الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إليهم .

ثم قال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » : الخطاب للكل والمراد منه الأمة ، وأهل الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم . ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحق — سبحانه — أو من يُحسن الإيفام عن الحق .

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأما الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قبله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلد في مسائل الشرع .

فأما العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْدِهِ — إن كان — وإلا فلا تُقبلُ فتواه ولا تُسمع (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون

الطعام وما كانوا خالدين ﴾

لَمَّا عَيَّرُوا الرَّسُولَ — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . . . أخبر أن أكل الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكبر ، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّهُ القلوبُ والسرائرُ من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها مما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السر .

قوله : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ : أى إنهم على شمرٍ ومعبرٍ ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخلد .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم صدقناهم الوعدَ فأنجيناهم ومن

نشأ وأهلكنا المسرفين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يُحَقِّقُ وَعْدَهُ وإن تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون . والموعود من نصرته الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين ، وإرغام من تابعد الحق من الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

(١) نهم هذه الإشارة في توصية الشيوخ إذا استفهام المریدون ، كما نهم في توضيح ما يمكن أن نسبه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذكركم » : أى شرفكم ومحضكم ، فمن استبصر بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظِلْمًا وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ يُمِيزُ الظَّالِمَ حِينًا لَكِنِّه يَأْخُذْهُ أَخَذَ قَهْرٍ وَانْتِقَامٍ ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ بِخِرَابِ مَسَاكِنِ الظَّالِمِينَ ، وَقَدْ جَاءَ الخَبْرُ : « لَوْ كَانَ الظُّلْمُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ لَسَاطَ عَلَيْهِ الخِرَابُ » ؛ فَإِذَا ظَلَمَ العَبْدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهَا التَّوْفِيقُ وَجَعَلَهَا مَوْطِنَ الخِلْدَانِ ، فَإِذَا ظَلَمَ قَلْبَهُ بِالغَفْلَةِ سَاطَ عَلَيْهِ الخَوَاطِرُ الرَّدِيَّةُ الَّتِي هِيَ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَدَوَاعِي الفُجُورِ . وَعَلَى هَذَا القِيَاسِ فِي القَلَّةِ وَالكَثْرَةِ ؛ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرِبَتْ زَايَلَتْهَا الحَقَائِقُ وَالمَحَابُّ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا العَلَاتِقُ وَالمَسَاكِنَاتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْفَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرَوْنَ كُضُوبًا ﴾

لَمَّا ذَاقُوا وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ اضْطُرُّوا فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ نَدَمُهُمْ ، وَلَمْ تَعُدْ إِلَى مَحَالِّهَا أَقْدَامُهُمْ ، وَبَعْدَ ظُهُورِ الخِيَاةِ لَا تُقْبَلُ الأَمَانَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِقْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾

وَاللَّخِيَاةُ سَرَايَةٌ^(١) ، فَإِذَا حَصَلَتْ الخِيَاةُ لَمْ تَقِفِ السَرَايَةُ ، وَإِذَا غَرَقَتِ السَّفِينَةُ فَلَيْسَ بِيَدِ المَلَّاحِ إِلا إِظْهَارُ الأَسْفِ ، وَهَيَبَاتُ أَنْ يُجِدِّي ذَلِكَ ؛

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

(١) سرى المرح او السوء سراية . أى دام الألم منهما حتى حدث الموت . ويقال سرى التعريم وسرى المتق أى تعدى إلى غير المحرم أو المعتق (الوسيط) .

للإقرار زمان ؛ فإذا فات وقته فكما في المثل : يسبق الفريص الحريص . ووُضِعُ
القوس بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَالِدِينَ ﴾

إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُوَ الْمُرءُ ، فَلَا يُسْمَعُ ، وَيَبْكِي ، فَلَا يَنْفَعُ ، وَيَدْنُو ، فَيُقْفَصَى ، وَيَمْرَضُ
فَلَا يُعَادُ ، وَيَعْتَذِرُ ، فَلَا يُقْبَلُ . . . وَغَايَةُ الْبَلَاءِ التَّكَلُّفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لِاعْبِينَ ﴾

الْعَبُّ نَعْتُ مَنْ زَالَ عَنْ حَدِّ الصَّوَابِ ، وَاسْتَجْلَبَ بِنَفْسِهِ الْإِلْتِدَادَ ، وَانْجَرَّ فِي حَبْلِ
السَّفَاهَةِ . وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ
مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

يُخَاطَبُهُمْ عَلَى حَسَبِ أَفْهَامِهِمْ ؛ وَإِلَّا . . . فَالَّذِي لَا يَمْتَرِيهِ سَهْوٌ لَا يَسْتَفْرِهُ لَهْوٌ ، وَالْحَقُّ
لَا يَمْتَرِيهِ وَلَا يَضَاهِيهِ كُفْرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

نُدْخِلُ نَهَارَ التَّحْقِيقِ عَلَى لِيَالِي الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشِعُ سَحَابُ الْغَيْبَةِ ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الْأَوْهَامِ ،
وَتَنْبَرِ شَمْسُ الْيَقِينِ ، وَتَصْحُو سَمَاءُ الْحَقَائِقِ عَنْ كُلِّ غُبَارِ التُّهْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً ، وتمالي: الله عن أن يتجمل بوفاقٍ
أو ينقص بخلاف ، وبالقدر ظهور الجميع ، وعلى حسب الاختيار^(١) تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾
المطيع المختار يُسبِّحه بالقول الصدق ، والكلُّ من المخلوقات تسبِّحها بدلالة الخلق ،
وبرهان اليقينة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض
هم يُنشرون ﴾

تفرّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد ، وتقدّس عن الأمثال والأنداد ، فالذين يُعبدون من دونه
أمواتٌ غيرُ أحياءٍ . وهم^(٣) بالضرورة يعرفون . . أفلا يَعْتَبِرُونَ وألا يَزْدَجِرُونَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا
فسبحان الله ربّ العرشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

أخبر أن كلَّ أمرٍ يُنَاطُ بِجَمَاعَةٍ لا يجرى على النظام ؛ إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف .
ولما كانت أمورُ العالمِ في الترتيب مُنَسَّقَةً فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرٍ مُدَبَّرٍ حَكِيمٍ ؛
فالسما في علوها تدور على النظام أفلاكها ، وليس لها مُعَدُّ لِإِمْسَاكِهَا ، والأرضُ مُسْتَقَرَّةٌ
بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها . والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور في بروج ،
ورقعة السماء تتسع من غير فوج . . ذلك لتقدير العزيز العليم علامة ، وعلى وحدانيته دلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾

لِسُكُونِ الخَلْقِ لَهُ ، وهم يُسألون لزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا
برهانكم ، هذا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى

(١) الاختيار هنا مقصود به الاختيار الإلهي .

(٢) عبر العشرى عن هذا المعنى في موضع سابق حين ذكر ان كل إلـكائنات شاهدة على وحدانيته ؛
لناطق منها توحيد القالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضمير (م) يعود على من يعبدون من دون الله آلهة .

وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾

دلت الآية على فساد القول بالتقليد ، ووجوب إقامة الحجة والدليل .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى تَوْحِيدِ الْمَعْبُودِ ، وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِثْبَاتِ الْكَسْبِ لِلْعَبِيدِ ، إِذْ لَوْلَا هُ
لَمْ يَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمُ اللَّوْمُ وَالْعِتَابُ (١) . وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ ، أَوْ تَوَهَّمَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ حَصُولَ
شَيْءٍ فَقَدْ دَخَلَ فِي غَمَارِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ الْإِلَهَ مَنْ يَصْحُ مِنْهُ الْإِبْجَادُ .

قوله : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » : الإشارة منه أن الدين توحيد الحق ،
وإفراد الرب على وصف التفرد ونعت الوجدانية .

ثم قال : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إنما عديموا العلم لإعراضهم
عن النظر ، ولو وضعوا النظر موضعه لوجب لهم العلم لا محالة ، والأمر يدل على وجوب النظر ،
وأن العلوم الدينية كلها كسبية (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ ﴾

التوحيد في كل شريعة واحد ، والتعبد - على من أرسل إليه الرسول - واجب ،
ولكن الأفعال للنسخ والتبديل معرضة ، أما التوحيد وطريق الوصول إليه فلا يجوز
في ذلك النسخ والتبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ
بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾

في الآية رخصة في ذكر أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الرد عليهم ، وكشف

(١) هذا رأى على جانب ظهير من الأهمية في علم السلام ، وصدوره عن باحث صوفي يعرف أن المريد
— على الحقيقة — من لا إرادة له يزيد في أهمية الأمر .
(٢) في هذا رد على من يتهنون الصوفية بإنكارهم للعلم .

عوراتهم ، والتنبيه على مواضع خطاياهم ، وأنه إن وشوس الشيطان إلى أحدٍ بشيءٍ منه كان في ذلك حجةً للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يقصرون في واجب عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾

علمه القديم — سبحانه — لا يختص بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ دل على أنهم يشفعون لقوم ، وأن الله يتقبل شفاعتهم (١) .

قوله : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يمدبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يجوز أن يعدب البريء لكانوا لا يخافونه لهمهم أنهم لم يرتكبوا زلة (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾

أخبر أنهم معرضون عن الزلة بكل وجه . ثم قال : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾

(١) أي أن القشيري يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق المتكلمين الذين ينكرونها .
(٢) هذا رأي آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المعتزلة — وقد سماوا أنفسهم أهل العدل — أن الله لا يعدب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكماً ، فالحق
— سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

دَاخَلْتَهُمُ الشَّيْءَ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَالْقِيَامَةِ وَالنَّشْرِ ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحِجَةَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ قَالَ :
أَلَيْسُوا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؛ سَمَكَ السَّمَاءَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ . . . فَإِذَا قَدَرَ
عَلَى ذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْإِبَادَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ حَيٌّ فَمِنْ الْمَاءِ خَلَقَهُ ، فَإِنَّ أَصْلَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي حَصَلَتْ بِالتَّنَاسُلِ النُّطْفَةُ ،
وهي من جملة الماء .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار
بماء التعظيم . وأقوام حياتهم بماء الحياء . . . وعزيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

الْأُولِيَاءُ هُمُ الرُّوَاسِي فِي الْأَرْضِ وَبِهِمْ ^(١) يَرْزُقُونَ ، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ ، وَبِهِمْ يُوفَى
عَلَيْهِمُ الْعَطَاءُ . وَكَأَنَّهُ لَوْلَا الْجِبَالُ الرُّوَاسِي لَمْ تَسْكُنِ لِلْأَرْضِ أَوْتَادُ . . . فَكَذَلِكَ الشُّيُوخُ
الَّذِينَ هُمُ أَوْتَادُ الْأَرْضِ (فُلُولَاهُمْ) لَنْزَلَتْ بِهِمُ الشَّدَّةُ .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴾

كَمَا أَنَّ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا يَسْلُكُونَهَا لِيَصِلُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ كَذَلِكَ جَعَلَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ

(١) الضمير في (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن القشيري بحاجة إلى ذكر (الخلق) هنا لكثرة
ما أعاد في هذا الموضوع من قبل .

مساوكة بما بين على ألسنتهم من هداية المرئيين ، وقيادة السالكين ، كما يسر بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ .

في ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . كذلك النفوس أراض هي مساكن الطاعات ، وفي سماها القلوب نجوم العقول وأفار العلم وشموس التوحيد والعرفان . وكما جعلت النجوم رجوماً للشياطين جعلت من المعارف رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آيات القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لا يكاد يعرفها إلا الخواص .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ .

كما أن الحق - سبحانه - في الظاهر يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل فكذلك يدخل في نهار البسط ليل القبض . والبسط في الزيادة والنقصان . فكما أن الشمس أبدأ في برجها لا تزيد ولا تنقص ، والقمر مرة في المحاق ، ومرة في الإشراق . . . فصاحب التوحيد بنعت التمسكين - يرتقى عن حد تأمل البرهان إلى روح البيان ، ثم هو متحقق بما هو كاليان . وصاحب العلم مرة يرد إلى تجديد نظره وتذكره ، ومرة يفشاه غير في حال غفلته فهو صاحب تلوين (1) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مِت فهم الخالدون ﴾ .

إنك في هذه الدنيا عابر سبيل ، لكننا لم نترك فرداً في الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ 1 » .

(١) فأهل التمسكين كالشمس في نباتها ، وأهل التلوين كالتمر في تدرجه وتفريق أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكم
بالشرِّ والخيرِ فتنَةً ﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قومٍ ؛ لقومٍ انتهت مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتح
باب الفراق ، لقومٍ وقوع فتنهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقومٍ بلاء وقيامة ولآخرين
شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُواك
إِلَٰهَهُمْ وَقُلْ أَهَذَا الَّذِي يَذَّكُرُكُمْ آتَيْنَاكُمْ
وَهُمْ يَذَّكُرُ الرَّحْمَنَ لَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص ، وما رآه إليه من المنزلة لظلاله خاضعين ،
ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته ، وعابنوا منه جسمه وصورته .

قوله جل ذكره : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَآرِبِكُمْ آتَى
فَلَا تَسْتَعْمِلُونَ ﴾ .

العجلة مذمومةٌ والمسارةٌ محمودَةٌ ؛ فالمسارعة البدارُ إلى الشيء في أول وقته ، والعجلةُ
استقباله قبل وقته ، والعجلةُ نتيجةٌ وسوسة الشيطان ؛ والمسارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم ، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به .
ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم ، فالفرعُ يدلُّ على استعجالهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ
عَنْ وُجُوهِ النَّارِ . . . ﴾ .

. . . لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب (١) الظنون ، والاعتذار بعوايد الشيطان .

(١) ضبطنا ما (عذاب) بكسر العين لتكون جمع (عذب) فقد هزم ما هيأت لهم الظنون فاستعذبوها .

قوله جل ذكره : ﴿ بَل تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ وَأَنْ لَا يَسْتَشْعِرُونَهَا وَلَا يَنْظُرُونَ ﴾

العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنسى وأشد . وسنة الله في الانتقام أن يُبَيِّرَ رِيحَ الْبَغْتَةِ فِي حَالِ الْإِنْمَاسِ فِي النُّعْمَةِ وَالْبَيْئَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ

خَفَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

تسلياً له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أى عن قريبٍ ستمجدون وبال ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

مِنَ الرَّحْمَنِ . . . ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جربوا ذلك في أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرهون ممن ليس لهم شيء ، ومما ليس منه نفعٌ ولا ضررٌ ؟ وفى ذلك تنبيهٌ للدومنين بأن ما آريهم إلى الخيرات من نوعى النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجب دوامُ اعتكافهم بقولهم بعقوة كرمه وجوده .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا . . . ﴾

بسط القول وكرره فى تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجادات ؛ وأصنامهم التى عبدوها من تلك الجملة ، ولم يرد منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلا عجزٌ واقتطاعُ قولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَل مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ

عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصمة كان مكرراً واستدراجاً ،

وزيادةً في العقوبة . والحق كما يعاقب بالآلام والأهوال يعاقب بالإملاء والإمهال .

وقال : أفلا يرون أنا نأتى الأرض . . . « تنوالى القسوة حتى لا يبقى أثرٌ للصفوة ؛ فينعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأذى ذلك إلى الحرمان الذى فيه ذهاب الايمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكبر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . وفي هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل [: (١)

أخِرُ الأمرِ ما تَى القبرُ والحدُّ والثرى

وكما قيل :

طوى المصران (٢) ما نشرأه منى وأبلى جدتى نشرٌ وطى
أرأنى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى — مع النقصان — شىءٌ

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون ﴾

أى بأمرِ الله أعلمكم بموضع الخفاة ، ويوحى إلى فى بابكم أن أخوفكم بأليم عقابه ، ولكن الذى عدم تمتع التوفيق . . . أنى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مسَّهم نَفْحَةٌ من عذاب ربك ليقولنَّ يا ويلنا إننا كنا

ظالمين ﴾

أى لهم لا يبصرون على أقل شىء من العقوبة ؛ وإن الحق إذا شاء أن يؤلم أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

قوله جل ذكره : ﴿ ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ فى نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .

(٢) المصران : الغداة والعشى ، أو الليل والنهار .

فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكُفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١﴾

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يُقبل ، وتوزن الأحوال بميزان
الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يُقبل ، وتوزن الأنفاس بميزان (. . .) (١) فما فيه حظوظ
ومساكنات لا يُقبل .

ويقال ينتصف المظلوم من الظالم ، وينتقم الضعيف من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يصلح للقبول .

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فمن لم يرحم عباده في دينه لا يرحمه الله ، ومن لم يحسن
إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومن ظلم غيره كوفئ بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئاً » : أى يجازى المظلومين وينتقم من الظالمين ، ويُنتصفُ
المظلوم من مثقال الذرة ومقياس الحبة ، وإن عمل خيراً بذلك المقدر فسيلقى جزاءه ،
ويجد عوضه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ

وضياءً وذكراً للمتقين ﴾

ما آتاهم الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنور ، والحجة والبرهان يشاركونهم
المستجيبون من أممهم في الاستبصار به . . .

فكذلك الأكارم من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — في الاستبصار
بنور اليقين .

و « المتقي » هو المجانب لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسباب الحجاب وموجباتها .

(١) ترى انه قد حدث سقوط للفظ في هذا المسكان ، ولا بد انها بمعنى الخالص لله والتجرد من
كل العلائق ، وربما كانت أيضاً (الحفوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ
السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾

صار لهم في استحقاق هذه البصائر والخشية بالغيب إطراق السريرة ، وفي أوان الحضور
استشعارُ الوجَل من جريان سوء الأدب ، والحذرُ من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير
ما يوجبُ حجة العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوف قيام
الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم (١) ؛ فإن ما يستأهل الكفاة في الحشر معجلٌ لهم في الوقت
من تقريبٍ ومن تبعيد ، ومن محوٍ ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ
لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾

وَصَفَ القرآنُ بأنه « مبارك » ، وهو إخبارٌ عن دوامه (٢) ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ
على الماءِ أي دَامَ .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما لا ابتداء له — وهو
كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الدالُّ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ
وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾

أراد به ما تعرّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول (٣) ، لولا أنه
خصّه في الابتداء بالتعريف . . وإلا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه لولا ما أضاء (٤)
عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق ؟
ويقال هو ما كاشف به رُوحه قبل إبداعها من تجلّي الحقيقة .

(١) أي أرباب الأحوال .

(٢) وردت (بيانه) وآثرنا — طبقاً للسياق — أن نجمها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : « لاني لا أحب الأفلين » .

(٤) (أضاء) مقبولة في السياق ولسكننا لا نستبعد أنها ربما كانت في الأصل (افاء) أي (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمَهُ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ
الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾

نخاطب قومه وأباه (١) ببيان التنبيه طبعاً في استفاقتهم من سكرة الغفلة ، ورجوعهم من
ظلمة (٢) الغلظة ، وخرجهم من ضيق الشبهة .

ثم سأل الله إعادتهم بطلب الهداية لهم . فلمَّا تَبَيَّنْ لَهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَعَلَى كُفْرِهِمْ
يُصِرُّونَ تَبَرُّاً مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ قال
لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
اللاعِبِينَ ﴾

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحكم بالتسوية بينهم وبين
آبائهم في الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة
آبائهم حتى قالوا : « أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى مادعاهم
إليه من الإيمان فقال :

﴿ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴾

فأحاطهم على النظر والاستدلال والتعريف (٣) من حيث أدلة العقول (٤) لأنَّ إثبات الصانع

(١) وردت (وأتاه) والصواب ان تكون (أباه) كما في الآية ،

(٢) وردت في (ظلمة) وفي م (ظل) والصواب أن تكون (ظلمة) فالتشبيح يستعمل الظل العناية
وما في معناها .

(٣) في ص (والتعريف) وفي م (التعرف) ونحن نرجح هذه ،

(٤) في ص (القبول) ونحن نرجح (العقول) لتلاؤمها مع السياق .

لا يُعْرَفُ بِالْمُعْجَزَاتُ ، وَإِنَّمَا الْمُعْجَزَاتُ عِلْمٌ بِصِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَذَلِكَ فِرْعَ
لِمَعْرِفَةِ الصَّانِعِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ مَا عَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْ بِمَا يُصِيبُهُ مِنْ
الْبَلَاءِ ثِقَةً مِنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْفِرُ بِالْإِبْدَاعِ ، فَلَا أَحَدَ يَمْلِكُ لَهُ (١) ضَرًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَتَسَاءَلُوا
فِيهَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا قَوِيًّا يَذُكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿

أى يذكُرُهُمُ بالسُّوءِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ فَعَلَهُ . . فَسَأَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ (٢) فَقَالَ : بَلِ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ .

فَقَالُوا كَيْفَ نَدْرِكُ الذَّنْبَ عَلَيْهِ ؟ وَكَيْفَ تَحْمِلُنَا فِي السُّؤَالِ عَلَيْهِ — وَهُوَ جَمَادُ ؟

فَقَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ عِبَادَةَ مَا هُوَ جَمَادٌ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ السُّوءَ ١٤

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ

مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾

فَقَالَ : شَرٌّ وَأَمْرٌ (٣) . . كَيْفَ تَسْتَحِقُّ أَمْثَالَ هَذِهِ . . الْعِبَادَةَ ١٤

فَلَمَّا تَوَجَّهَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ دَاخِلَتْهُمْ الْأَنْفَةُ وَالْحَمِيَّةُ فَقَالُوا : سَبِيلُنَا أَنْ
نَقْتُلَهُ شَرًّا قِتْلَةً ، وَأَنْ نَعَامِلَهُ بِمَا يَخُوفُنَا بِهِ مِنَ النَّارِ . فَقَالُوا : « ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » ،
فَلَمَّا رَمَوْهُ فِي النَّارِ :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا

عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

(١) الضمير في (فسألوه) يعود على إبراهيم عليه السلام .

(٢) أى أن في الكلام كما يقول البلاغيون — إيجاز حذف .

(٣) أى هذا عذر أتبع من الذنب .

لو عَصَمَهُ مِنْ نَارٍ (١) نَمْرُودٌ. وَلَمْ يُمْكِنَهُ مِنْ زَمِيهِ فِي النَّارِ مِنَ الْمُنْجِنِيقِ لَسَكَانٍ - فِي الظَّاهِرِ -
أَقْرَبَ مِنَ النَّهْمِ، وَلَسَكَانٌ حَفِظَهُ فِي النَّارِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّهُ أَلَّهُ أُمَّهُ فِي بَابِ النَّصْرَةِ
وَالْمُحْجِزَةِ وَالسَّكْرَامَةِ .

وَيُقَالُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ : أَوْاهُ مِنَ النَّارِ !

قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » (٢)

فَلَمَّا رُمِيَ فِي النَّارِ ، وَجَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ بَرْدًا قَبِيلَ لَهُ : لَا تَقْلُبْ بَعْدَ هَذَا . أَوْاهُ مِنَ النَّارِ !
فَالِاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنَ اللَّهِ . . لَا مِنْ غَيْرِهِ .

قَوْلُهُ : « وَسَلَامًا » : أَيُ وَسَلَامَةً عَلَيْهِ وَهُوَ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْعَبْدِ السَّلَامَةُ فَالنَّارُ وَالْبَرْدُ
عِنْدَهُ سَيِّئَانِ .

وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي يَحْرَقُ فِي النَّارِ مِنْ فِي النَّارِ يَقْدِرُ عَلَى حَفِظِهِ فِي النَّارِ .
وَلَمَّا سَلِمَ قَلْبُهُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ بِكُلِّ وَجْهِ فِي الْاسْتِنْبَارِ (٣) وَالِاسْتِعَاذَةِ وَسَلِمَ مِنْ طَلَبِ شَيْءٍ
بِكُلِّ وَجْهِ . . . تَعَرَّضَ لَهُ جَبْرَيْلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْمَوَاءِ وَقَدْ رُمِيَ مِنَ الْمُنْجِنِيقِ
وَقَالَ لَهُ :

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ ؟

قَالَ : أَمَّا إِلَيْكَ . . . فَلَا !

فَجَعَلَ اللَّهُ النَّارَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، إِذْ لَمَّا كَانَ سَلِيمَ الْقَلْبِ مِنَ الْأَغْيَارِ وَجَدَ سَلَامَةَ
النَّفْسِ مِنَ الْبَلَايَا وَالْأَعْلَالِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ

الْأَخْسَرِينَ ﴾

مَنْ حَفَرَ لَأَوْلِيَانِهِ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ، وَمَنْ كَانَ شَفِوَلًا بِاللَّهِ لَمْ يَقْوَلْ الْاِنتِقَامَ مِنْهُ سِوَى اللَّهِ .

(١) فِي م. (يَد) نَمْرُودٌ وَكَلَامًا مَقْبُولٌ فِي السِّيَاقِ .

(٢) آيَةُ ١١٤ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

(٣) هَكَذَا فِي م وَهِيَ أَمْسَحُ مِنَ (الِاسْتِنْبَارِ) فِي م لِانْسِجَامِ (الِاسْتِنْبَارِ) مَعَ (الِاسْتِعَاذَةِ) .

قوله جل ذكره: ﴿وَنَجِّنَاهُ لَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّهُ إِذَا نَجَّى مِنْهُمْ وَاحِدًا أَشْرَكَ مَعَهُ مَنْ كَانَ مُسَاهِمًا لَهُ فِي ضُرِّهِ وَمُقَاسَاةً مَشْقَتَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾

مَنْ عَلَيْهِ بَأْسٌ أُخْرِجَ مِنْ صِلَتِهِ مَنْ كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ ، ذَاكِرًا لَهُ ، فَإِنَّ مَفَاخِرَ الْأَبْنَاءِ مَنَاقِبُ لِلْآبَاءِ ، كَمَا أَنَّ مَنَاقِبَ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلْأَبْنَاءِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا

عَابِدِينَ﴾

الإمامُ مُقَدَّمُ الْقَوْمِ ، وَاسْتِحْقَاقُ رَتْبَةِ الْإِمَامَةِ بِاسْتِجَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي فِي الْأُمَّةِ فِيهِ ، فَمَنْ لَمْ تَجْمَعْ فِيهِ مُتَفَرِّقَاتُ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ لَمْ يَسْتَحِقْ مَنَزَلَةَ الْإِمَامَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ﴾

أَكَلَ لَهُ الْأَنْعَامُ بِمَعْصِيَتِهِ مِنْ مِثْلِ مَا امْتَحَنَ بِهِ قَوْمَهُ ، ثُمَّ بِخَلَاصِهِ مِنْهُمْ بِإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَبَيَّزَهُ عَنْهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ

الصَّالِحِينَ﴾

بَيِّنَ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ نَحْوَ مَا قَالَ : « إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ، فَلَا حَالَةَ مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ

كَانَ صَالِحًا .

وقوله : « وأدخلناه في رحمتنا » إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » :
إخبار عن عين الفرق (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
ونصرناه من القوم الذين كذبوا
بآياتنا إنا كنا قوم سوءٍ فأغرقناهم
أجمعين ﴾

كان نوح - عليه السلام - أطولهم عمراً ، وأكثرهم بلاءً . ففي القصة أنه كان يُضربُ
سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان
يوصيه بمخالفته . وكان نوح - عليه السلام - يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ،
فلما أيس من إيمانهم ، وأوحى إليه : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (٢)
دعا عليهم فقال : « رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً » (٣) فقال تعالى : « ونوحًا
إذ نادى من قبل . . . » فأغرقَ الشركَ وأغرقَ أهله .

قوله جل ذكره ﴿ وداود وسليمان إِذِ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ
إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ففهمناها
سليمان وكلاً آتيناهم حكماً وعِلماً ﴿

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . . ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان
- عليه السلام - بها خصوصية ؛ إذ منَّ عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يمنَّ عليه
بشيء من الملوك الذي أعطاه بمنل ما منَّ عليه بذلك ، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب
المجتهدين - وإن اختلفوا - إذا كان اختلافهم في فروع الدين ؛ حيث قال : « وكلاً آتيناهم

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته - سبحانه ، وصلاح العبد فيه شيء من كسب العبد .

(٢) آية ٣٦ سورة هود .

(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً ، ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلق بقوله : « ففهمناهما سليمان » (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّ فَاعِلِينَ ﴾

أمر الجبال وسخرها لتساعد داود — عليه السلام — في التسبيح ، ففي الأثر : كان داود — عليه السلام — يمرُّ وُصْفَاحُ (٢) الجبالِ تجاوبه ، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
لِتُخْفِيَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ ﴾

سَخَّرَ اللهُ — سبحانه — لداود الحديد وألانه في يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : « وَأَلَّمْنَاهُ الْحَدِيدَ » ليتحصن من السهام في الحروب ، قال تعالى : « وَقَدَّرَ فِي السُّرِّدِ وَأَحْكِمِ الصَّنْعَةَ وَأَوْثِقِ الْمَسَامِيرَ . . . ولكن لما قصده سِهَامُ التقدير ما أصابت إلا حدفته حين نظر إلى امرأة أوريا — من غير قصدٍ — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نفسه باب البيت ، وأخذ يصلي ساعةً ، وقرأ التوراة مرةً ، والزبور أخرى ، حتى يمضى وينتهي ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أوحى إليه أنه يوم فتنه ، فأمر الحُجَّابَ والبواب ألا يؤذَنَ عليه أحدٌ ، فوقع من كوة البيت طيرٌ لم ير مثله

(١) هذا رأى القشيري في (الاجتهاد) ومدام ، ويجدر الاهتمام به إذا شئنا أن نبحت في « أصول الفقه عند الصوفية » .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح الشيء عرضه (مقاييس اللغة ج ٣ ص ٢٩٣) .
ويقول القرطبي (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسجماً ، والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير) ويضيف القرطبي شيئاً هاماً بالنسبة للتفسير الصوفي : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال : « وسخرنا » أي جعلناها بحيث تطيمه) .

«الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٣١٩»
وهذه المناسبة نود أن نستدرك شيئاً لم نشر إليه في مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبي كثيراً ما يستفيد من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيري ، وهو في معظم الأحيان عبد الرحمن القشيري أحد أبناء المصنف .

في الحُسن ، فهم أن يأخذوه ، فتباعد ولم يطر كالمطعم له في أخذه ، فلم يرل يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت ، فنبعه داود ينظر إليه من الكوة من ورائه ، فوقع بصره على امرأة أوريا ، وكانت قد تجردت من ثيابها تمتسل في بستان خلف البيت الذي به داود ، فحصل في قلبه ما حصل ، وأصاب سهم التقدير حدقته ، ولم تنفعه صنعة اللبوس التي كان تعلمها لتحصنه من بأسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره

إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا

بكل شيء عالمين ﴾

سخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، ولو أراد أن يزيد في قدر مساقمها شيئاً لما استطاع ، تعريفاً بأنه موقوف على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان ينمعه عن الإعجاب بما أكرم به من التسخير ، ولقد نبه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذي ملكه سليمان كالريح إذا مرّ وفات ، أو أنه لا يبق باليد منه شيء (١) .

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فالت الريح ببساطه قليلاً ، فقال سليمان للريح : استوي . فقالت له الريح : استوي أنت . أي إنما ميلى ببساطك لميلك بقلبك بملاحظتك ؛ فإذا استويت أنت استويت أنا (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الشياطين من يقوِّصون له

ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم

حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فطالبه بروحه ، فقال : إلى حين أرجع إلى مكاني .

فقال له : لا وجه للتأخير ، وقبضة وهو قائم ينسك على عصاه وبقى بحالته ، ولم تعلم الجن ،

(١) فهو كما قيل : باطل وقبض الريح .

(٢) في ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا تغيرت أو تعذرت الأمور فالسبب كامن في نفوسهم .

إلى أن أكلت دابة الأرض — كما في القصة — عصاه ، فلما خرَّ سليمان عَلِمَت الشياطينُ ببعوته ، وتحققوا أن الذي بالعصا قيامه فَفَهَرُ الموت يلحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذَا نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

أى واذكر أيوب^(١) حين نادى ربه . ومضى أيوب لكثرة إيباه إلى الله في جميع أحواله في السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

ولم يقل : ارحمني ، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال : « وأنت أرحم الراحمين » .
ومن علامات الولاية أن يكون العبدُ محفوظاً عليه وقته في أوانِ البلاء .

ويقال إخباره عنه أنه قال : « مسنى الضر » لم يسلبه اسم الصبر حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأنَّ الغالب كان من أحواله الصبر ، فنادرٌ قالته لم يسلب عنه الغالب من حالته . والإشارة من هذا إلى أن الغالب من حال المؤمن المعرفة ، أو الإيمان بالله فهو الذي يستغرق جميع أوقانه ، ولا يخلو منه لحظة ؛ ونادرٌ زلاته — مع دائم إيمانه — لا يزأحم الوصف الغالب .

ويقال ؛ لما لم يكن قوله : مسنى الضرُّ على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهار العجز — فلم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرج منه هذا القول ليكون فيه مُتَنَفِّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضجروا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القول منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر « أنى مسنى الضرُّ » الذى تخصُّ به أولياءك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لَمَا خصصتني بهذا ، ولكن برحمتك أهلتني لهذا .

(١) في تقديرنا أن ما كتبه القشيري في هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجل ما كتب في هذا الموضع سواء من الناحية الأدبية أو من الناحية الإشارية .

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاثه البلاء منه ، فلم يُطِقْ البلاء صُحْبَتَهُ
فصَحَّحَ منه البلاء لا أيوبُ صُحَّحَ من البلاء . . . وفي معناه أنشدوا .

صَبَّ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة ، ومعناه : أيمنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال
« وتلك نعمة تمنها عليَّ » (١) أي أتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ — عليه السلام — أتى أيوبَ فقال : لِمَ تسكتُ ؟ فقال : ماذا أصنع ؟
فقال : إنَّ اللهَ سيان عنده بلاؤك وشفاؤك . . . فاسألَ اللهُ العافيةَ فقال أيوب : إني
مسنى الضرُّ ، فقال تعالى : « فكشفنا ما به من ضرِّ » والفاء تقتضى التعقيب ، فكأنه قال :
فعافيناه في الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبتَ العافيةَ قبلَ هذا لاستجبتَ لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على
موضعها ، فعقرته عقرةٌ عليلٌ صَبْرُهُ فقال : مسنى الضرُّ ، فقيل له : يا أيوب : أتصبرُ معنا ؟
لولا أنى ضربتُ تحت كلِّ شعرةٍ من شعراتك كذاخيمة من الصبر . . . ما صَبَرْتَ ساعةً !
ويقال كانت الدوداتُ التي تأكل منه أكلت ما علا بدنه ، فلم يبقَ منه إلا لسانه
وقلبه ، فصمدت دودة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

« مسنى الضرُّ » . . . فلم يبقَ لى إلا لسانُ به أذكرك ، أو قلبُ به أعزفك ، وإذ
لم يبقَ لى ذلك فلا يمكننى أن أعيشَ وأصبر !

ويقال استعجبت عليه جهة البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تمديباً
أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً . . . وكذلك كانت صحبته (٢) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سل العافية فقال :

عِشْتُ في النَّعمِ سبعين سنةً فحقى يأتى على سبعون سنة في البلاء . . . وعندئذٍ أسألُ
اللهَ العافيةَ !

(١) آية ٢٢ سورة الشعراء .

(٢) أى وهكذا كانت صحبة الحقى لوليه دائماً .

وقيل لما كَشَفَ اللهُ عنه البلاء قيل له : ما أشدُّ ما لقيتَ في أيام البلاء ؟ فقال
شهادة الأعداء .

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم ، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان
لك عند الله منزلةٌ لما ابتلاك بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجته ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهي التي بقيت
معه وكانت تخدمه وتمهده .

ويقال إنما بقيت تلك للمرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب —
عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسني الضرُّ لما قال لها الشيطان : إن أردتِ أن يشفى مريضك فاسجدي
لي ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظهر لها في صورة إنسان ، فأخبرت أيوب بذلك فقال عندئذ :
« مسني الضرُّ » .

ويقال لما ظهر به البلاءُ اجتمع قومه وقالوا لها : أخرجي هذا المريض من قريتنا ، فإننا
نخاف العدوى وأن يمسنَّا بلاؤه ، وأن تُعدى إلينا علته ، فأخرجته إلى باب القرية فقالوا :
إننا إذا أصبحنا وقمت أبصارنا عليه ، فنتشاهم به ، فأبغديه عن أبصارنا ، فحملته إلى أرض
فقير ، وكانت تدخل البلد ، وُتستأجرُ للخبزِ والعملِ في الدور ، فتأخذ الأجرةَ وتحملها إليه ،
فلما علموا أنها امرأته استقدروها ولم يستعملوها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ،
فباع ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن
شعرها جزُّ في ذلك فحكفَ أيوبُ أن يجلدَها إذا صحَّ حدسه ، وكانت المحنة على قلب
تلك المرأة أشدَّ مما على بدنِ أيوب من كل المحن .

وقيل إن امرأته غابت ودخلت البلد ، فعافى الله أيوب عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً
كما قال في قصته قوله : « اركض برجلك هذا مُمتسلاً بارد وشراب » (١) . فلما رجعت

(١) آية ٤٢ سورة ص

امرأته ولم تره حسبت أنه أكله سبع أو أصابته آفة ، فأخذت تبتكي وتولول ، فقال لها أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — مالك يا امرأة ؟

قالت : كان لي ها هنا مريض ففقدته . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذى تطلبينه !

وفى بعض الأخبار المروية أنه بقى فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرض له إبليس فقال : إن أردت العافية فاسجد لى سجدة ، فقال : « مسنى الضر » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مكشفاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يحس بالبلاء ، فستر عليه مرة ، وردّه إليه ، فقال : مسنى الضر (١) .

ويقال أدخل على أيوب تلك الحالة ، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أن هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قبلك فما اخترته إلا لك ، فلما أراد كشفه عنه قال : مسنى الضر !

وقيل كوشف بمعنى من المعانى فلم يجد ألم البلاء فقال : مسنى الضر لفقدى ألم الضر .

وقال جعفر الصادق : حبس عنه الوحي أربعين يوماً فقال : مسنى الضر لما لحته من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأن ردّ عليه قوته ليقوم بحق الطاعة .

ويقال طلب الزيادة فى الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضر الذى شكاه منه أنه بقيت عليه بقية ، وبليته كانت ببقيته ، فلما أخذ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال : « فكشفنا ما به من ضر » وكانت نفسه ضرة ، وردّ عليه السلامة والعافية والأمل — فى الظاهر — لما صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُتَّقٍ عن كل بقية ، وعند ذلك استوى البلاء والعافية ، والوجود والفقْد .

(١) أى ان العبد الواله لا يحس بنفسه وهو فى حال الجمع ، ويحس بها وهو فى حال الفرق . وقد حكى القشيري فى الرسالة ان بعضهم قطعت رجليه حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم قلة . . وهو فى حال الفرق .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ
كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

أى واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

بَيْنَ الْحُكْمِ وَالْمَعْنَى ؛ الْحُكْمُ صَبْرُهُمْ وَصِلَا حُكْمُهُمْ ، وَالْمَعْنَى إِدْخَالُهُ إِيَّاهُمْ فِي الرَّحْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ

أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

« مغاضباً » : عَلَى مَلِكٍ وَقْتَهُ حَيْثُ اخْتَارَهُ لِلنَّبُوَّةِ ، وَسَأَلَهُ : لِمَ اخْتَرْتَنِي ؟ فَقَالَ : لَقَدْ

أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ نَبِيًّا : أَنْ قُلْ لِفُلَانِ الْمَلِكِ حَتَّى يَخْتَارَ وَاحِدًا لِلرُّسُلِ إِلَى نِيَّوِي بِالرَّسَالَةِ .

فَشَقَّلَ عَلَى ذِي النُّونِ لِمَا اخْتَارَهُ الْمَلِكُ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النَّبُوَّةَ مَقْرُونَةٌ بِالْبَلَاءِ ، فَكَانَ غَضْبُهُ

عَلَيْهِ لَئِذَاكَ (١) .

ويقال مغاضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الذين من مخالفيه .

« فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » أى أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ (٢) بطن الحوت ، من قوله :

« وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » (٣) أى ضَيَّقَ .

(١) عن ابن عباس : أراد شعياً النبي والملك حزقيا ان يبعثا يونس إلى ملك نينوى الذي كان قد غزا بنى إسرائيل وسي الكثير منهم ليكنه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحي ذلك النبي ، وقد أوحى لشعياً : ان قل لحزقيا الملك ان يختار نبيا قويا من بنى اسرائيل إلى اهل نينوى .. فقال يونس لشعياً : هل امرك الله بإخراجي ؟ قال : لا ، قال : فها هنا انبياء امانة اقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضباً للنبي والملك وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، وابتلى ببطن الحوت لتركه امر شعياً .. قال تعالى « فالتقمه الحوت وهو مليم » .

(٢) (ان لن تضيق عليه) مفقودة في ص وموجودة في م والسياق يقتضى وجودها .

(٣) آية ١٦ سورة الفجر

ويقال فظنَّ أن لن تقدر عليه من حَبْسِهِ في بَطْنِ الحوت .

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّبُ قومه ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبع أفترس أهله في الطريق ، وأخذ النَّسِيرَ ابناً صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجه ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وأخذ الناس في إلقاء الأمتعة في البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الغرق ، فقال لهم يونس : لا تُلْقُوا أمتعتكم في البحر بل اطرحوني فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليك سيء الصلاح ، وليست تسمح نفوسنا بإلقاءك في البحر ، فقال تعالى مخبراً عنه : « فساهم فكان من المدحضين » (١) أي فقارعهم ، فاستهوا ، فوَقعت القُرْعَةُ عليه .

وفي القصة أنه أتى حَرَفَ السفينة ، وكان الحوتُ فاعراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لَمَّا عَلِمَ أنه مرَّادٌ بالبلاء أتى نفسه في الماء فابتلعه الحوت « وهو مليم » : أي أتى بما يلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوت وهو مليم » (٢) .

وأوحى الله إلى السمك : لا تَخْدِشْ منه لَحْماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً ، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك . فَبَقِيَ في بطنه - كما في القصة - أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذي ابتلعه أميرٌ بأن يطوف في البحر ، (وخلق الله له إدراك ما في البحر) (٣) ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . . فما ظنُّكَ بِعَبْدٍ عَمِدَهُ - سبحانه - سبعين سنة ، ولازم قلبه محبته ومعرفة طول عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُظنُّ بِكِرْمِهِ ذلك !

« فننادى في الظلمات . . . » يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت - هذا بيان

(١) آية ١٤١ سورة الصافات

(٢) آية ١٤٣ سورة الصافات

(٣) موجودة في م ومفقودة في ص

التفسير ، ويحتمل (١) أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

استجبنا له ولم نجِّره منه دعاءه ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .
ثم قال : « ونجيناها من الغم . . . » . يعنى : كُلُّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا أَصَابَهُ غَمٌّ ، أَوْ اسْتَقْبَلَهُ مُهِمٌّ - مَثَلًا قَالَ ذُو النُّونِ نَجَّيْنَاهُ كَمَا نَجَّيْنَا ذَا النُّونِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾

سأل الولد ، وإنما سأله ليكون له معيناً على عبادة ربه وليقوم في النبوة مقامه ، ولثلاث قطع بركة الرسالة من بيته (٢) ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قطعه بالمنشار ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتوسَّطها ، والنأمت الشجرة ، وفتنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته ، ولعلمهم - لو قتلوه - لم يُصيِّبه من الألم القدر الذى لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فقوى بذلك يقينه لمَّا رأى عجيب الأمر فيه من بغض المادة (٣) ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ، ولقد قال قائلهم : « إنما يستعذب الأولياء البلى للمناجاة مع المولى » .

(١) هذا النوع من الظلمات - وهو المرئى بالذات - متوقع صدوره عن مفسر صوفى ملم بأحوال النفس .

(٢) أى أنه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق ربه ، وهذه بشرى إجابة الدعاء .

(٣) أى أن المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين فهم النبي بل في حسابها تثبيت قلب النبي وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

سمى يحيى لأنه حيي به عقر أمه .

وقوله : « وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجًا » : لتكون الكرامة لهم جميعاً بالولد ، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها . . . وهذه سُنةُ الله في باب إكرام أوليائه ، وفي معناه أشهدوا :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أُيسِرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشَنَ

ثم قال : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا . . . » وفي هذا إشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١) ، ولو لم تسكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢) .

قوله : « وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ ، وكان لهم ذلك على الدوام :

قوله جل ذكره : ﴿ وَالتِّي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

يعنى مريم ، وقد نفخ فيها سمة الفحشاء وهجنة الذم .

ويقال فنفضنا فيها من روحنا ، وكان النفخ من جبريل عليه السلام ، ولكن لما كان بأمره — سبحانه — صحت الإضافة إليه ، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإنزال ملكٍ فصيح^٣ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص ، كقوله : (ناقة الله ، وبيتي) . . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آية للعالمين) : ولم يقل آيتين

(١) قال تعالى : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ٥٦ الحجر .

(٢) قال تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف .

لأن أمرها كان معجزة ودلالة ، ويصح أن يراد أن كل واحدٍ منهما آيةٌ — على طريقة العرب في أمثال هذا .

وفيه نفي لتهمة من قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم ا
قوله (آية للعالمين) : وإن لم يهتد بهما جميع الناس . . . لكنهما كانا آيةً . ومن نظرَ
في أمرها ، ووضع النظر موضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها
حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ .

أى كلِّكم خَلِقْتُهُ ، وكلِّكم اتَّقِمْتُمْ فِي الْفَقْرِ ، وفي الضعف ، وفي الحاجة . « وأنا ربكم » :
وخالفكم على وصف النَّفَرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا
رَاجِعُونَ ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرقت أحوالهم ، فاستأصلتهم البلايا .
قوله : (كلُّ إلينا راجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقبلون إلا في قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا
لَه كَاتِبُونَ ﴾ .

من تعنى الله لم يخسر على الله ، ومن تحمّل الله مشقةً وجبَّ حقه (على) (١) الله : قوله : وهو
مؤمن (بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً
ففائدة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) في المال والعاقية ، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُحْتَمُّ له
بالسعادة ، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له ، فإذا
كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذ لا يضيع معييه .

(١) ترجح أنها في الأصل (من) لأن القشيري في مواضع شتى عارض أي وجوب (على) الله . . .
وطالما أوضعت ذلك في الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم
لا يرجعون ﴾ .

أى لانهلك قوماً وإن تمادوا فى العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة
نُخِمْ أمورهم .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وهم من كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

أى يحق القولُ عليهم ، ويتم الأجلُ الضروبُ لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى
القدرِ المعلومِ فى التقدير لا تحصلُ نِجاةُ الناسِ من شرِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واقترَبَ الوعدُ الحقُّ فإذا هى
شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا يا ويلتأنا
قد كُنَّا فى غفلةٍ من هذا بل كُنَّا
ظالمين ﴾ .

تأخذهم النيامةُ بغتةً ، وتظهرُ أشراطُ الساعةِ فجأةً ، ويُقرُّ الكاذبون بأن الذنبَ عليهم ،
ولكن فى وقتٍ لا تقبلُ فيه معازرتهم ، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنكم وما تعبدون من دونِ اللهِ
حَصَبٌ جَبَّهم أنتم لها واردون ﴾ .

« وما تعبدون من دونِ اللهِ » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملائكة
التي عبدوها قومٌ ، ولا عيسى وإن عبيده قومٌ لأنه قال :

« إنكم وما تعبدون » ولم يقل « إنكم ومن تعبدون »^(١) . فَيُحْشَرُ الكافرون فى النار ،
وَيُحْشَرُ أصنامهم معهم . والأصنامُ جماداتٌ فلا جرَمَ لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه
على جهة براءة ساحتها ، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ لإجماداتُ .

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير العاقل و (من) اسم موصول للعاقل .

﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها
وكل فيها خالدون ﴾ .

القوم قالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (١) فَعَلِمُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ جِمَادَاتُ ،
ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وَأَنَّ مَنْ عِبَدَهَا يَقْرُبُ بِعِبَادَتِهَا مِنْ اللَّهِ ، فَيُبَيِّنُ اللَّهُ
لهم — غداً — بَأْتِيهَا لَوْ كَانَتْ تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَّا أُقِيمَتْ فِي
النار ، وَلَمَّا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾

« لهم » : أَيْ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، « فيها » أَيْ فِي النَّارِ ، « زفير » حَسْرَتِهِمْ عَلَى مَا قَاتَهُمْ ،
« وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نِدَائِهِ يَبْشُرُهُمْ بِاتِّقِضَاءِ عِقَابِهِمْ .
وبعكس أحوالهم عَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ (٢) فِي النَّارِ فَهَمَّ — وَإِنْ عُدُّوا حِينًا — فَأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ
قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرُهُمْ يَوْمًا بِاتِّقِضَاءِ عِقَابِهِمْ — وَإِنْ كَانَ بَعْدَ مَدَّةٍ مَدِيدَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى
أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

« سبقت لهم منا الحسنى » : أَيْ السَّكَمَةُ بِالْحُسْنَى ، وَالْمَشِيئَةُ وَالْإِرَادَةُ بِالْحُسْنَى ، لِأَنَّ الْحُسْنَى
فَعْلُهُ ، وَقَوْلُهُ : « سَبَقَتْ » إِخْبَارٌ عَنْ قِدَمِهِ ، وَالَّذِي كَانَ لَهُمْ فِي الْقِدَمِ هُوَ السَّكَمَةُ الَّتِي هِيَ
صِفَةٌ تَعَلَّقَتْ بِهِمْ فِي مَعْنَى الْإِخْبَارِ بِالسَّعَادَةِ .

ثم قال : « أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » أَيْ عَنِ النَّارِ ، وَلَمْ يَقُلْ مُتَبَاعِدُونَ لِئَعْلَمَ الْعَالِمُونَ أَنَّ
الْمَدَارَ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وَسَابِقِ الْحُكْمِ مِنْ اللَّهِ ، لِأَنَّ عَلَى تَبَاعُدِ الْعَبْدِ أَوْ تَقَرُّبِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ
أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه في علم الكلام : اللزلة بين اللزلتين وهي التي بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء .
— كما هو شأن الكفار — على التأبيد . كما يرى الفشيري .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَدُّون فيها بكل وجه . والمراد منه العبادُ من المؤمنين الذين لا جُرمَ لهم .

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » : مقيمين لا يبرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

قيل الفزعُ الأكبرُ قولُ المَلَكِ : « لا بشرى يومئذٍ للمجرمين » (١)

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٢)

ويقال إذا قيل : يا أهل الجنة . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً

لا موتَ فيه ١

وقيل إذا : « قال اخسئوا فيها ولا تكلمون » (٣)

وقيل الفزعُ الأكبرُ هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتلقاهم الملائكة » يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وعِدْتُمْ فيه بالثواب ؛ فمنهم من يتلقاه المَلَكُ ، ومنهم من يردُّ عليه الخطاب والتعريف من المَلِكِ (٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ

لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ وَعَدَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا

فَاعِلِينَ ﴾

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحنها ، والأرضُ كانت فِرَاشاً إذ كانوا

عليها ، فإذا ارتحل الأحيابُ عنها تحرب ديارهم . . على العادة فيما بين الخلق من خراب

الديار بعد مفارقة الأحياب .

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أي من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأخيار .

ويقال نظوى السماء التي إليها عرّجت ذواوين العصاة من المسلمين لتلا تشهد عليهم بالإجرام ، وتبدل الأرض التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .
أو نظوى السماء لتقرب قطع المسافات على الأحياب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد

الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي

الصالحون ﴾

« الذكر » هنا هو التوراة ، و « كتب » : أى أخبر وحكم ، و « الصالحون » .

أمة محمد - صلى الله عليه وسلم : أن « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

أما من أسلم فيك ينجون ، وأما من كفر فلا نغذبهم ما دُمتَ فيهم ، فأنت رحمة منّا

على الخلائق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما يوحى إلىّ أنا إلهكم إله

واحد فهل أنتم مسلمون ﴾

واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله . واحد بلا قسم ، واحد بلا شبهة ،

واحد بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرّي عن كل غير في حسابان

صلاحيته للألوهية ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء

وإن أدرى أقرب أم بعيد

ما توعدون ﴾

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فقل : إني بالالتزام أعلمتكم ، ولكن الإكرام ما أعلمتكم ،

فتوجهت عليكم الحجة واستبهمت عليكم المحجة .

قوله : « وإن أدري أقرب أم بعيد . . . » إنَّ علمي متقاصرٌ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم ، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم ، ولكنَّ حُكْمَ اللَّهِ غيرُ مستأخِرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

لا ينبغي عليه سرُّكم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . فعلى قدر استحقاقكم يُجازيكم ، وبموجب أفعالكم يحاسبكم ويكافئكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

ليس يحيط علمي (إلا)^(١) بما يُعلمني ، وإعلامه إياي ليس باختيارى ، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادى وإيثارى .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التي يذكر فيها « الحجج »

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

سماعُ « بسم الله » يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماعُ « الرحمن الرحيم » يوجب الألس والقربة ، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

سماعُ « بسم الله » يوجب انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم^(٢) ، وسماعُ « الرحمن

(١) سقطت (إلا) في ص وموجودة في م .

(٢) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يقبدر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله في المحبوب ، وهذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها هاتين اللفظتين في مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهم ومتيم) [انظر التعبير في التذكير

الرحيم « يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء فتوتهم ، فعودة فتوتهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ

السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ » نداء علامة ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » نداء كرامة ، وبكل واحد من القسمين يفتتح الحق خطاباً في السُّور ؛ وذلك لانهقسام خطابه إلى صفة التحذير مرة ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هي التحرز والالتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فرض ، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جملة المباحات - نقل ، فتواب الأول أكثر ولكنه مؤجل ، وثواب النفل أقل ولكنه معجل (١) .

ويقال خوفهم بقوله : « اتقوا » . ثم سكن ما بهم من الخوف بقوله : « رَبَّكُمْ » فإن سماع الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » : وتسمية المعلوم « شيئاً » توسع ، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللَّفْظِ يَقْتَضِيهِ ، وكذلك القول في تسميته « شيئاً » هو توسع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا تَدَاهُلٌ كُلٌّ مُرْضِعَةٌ

عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ

اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستفرقه ، وترى الناس سكارى أي من هول ذلك

== ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجانين :

معشر الناس ماجنت ولكن انا سكرانة وقلبي صاح

أنا مفتشونة بحب حبيب لست أبقي عن بابيه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابتنا (نشأة التصوف الإسلامي ط للعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاف إلى أصول الفقه الصوفي عند القشيري .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال في القيامة وأهوالها غالبية . وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ولشِدَّتِهِ يحيرهم ولا يبيِّنهم على أحوالهم . وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَارَى ، ولكنَّ موجبَ ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكِرَهُ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ ، ومنهم مَنْ سُكِرَهُ لِاسْتِهْلَاكِهِ فِي عَيْنِ الْوَصَالِ .

كذلك فَسُكِرَهُمُ الْيَوْمَ مُخْتَلَفٌ ؛ فمنهم مَنْ سُكِرَهُ سَكْرُ الشَّرَابِ ، ومنهم مَنْ سُكِرَهُ سَكْرُ الْحَبَابِ . . . وَشَتَّى بَيْنَ سُكْرٍ وَسُكْرٍ ؛ سُكْرٌ هُوَ سُكْرُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ ، وَسُكْرٌ هُوَ سُكْرُ أَهْلِ الْوَصَلَةِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾

المجادلة لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدين — من موجبات القربة ، والمجادلة في الله ، والمارة مع أوليائه ، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان بوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ

وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّمِيرِ ﴾

مَنْ وَافَقَ الشَّيْطَانَ بِتَابِعَةِ دَوَاعِيهِ لَا يَهْدِيهِ إِلَّا إِلَى الضَّلَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ يَتَبَرَأُ مِنْ مَوَافَقَتِهِ ، وَيَلْعَنُ جَمَلَةَ مُتَّبِعِيهِ . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته ، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ

الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِمَّنْ

نُطِقْنَا ثُمَّ مِمَّنْ عَلَّقْنَاهُ مِن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي

الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا . . . ﴾

(١) حديث القشيري في (السُّكْرُ) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بعثه الخلق) (١) واستبدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حججهم ، فمن تبع هُداة رَشِيدًا ، ومن أصرَّ على غيِّه تردَّى في مهوأة هلاكة .

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقرّوا به في الابتداء أن الله خلَقهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أن نقلهم من حال شبابهم إلى زمان شبَّههم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتج أيضًا عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — في حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة . والذي يقدر على هذه الأشياء يقدر على خلق الحياة في الرِّمة البالية والعظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعي للحفظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان المشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعرُّج في (أوطان) (٢) المنذلة .

ويقال أرذل العمر العشرة مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عَيْش) (٣) المرء بحيث لا يعرف قدره .

ويقال أرذل العمر بأن يُوكل إلى نفسه .

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاق إلى تدبير النَّفس ، والعنى عن شهود تقدير الحق .

(١) هكذا في م أما في ص فهي (بشهم الحق) ورجح الأولى إذ الذي استبدوه أن يعث الله واحداً من الخلق .

(٢) هكذا في م وهي غير موجودة في ص .

(٣) في م (عَيْش) المرء وفي ص (حيس) المرء . وقد رجحنا (عَيْش) على معنى أن الله يمنحه من

العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكُمْ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَبِّرُ

الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الله هو الحقُّ ، والحقُّ المطلق الوجود^(١) ، وهو الحقُّ أى ذو الحق .

« وَأَنَّهُ يُخَبِّرُ الْمَوْتَى » أى الأرض التى أصابتها وَحْشَةُ الشَّيْءِ^(٢) بِحَيْثُهَا وَقْتَ الرَّبِيعِ .

ويقال يخبر النفوس بتوفيق العبادات ، ويخبر القلوب بأنوار المشاهدات .

ويقال يخبر أحوال المرئيين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأوقات بمواقفة الأمر ، ثم بحملي الرضا وسكون الجأش عند جريان التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾

دليل الخطاب يقتضى جواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة

ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيه : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ

مَذْهَبَ الْخُصْمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَةِ لَمْ يُمْكِنْهُ الْإِنْفِصَالُ عَنْ شُبُهَتِهِ ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ قُوَّةُ

الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَجَادِلَ الْأَقْوِيَاءَ^(٣) مِنْهُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ تَعَلُّمِ عِلْمِ

الْأَصُولِ^(٤) ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للقشيري ، ونحن نمتطها

أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يمتدرون الوجود المطلق للحق

وما عدا فوجوده نسبي متكرر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ونظن

أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « فتعالى الله الملك الحق »

من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التعبير فى التذكير » .

(٢) هكذا فى م ولكنها فى ص (الشقاء) بالوقف ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقابلة بين الربيع

و (الشتاء) .

(٣) هكذا فى م ولكنها فى ص (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيها بعبء رد على من ينهون الصوفية بمخافتهم للعلم ، وعدم احترامهم للعلم ، كما أن فيه

رداً على قضية أنارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم الإسلام أصول التوحيد كي يصبح

إيمانه ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له في الدنيا خزي ونُدْبَةٌ يوم

القيامة عذاب الحريق ❀

يريد أنه متكبر عن قبول الحق ، زاهد في التحصيل ، غير واضع نظره موضعه ؛ إذ لو فعل ذلك لكان عليه التخلص من شُبُهته .

ثم قال : « له في الدنيا خزي » أي منلة وهوان ، وفي الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ❀ ومن الناس من يعبد الله على حرف

فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن

أصابته فتنة اتقلب على وجهه خسير

الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران

المبين ❀

يعنى يكون على جانب غير مخلص . . . لاله استجابة توجب الوفاق ، ولا جحداً يبين الشقاق ؛ فإن أصابه أمنٌ وخير ولين اطمأن به وسكن إليه ، وإن أصابته فتنة أو نالته محنة ارتد على عقبيه ناكسا ، وصار لما أظهر من وفاقه عاكسا . ومن كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين ، وأخفق في المترتين !

قوله جل ذكره : ❀ يدعو من دون الله مالا يضره

وما لا ينفعه ذلك هو الضلال

البعيد * يدعو لمن ضره أقرب

من نفعه لبئس المولى ولبئس

العشير ❀

أى يعبد من المضرّة في عبادته أكثر من النفع منه ، بل ليس في عبادته النفع بحال ، فالضرُّ المتيقن في عبادتهم الأصنام هو بيان ركافة عقولهم ، ورؤية الناس خطأ فعلهم . والنفع الذى يشوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبس المولى ولبس العشير » : أى لبس الناصر الصمّ لهم ، ولبس القوم هم للصم ، ولم لا . ؟ ولأجله وقعوا في عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صدّقوا ثم حقّقوا ؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انتسام) (١) الحق في السرّ .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففي الحال يجب الإيمان وفي المآل يوجب الأمان ، فمَجَلُّ الإيمان من (. . .) (٢) المسلمين ، ومؤجّله الخلاص من صحبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تعلق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمن فيها مؤجلة وممثلة ؛ فالمؤجلة ثواب وتوبة ، والممثلة أحوال وقربة ، قال تعالى : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ

إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ

يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِیظُ ﴾

أى أن الحقّ — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم تطب

(١) في م (إبتسام) وفي ص (انتسام) ، ونحن نفضل هذه على تلك على أنها صيغة (انفعال) من (تسم) فلان العلم أو الخبر أى تطف في التماسه حتى تبينه وتبّه .

(٢) في م (سيف) وفي ص (سلف) ونحن نوثر الأولى إذ أن الذى يؤمن يأمن — في الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً في سبيل إعلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرد به فليقتل نفسه من الغيظ خنقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إن كنت لا ترضى بما قد ترى فدونك الحبل به فأخنق

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وأن الله يهدي من يريد ﴾

« آيات بينات » : أى دلالات وعلامات نصّبها الحق سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهوقضية العقل ، ومنها ماهوقضية الخبر والنقل ، ومنها ماهو تعريفات فى أوقات المعاملات (١) فإيجده العبد فى حالاته من انغلاق ، واشتداد قبض ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لاشك ولا ثمرية إذا أحلّ بواجب أو ألمّ بمحذور (٢) . أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسير من الأمور ، أو تجديد إنعام عند حصول شىء من طاعاته . ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطاب الحق ومحادثة معه ، كما فى الخبر : « لقد كان فى الأمم محدثون فإن يك فى أمتى فعمر » (٣) ثم يقال الآيات ظاهرة ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فىمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولئ والعدو ، والموحد والجاحد يجمعون يوم الحشر ، ثم الحق - سبحانه - يعامل كلاً بما وعدّه ، إما بوصول بلامدى ، أو بأحوال

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوفي) ومنها يتضح اهتمام القشيري بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من الرفان نتيجة المجاهدات .
(٢) فإن الائم ما حاك فى صندوق . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٣) وهى التى يطلق عليها القشيري (القراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقتُ واحدٌ ؛ وكلُّ واحدٍ لما أُعيدَ له وافدٌ ، وعلى ما خُلِقَ له واردٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالدُّبَابُ ۗ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ

حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَمُنْ بِاللَّهِ فَآلَهُ

مِنْ مُكْرِمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۗ ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلِّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ

دلالة وشهادة .

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۗ ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليوم لباسُ الشركِ وطرازُه الحرمان ، ثم صدر الإفك وطرازُه

الخلدان . وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازُه المهجران ، قال تعالى : « اخسئوا فيها

ولا تكلمون » .

أما أصحابُ الإيمانِ فلباسُهُم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتنابِ الشركِ ثم مجانبةِ

المخالفة ، ثم مبينةِ العقلة ، ثم مجانبةِ السكونِ إلى غيرِ الله والاستبشارِ إلى ما سوى الله .

وفي الآخرة لباسُهُم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسُهُم صدر الحبة ، وآخرون لباسُهُم الانفراد به ،

وآخرون هم أصحابُ التجريد ؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَبَاءُ (١) ، وهم

الطبقة العُلَيَا ، وهم أحرار من رِقِّ كلِّ ما لحقهُ التسكُون .

(١) يقول ابن الجلاء في تعريف الصوفى : فقير مجرد عن الأسباب ، كان مع الله بلا مكان ، ولا يمنة الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١٤٠) ويقول الحصري : « الصوفى لا تنقله أرض ولا نظلة سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأنهارُ يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ

ذَهَبٍ وَلؤلؤًا ولباسهم فيها حريرٌ ﴾

التحلية لمخصين لهم ، وسترٌ لأحوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وَإِذَا الدَّرُّ زَانَ حَسَنَ وَجْوهٍ كَانَ للدَّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زَيْنًا

قوله جل ذكره: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ

وهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾

الطيبُ من القولِ ما صدرَ عن قلبٍ خالصٍ ، وسِرٌّ صافٍ (مما رَضِيَ بِهِ علم التوحيد ،

فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول) (١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظماً للمسترشدين ، ويقال الطيبُ من القول هو

إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ وَيُرْجَى (٢) .

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مقفوراً (٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ .

(١) هكذا في ص ولا فرق بين العبارة في ص ، م إلا أنها جاءت في الأخيرة (بما رضى به . . .) والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغي ألا تتعارض مع أقوال أرباب الأصول التوحيدية لأن الحقيقة لا تتعارض

الشريعة في شيء . فالضهير (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر الصافي .
(٢) أي عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة في مواجهة اصحاب الأمر والنهي من الحكام وغيرهم .

(٣) هكذا في ص اما في م فهي (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى ان قوله مسوح به — ظاهرياً — حيث لا يستشع في الباطن ، وعلى الثاني : أي يكون قائله في حال الفقد فهو لا ينطق بنفسه بل بآلة .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد يرى من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » (١) .

ويقال أن تدعو للمسلمين بما لا يكون لك فيه نصيب .

وأما « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى المسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنِ

سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْجَدِ بِظُلْمٍ
نُدِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، ويفضَّب المال الذي لوبق في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادي (٢) » وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوى فيه الإقدام ، فمن وصل إلى تلك العقوة فلا ترتيب ولا رد ، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد ، أما في الطريق فرما يعتبر التقدم والتأخر ، قال تعالى : « ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (٣) ولكن في الوصول فلا تفاوت ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوس فالوضع الواحد يجمعهم ، ولكن لكل حال ينفرد بها .

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

(٢) البادي = غير المقيم .

(٣) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ
 أَلَّا تَشْرِكَ بِى شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي
 لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
 السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكان البيت ومسكنه منه ؛ وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعنته عليه ،
 وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم
 عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « أَلَّا تَشْرِكَ بِى شَيْئًا » ، أى لا تلاحظ
 البيت ولا بِناءك له .

« وطهر بيتي . . . » يعنى الكعبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فرغ
 قلبك عن الأشياء كلها سوى ذكره - سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فرغ لى بيتاً أسكنه ، فقال ذلك
 الرسول : إلهي . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن . والمراد
 منه ذكر الله تعالى ؛ فالإشارة فيه أن يفرغ قلبه لذكر الله . وتفريغ القلب على أقسام :
 أوله من الغفلة ثم من توهم شئ من الحدثنان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصون القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة
 على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتي » : أى قلبك عن التطلع والاختيار ؛ بالأى يكون لك عند الله حظ
 فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكامل قيامك بمقتضى العبودية .

« ويقال طهر بيتى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلع إكرام ،
 أو تطكّب إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طهر قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين »
 وهى الأشياء المقيمة من مستودعات (١) العرفان فى القلب من الأمور الغيبية عن البرهان ،

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (مستوطنات) .

ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر : « كأنك تراه » . (١)
 « والرُكع السجود » : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاء والخفاة ،
 والقبض والبسط ، وفي معناه أشدوا :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلبَ بيته والمقاما
 وطوافي إجمالة السرِّ فيه وهو ركني إذا أردتُ استلاما

قوله : « لا تُشرك بي شيئاً » : لا تلاحظ البيتَ ولا بُنْيَاءَكَ (٢) للبيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربِّ البيت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّبَ رَجَالاً ﴾

وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كلِّ
 فجٍّ عميقٍ ﴿

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع الله نداءه جميع الذرية في أصلاب
 آبائهم ، فاستجاب من المعلوم من حاله أنه يجيب .

وقدم الرجال على الركبان لأنَّ الحملَ على المراكب أكثر (٣) .

ولذلك الجمال على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحاب ، وفي قريب من معناه أشدوا :

وإنَّ جمالاً قد علاها جمالكم — وإن قطعت أبادنا — لحباب

ويقال « يأتين من كل فج عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قدر مسافة الدنيا بجمالها ! ؟ ولكن لأجل قدر أفعالهم وتعمير صنيعهم يقول ذلك
 إظهاراً لفضله وكرمه .

(١) إشارة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموتى) .
 الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن السيوطي سنده ، ورواه البيهقي عن معاذ . وفي الحلية (أعبد الله
 كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا في م أما في ص فقد وردت (ولا تبالي) ونحن نرجح ما جاء في م .

(٣) فتقديم الرجال فيه تخصيص نظراً لما يبذلونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره: ﴿لِيَشْكُرُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

أرباب الأموال منافعهم أموالهم ، وأرباب الأعمال منافعهم حلاوة طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاته أنفسهم ، وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار الحق ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ^(١)﴾

على مآزر ذقتهم من بهيمة الأنعام ﴿

لأقوامٍ عند التقرب بقرايينهم وسوق هديهم^(٢) . وآخرون يذكرون اسمه عند ذبحهم أمانتهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بمحور ما سوى الله .

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ

الفقير﴾ .

شآركوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم - الذى ليس بواجب - لنلحقكم بركات الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا^(٣) ساحة الخضوع والتواضع ، ومجانبة الزهو والتكبر .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فمن كان عقده التوبة فوفأؤه ألا يرجع إلى العصيان . ومن كان عقده اعتناق الطاعة فشرط وفأؤه ترك تصديره . ومن كان عقده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام فوفأؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت ، وقلبه في ملكوت السماء ، ويسيره في ساحات الملكوت .

(١) أبو حنيفة: هي عشر ذى الحجة وآخرها يوم النحر . وأكثر المفسرين: هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدى إلى الحرم من النعم ، قال تعالى: « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) هكنا في م وفي س (يتركوا) وربما كانت في الأصل ألا يتركوا فهكنا يقتضى السياق .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ
فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

تعظيم الحرمات (١) بتعظيم أمره، وتعظيم أمره بترك مخالفته .

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه ،
ولا محالة سيلقى سرباً غيماً (٢) .

ويقال تعظيم حرمانه بالغيرة على إيمانه (وما فجرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط (٣)) .

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجب الفرقة .

ويقال كلُّ شئٍ من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق ، وترك الحرمة على
خَطَرٍ أَلَا يُعْفَرُ . . . وذلك بأن يؤدى ثبوته بصاحبه إلى أن يختلَّ دينه وتوحيده .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَحْبَبْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى
عَلَيْكُمْ﴾

فالخنزير من جملة المحرمات ، وكذلك النطيحة والموقوذة ، وما يجيء تفصيله
فى نصِّ الشرع .

قوله جل ذكره: ﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

«من» ها هنا للجنس لا للتبويض ، وهوى كلِّ من اتبعه معبوده ، وضمُّ كلِّ أحدٍ نفسه .

« واجتنبوا قول الزور » : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قول القلب
ونطقه ، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره: ﴿حُنْفَاءُ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ

(١) هكذا فى م وفى ص (الجهات) وترجح الأول حيث وردت فى الآية .

(٢) هكذا فى م وفى ص (نجبه) وترجح (غبه) بمعنى عاقبته .

(٣) هكذا فى م وفى ص (وما فجرَ صاحبُ ظلمة فظ) والعبارة الأولى أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَأَمَّا خِرٌّ مِنْ
السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ هَوَىٰ بِهِ
الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١﴾ .

الحنيف المائل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس ، في الجهر وفي السر ،
في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال .

« غير مشركين به » : الشُّرْكُ جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ (١) .

قوله « ومن يشرك بالله فكأما خيراً .. كيف لا .. وهو يهوى في جهنم وتمتجأ به ملائكة
العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى :
« نسوا الله فانساهم » (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سرّاً .
وكما لا تجوز مخالفة شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإن خاطر الحق لا يكذب ،
وعزيز من له عليه وقوف . وكما أن النفس لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف
القلب عمي للمستقبل ، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة ، والعبارة (٣) والشرح يتقاصران
عن ذكر هذا على التعيين والتفسير . ويقوى القلب بتحقيق المنازلة ، فإذا خرست النفوس ،
وزالت هواجسها ، فالقلوب تنطق بما تكشفت به من الأمور .

ومن الفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم
صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم من جرى عليه

(١) الشرك الجلي معروف أما الشرك الخفي فهو أن ينازعه منازع في قلبك من هوى أو حظ أو علاقة
تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) في م و ص (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) براء أي أن التعبير عن ذلك بالسلامة
والشرح قاصر .

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجزى عليه ما يجزى مضطراً إلى ما يجزى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار^(١) ، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى نَّمَّ مَحَلِّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

لكل من تلك الجملة منفعة بقدره وحده^(٢) ؛ فلا تقوم بركات في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين في لذات بسطهم ، ولآخرين في حلاوة طاعتهم ، ولآخرين في أنس أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ﴾ .

الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقوم هم أصحاب التضعيف^(٣) فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقوم هم أصحاب التخفيف فيما أزموا وفيما وعد لهم . قوله ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ . . . ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام : منها معرفتهم بإنعام الله بذلك عليهم . . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ما رزقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يشبههم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْمِتِينَ ﴾ .

أى أسلموا لحكمه بلا تعيس ولا استكراه من داخل القلب .

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفي فيما يشغل المتكلمين عن الجبر والاختيار .

(٢) أى بحسب ماله من قدر وهمة ، وما هو واقف عنده من حد ورتبة .

(٣) أصحاب التضعيف أى أصحاب التشدد الذين يابون اتباع الرخص ، لأن الرخص لا تكون إلا لأرباب

الخوائج والأثمغال وهؤلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام^(١) يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من السكدرات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفس . « وبشّرُ المحبتين » : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومن أمارات الإخبات كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

الوجلُّ الخوفُ من المحافة ، والوجلُّ عند الذكر على أقسام : إما لخوف عقوبة ستحصل أو لمحافة عاقبة بالسوء تختم ، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعدادٍ للموت ، أو لإصلاح أهبة ، أو حينئذٍ من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذكرَ اطلاعه — سبحانه — عليها لما بدرت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوجلُّ على حسب تعجلى الحق للقلب ؛ فإن القلوب في حال المطالعة والتعجلى تكون بوصف الوجل والهيبية .

ويقال وجلُّ له سبب ووجل بلا سبب ؛ فالأول محافة من تقصير ، والثاني معدودٌ في جملة الهيبية^(٢) .

ويقال الوجلُّ خوفُ المسكر والاستدراج ، وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ .

أى خاملين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا تمنى خرجية ، ولا زوم فرجة بل يستسلم طوعاً :

(١) هكذا في م ولكنها في ص (السلام) والصواب الأولى في الآية (أسدوا) .
(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبية ، والترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ثم الهيبية والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم ، أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلّبون السأوة باطلاع الخلق^(١) على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف فى محلّ النجوى :
إذا ما تمّئى الناسُ رَوْحاً وراحةً تَمْنَيْتُ أَنْ أَشْكُوَ إِلَيْكَ فَتَسْمَعَا

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازاة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ، فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبهم على التسليم والحدود تحت جريان الاحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ والبدن جمعناها لكم من شعائر

الله لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم الله
عليها صواف فاذا وجعت جنوبها
فسكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر
كذلك سنخزناها لكم لعلكم
تشكرون ﴾ .

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بخليقتها كيف سخرت للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان فى البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)^(٢) وصبرها على العطش فى الأسفار ، وعلى قليل العلف ، ثم مافى طبيعتها من لطف الطبع ، وحيث تستريح بالهداء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

(١) هكذا فى ص ولكنها فى م (باطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يفرعون للخلق طلباً للسوة فيما يصيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من ص .

« فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » : أى سقطت على وجه الأرض في حال النحر فاطعموا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمُعْتَرِّ الذى هو في تحمّله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لأعبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة ، أو مالية صرفة ، أو بما له تعلق بالوجهين ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص^(١) ، فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاص القصد ، وتجردت عن ملاحظة أصحابها للأغيار صلحت للقبول^(٢) .

ويقال التقوى شهود الحق بنعت التفرّد ؛ فلا يُشَابُّ تقربك بملاحظة أحد ، ولا تأخذ عوضاً على عملٍ من بشرٍ .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما في الخير : « أن تعبد الله كأنك تراه . . . » .
وأمانة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه ، فلا يستقل شيئاً ، ولا يتبرم بشيء .
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

(١) يقال إن سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحرروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .

(٢) يرى القشيري أن هذا جوهر العبادات جميعاً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيري المفسر .

انظر كتابنا (الإمام القشيري ومذهبه في التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان ، وعن قلوبهم خطرات العصيان ، وعن أرواحهم طوارق النسيان .

والخيانةُ على أقسام : خيانةُ في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية ، وخيانة في الأعمال ، وخيانة في الأحوال ؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرؤها الإعجاب ، ثم المساكنة وأخفاها الملاحظة^(١) .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على) ^(٢) طلب الأعراف ليجدوا في الآخرة حُسْنَ المسأل . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لآل الله ولكن لوجود العوض على تركهم ذلك من قبل الله .

وخيانة العابدين أن يدعوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرخص ، فلو صدقوا في مرماهم كما انحطوا إلى الرخص بعد ترقبهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرجة^(٣) مما يسهم من برحاء المواجهيد ، وابتغاء خرجة مما يشتد عليهم^(٤) من استيلاء صد ، أو غلبات شوق ، أو تمادى أيام هجر .

وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عرق ، ورجوعهم — بعد امتحانهم عنهم — إلى شظية من أحكام الفرق ، اللهم إلا أن يكون ذلك منهم موجوداً ، وهم عنه مفقودون^(٥) .

(١) نلت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصوفي ، خاصة وإن القشيري لم يشكلم عن ذلك في رسالته .

(٢) (على) طلب الأعراف معناها لأجل طلب الأعراف .

(٣) (روم) في ص و (روح) في م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل القشيري (فرجة ، وخرجة) في سياق مماثل .

(٤) هكذا في م وهي في ص مما (يشق عليهم) وكلاهما مقبول في السياق .

(٥) معنى هذا أن القشيري يسلم بأنه قد يحدث من العبد الواله ما ينبغي أن يندر فيه ، إن صحَّ صدقه في التوجه ، واشتد وقع المحو عليه .

قوله جل ذكره: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَكُونُوا ظَالِمِينَ لِمَنْ ظَلَمُوا﴾^(١)
 وإنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١٠﴾

إذا أصابهم ضرٌّ أو مسَّهم — ما هو في الظاهر — ذلٌّ من الأعداء يجري عليهم
 ضيمٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقمُ من أعدائهم
 لأجلهم ، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال ، وتفصيلُ الأقدارِ جاريةٌ
 باستتصالٍ من يناوهم ، وبإحالة الدائرة على أعدائهم . وفي بعض الأحيان ينصبهم الحقُّ سبحانه
 بنعت الغائبةِ والتسكينِ من نزولهم بساحاتٍ من يناوهم بحسنِ الظَّفرِ ، وتعامٍ حصولِ
 الدائرة على من ناصبهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرةِ من الله
 — سبحانه — حاصلةٌ ، واللهُ — في الجملة — غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغيرِ حقٍّ
 إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٢)

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدٌ
 العقيبي ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظاهروا »^(١) .
 وقد يجري من النَّفسِ وهواجِيسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهلِ القصةِ — ظلمٌ ،
 ويحصلُ لسكَّانِ القلوبِ من الأحوالِ الصافيةِ عنها جلاءٌ ، وتستولى غَاةُ النَّفسِ ، فتعمل
 في القلوبِ بالفسادِ بسببِ استيطانِ الغفلةِ حتى تنداعى القلوبُ للخرابِ من^(٢) طوارقِ الحقائق
 وشوارقِ الأحوالِ ، كما قال قائمهم :

أنى إليك قلوباً طالما مَطَلَتْ سحائبُ الجودِ فيها أبجرُ الحكمِ

فِيهِزُمُ الْحَقُّ — سبحانه — بجنودِ الإقبالِ أراذِلِ الهواجِسِ ، وينعبرُ عَسْكَرُ التَّحْقِيقِ
 بأمدادِ الكشوفاتِ . وَيَتَجَدَّدُ دَارِسُ الْعَهْدِ ، وتطلُعُ شمسُ السَّعْدِ في ليالىِ السَّترِ ،
 وتُكْسَسُ القلوبُ وتنظهرُ من آثارِ ظُلمَةِ النَّفسِ ، كما قيل :

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) (للخراب من طوارق الحقائق) أى بسبب خلوها من طوارق الحقائق .

أَطْلَالُ سَعْدَى بِاللَّوَى تَتَجَدَّدُ

فاذا هبت على تلك القلوب رياحُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صوب^(١) التجلي ، وأنبت فيها أزهارَ البسط فيتضح فيها نهارُ الوصل ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شمس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يتجاوز عن الأصغر لِقَدْرِ الأكبر ، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام .. وتلك سنة أجراها الله لاستنقاء^(٢) منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لسنته ، ولا تبديل لكريم عادته .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَثْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

إذا طالت بهم المدة ، وساعدتهم العمر لم يستفرغوا أعمالهم في استجلاب حظوظهم ، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطالبتهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ : في الظاهر ، واستداموا المواصلات في الباطن .

(١) الصوب = المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي (الوسيط) .

(٢) هكذا في م ولسكنها في س (لاستيفاء) . وقد آثرنا (استنقاء) للملاءمتها (لاستصفاء) التي بعدها ولا نستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) في الأصل على معنى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت منازل العبادة ؛ لأن الكافرين إذا انتصروا لم يتركوا معابد .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فَتَعَلَّمَ - بين يدي الله - مَنْ أَنْتَ ، وَمَنْ تَنَاجَى ،
وَمَنْ الرقيب عليك ، ومن الرقيب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأهنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ، وفقراؤهم يُؤْتُونَ
زكاة أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خمسة للقراء والباقي لهم ، وزكاة الأحوال أن
يكون من مائتي نَفْسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نَفْسٍ - من
المائتين - لَكَ . . . وذلك أيضاً عِلَّةٌ (١) .

قوله « وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر » : يتبدؤون في الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر بأنفسهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا في ذلك لم يفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .
ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه
إجلالا لِقَدْرِهِ .

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك ، ثم إذا فرغت من ذلك تأخذ في نهيها عن المنكر .
ومن وجوه المنكر الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ * وَقَوْمُ
إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ
مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ
لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَنَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرٌ ﴾ .

في الآيات تسليمة للنبي - صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حتمٌ عليه بالصبر على مقاساة
ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء (٢) .

(١) لأنه ينبغي ألا تكون لك في نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكلابتك للعق .

(٢) أسواء = جمع سيء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

وهي ظالمةٌ فهي خالويةٌ على

عُرُوشِهَا ﴾ .

الظلمُ يوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فنخرب أولاً أوطان راحةِ الظالم وهو قلبه ، فالوحشةُ التي هي غالبيةُ على الظلمةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوءِ أخلاقهم ، وفِرْطِ غيظٍ من يظلمون عليهم . لكل ذلك من خرابِ أوطانِ راحاتهم ، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظلمةِ ربما يتأخر وربما يتمجّل . وخرابُ نفوسهم في تعطيلها عن العباداتِ لِشُؤْمِ ظلمهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاءِ الغفلةِ عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوانِ خلواتهم . . . تقدُّ (١) غير مستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ .

الإشارةُ في «بُرِّ معطلة» : إلى العيون المنفجرة التي كانت في بواطنهم ، وكانوا يستيقنون منها ، وفي ذلك الاستثناء حياةُ أوقاتهم من غلبات الإرادة وقوةِ المواجيد ، فإذا اتصفوا بظلمهم فَلَبَّ غُشَاؤُهَا (٢) وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارةُ في « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبةِ والأنس ، وخبو أرواحهم من أنوارِ المحابِّ ، وسلطانِ الاشتياق ، وصنوفِ المواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ جُنُودٍ يُدْعَى إِلَيْهِمْ

مِنْ جَانِبِ الذِّكْرِ فَسَوْفَ يَدْعُونَ إِلَيْهِمْ مِنْ جَانِبِ

الذِّكْرِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴿١﴾

فَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَمْ يَفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

فَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَمْ يَفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

فَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَمْ يَفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

(١) (تقد) هنا معناها مُعْجَلٌ ، تقابل (وعقد) في المؤجّل .

(٢) الغُشَاءُ = الفاسد من الماء ، المتلىء ببقايا الأشياء من وجه الأرض والرغبة القذرة .

كانت لهم قلوبٌ من حيث الخلقة ، فمأزابلتها صفاتها المحمودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصمم ، وإذا صحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صحَّ وصفه بسائر صفات الحى من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدركُ نسيمُ الأقبالِ بِمَشَامِ السُّرِّ ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفسَ ربكم من قِبَلِ البينِ » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام :
 « إني لأجد ريحَ يوسف »^(١) وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهُمْ على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »^(٢) ولو آمنوا لصدقوا ، ولو صدقوا لآسكنوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أى إنَّ الأيامَ عنده تتسارى ، إذ لا استعجال له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد ، وألف سنة ؛ إذ مَنْ لا يُجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فسواء عليه وجودُ الزمانِ ، وعدم الزمانِ وقلة الزمانِ وكثرةُ الزمانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَسَاءَ لِلَّذِينَ أُخْلِفُوا فِيهَا وَابْنٌ مُنْقَرِبٌ إِلَى الْمُصِيرِ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والامهال يكون بآنٍ يَدَعُ الظالمَ في ظلمه حيناً ، ويوسع له الحبلَ^(٣) ، ويطيل به المهل ، فيتمهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذى

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (الحبل) بالياء جمع حيلة ، وربما تتأيد هذه بقوله فيما بعد (وكيف يستبقى بالحيلة ما حق في التقدير عدمه) .

أرادهُ ، ثم يأخذهُ من حيث لا يَرْتَقِبُ ، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينهُ ، وكيف يستبقى بالخيلة
ما حق في التقدير عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ :

أُشَاهِبُكُمْ فِي الصُّورَةِ وَلَكِنِّي أَبَايُنُكُمْ مِنْ حَيْثُ السَّرِيرَةِ ، وَأَنَا لِمُحْسِنِيكُمْ بِشِيرٍ ،
وَلِمُسِيئِيكُمْ نَذِيرٌ ، وَقَدْ آيَدْتُ بِإِقَامَةِ الْبِرَاهِينِ مَا حِجَّتْكُمْ بِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَمْرِ
بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

الناس — في المغفرة — على أقسام : فمنهم من يستر^(١) عليه زلته ، ومنهم من يستر
عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لثلاثتصيه من الشهرة
فتنة^(٢) ، وفي معناه قالوا :

لَا تُنْفِكِرْنَ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجُحُودُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبَلٌ
ومنهم من يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ فِي الْكُتُبِ : « أَوْلِيَائِي فِي قُبَائِي ، لَا يَشْهَدُ
أَوْلِيَائِي غَيْرِي » .

« وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ » مَا يَكُونُ مِنْ وَجْهِ الْحَلَالِ . وَيَقَالُ مَا يَكُونُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ الْعَبْدُ .

ويقال هو الذي يبدو — من غير ارتقابٍ — على رِفقٍ في وقت الحاجة إليه .
ويقال هو ما يَحْمَلُ الْمُرْزُوقَ عَلَى صَرْفِهِ فِي وَجْهِ الْقُرْبَةِ . وَيَقَالُ مَا فِيهِ الْبِرْكَةُ .
ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب^(٣) ، ولا يتقلد منه مخلوق .

(١) لأن تفسر معناها في اللغة ستر .

(٢) وهذه إحدى الأفكار التي نشط أصحاب الملاحة في العمل بها ، وحث أتباعهم عليها .

(٣) (الذي ينال من غير تعب) هنا معناها من غير استعجال ، ومن غير يميل عن التفويض والتوكل ،
ومن غير اعتماد على مخلوق . ونحو ذلك مما قد يهدم صرح الاستسلام الكامل للرازق الوهاب سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

في الحال في معجزة الوحش و انسداد أبواب الرشد ، وتنص العيش ، والابتلاء بمن
لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الاجرام .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ،
ونبيئنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتوسيلٌ (من التضييل) ^(١) . وكان لنبيئنا — صلى الله عليه
وسلم — سكتاتٌ في خلال قراءة القرآن عند اقضاء الآيات ، فيتلفظ الشيطان ببعض
الألفاظ ^(٢) ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه كان من ألفاظ الرسول — عليه الصلاة والسلام
وصار فتنةً لقوم . .

(١) هكذا في ص ولكن في م وردت هكذا (وليس به شيء من التضييل) ونحسب ان هذا أكثر
ملازمة للسباق حسبا يتضح من الهامش التالي .

(٢) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة
الثالثة الأخرى) جرى على لسانه تلك الفرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترجي . فذبه جبريل لما لم يظن له ،
وحيث إن النبي معصوم من إجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من الغفلة ، ولأنه لا يؤتمن ان يجرى على
لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتعطيمها — فبرى بعض المفسرين ان الشيطان تكلم بهذه الكلمات —
وقد وقع ذلك يوم بار ويوم أحد — وتداخلت الكلمات في قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته —
كما نسبته القشيري .

أما — الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يضرهم^(١) ذلك .
 قوله جل ذكرهم : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً
 لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ
 قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ
 بَعِيدٍ .

إذا أراد الله بعبد خيراً أهداه ، بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن
 البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يظلمه غمام الريب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير
 لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ
 لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ
 الَّذِينَ آمَنُوا
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِئَةٍ مِنْهُ
 حَتَّى
 تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 أَوْ يَأْتِيَهُمْ
 عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ * .

قوله جل ذكره : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
 فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * :

لم يتخصص ملكه — سبحانه — بيوم ، ولم تتحدد له وقية أمر ، ولا لجلاله
 قدر^(٢) ، ولكن الدعوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجوزيات تتلاشى^(٣) ؛
 فالمؤمنين وأهل الوفاق نعم ، واللكفار وأصحاب الشقاق نعم .

(١) ضبطناها هكذا ولا بأس — من حيث المعنى — ان تضبط (ولم يضرهم ذلك) فما حدث من
 الفتنة لم يُلحق بهم ضيراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .
 (٢) أى أنه يحل عن التحدد بزمان وقدر فهو المطلق الذى لا يتناهى .
 (٣) الدعوى والظنون والتجوزيات هى نهم النفس والمقل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا
أَوْ مَاتُوا لَبِزْتُمْ لَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَأِنَّ اللَّهَ لَهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبین .
« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا . . . » : للقلوب حلاوة العرفان ، وللأرواح حلة المحاب ، وللأسرار
دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
لِعَلْمِهِمْ حَلِيمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يَتَمَنَّوْنَهُ ، وإبقاء على الوصف الذي يَهْدُونَهُ . . ذلك في أو ان صيغهم لينالوا
لطائف الأنس على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البسط على أعلى أحوال السرور .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّقَ بِهِ
ثُمَّ بَقِيَ عَلَيْهِ لِيَتَضَرَّهَ اللَّهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
لِعَفْوِهِمْ غَفُورٌ ﴾ .

نَصْرُهُ — سبحانه — للأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتمائه بهم ، واستنصاله بكمال ، وإزهاقه
أعداءه بتمحيق جهلهم ، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتيال أو الاعتضاد بأشكال (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُرَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُرَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

(١) أي لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أي تدبير إنساني من جانبه ، بل يستقط تدبيره ، لأن النصر له من عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى ان يتمضد بأمثاله من المخلوقين فكفى الله له ناصرًا ومعينًا .

كما في أفقِ العالمِ لَيْلٌ ونهارٌ فكذلك للسرايرِ ليلٌ ونهارٌ ؛ فعند التجلي نهارٌ وعند
الستر ليلٌ ، ولليلِ السرِّ ونهاره زيادةٌ وتقصانٌ ، فبمقدارِ القبضِ ليلٌ وبمقدارِ البسطِ نهارٌ ،
ويزيدُ أحدهما على الآخرِ وينقصُ . . وهذا للعارفين . فأما المحققونَ فأهَمُّ الأُنسِ والهَيبةِ
مكانِ قبضِ قومٍ وبسطِهِم ، وذلك في حَالِي صحوهم ومحوهم ، ويزيدُ أحدهما وينقصُ ، ومنهم
من يدومُ نهارُهُ ولا يدخلُ عليه ليلٌ . . وذلك لأهلِ الأُنسِ فقط^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكْ بَأْنُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ،
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

إذا بدا علمٌ من الحقائقِ حَصَلَتْ بِمقداره شظيةٌ من الفناءِ لِمَنْ حَصَلَ لَهُ التجليُّ ، ثم يزيدُ
ظهورُ ما يبدو ويغلبُ ، وتتناقصُ آثارُ النفرةِ وتتلاشى ، قال : صلى الله عليه وسلم :
« إذا أقبلَ النهارُ من هاهنا أدبرَ الليلُ من هاهنا » فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ
بما دونَ الله فلا يشهدُ أولاً الأشياءَ إلا للحقِّ ، ثم لا يشهدُها إلا بالحقِّ ، ثم لا يشهدُ إلا الحقَّ . .
فلا إحساسَ له بغيرِ الحقِّ ، ومن جملة ما ينساه . . نَفْسُهُ وَالسُّكُونُ كله^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ
لَطَيْفٌ خَبِيرٌ ﴾

ماءُ السماءِ يجيئُ الأرضَ بعد موتها ، وماءُ الرحمةِ يجيئُ أحوالَ أهلِ الزَّوَالَةِ بعد تَرَكِهَا ،
وماءُ العنايةِ يجيئُ أحوالَ (. . .)^(٣) بعد زوالِ رونقها ، وماءُ الوصلةِ يجيئُ أهلَ القرينةِ
بعد نضوبها .

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يُفهمُ فيهاً دقيقاً إلا بطريقِ المقارنةِ المتعددةِ على مظاهرِ الطبيعةِ
كالليلِ والنهارِ والجبالِ والبحارِ والسحبِ . . . الخ .
وقد استغلَّ القشيريُّ — في ظلالِ القرآنِ الكريمِ — هذا الجانبَ .
(٢) تفيدُ هذه الفقرةُ في توضيحِ مراتبِ الشهودِ .
(٣) في م (الناس) وفي ص مكتوبةً هكذا (المقاليس) .

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

المَلِكُ لَهُ ، وهو عن الجميع غني ، فهو لا يستغني بِمُلْكِهِ ، بل مُلْكُهُ بصير موجوداً بِخَلْقِهِ
إياه ؛ إذ الممدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .

ويقال كما أنه (١) غنيُّ عن الأجنبي ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غنيُّ عن الأكبر
وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغنيُّ حميداً فعني ذلك أنه يُعْطَى حتى يُشْكِر .

ويقال الغنيُّ الحميد المستحقُّ للحمد : أعطى أو لم يُعطِ ؛ فَإِنَّ أَعْطَى استحقَّ الحمد الذي
هو الشكر ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِ استحقَّ الحمد الذي هو المدح (٢) .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

أراد به تسخير الانتفاع بها ؛ فما لِلخَلْقِ (٣) به انتفاع وميسر له في الاستمتاع به فهو
كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرَاعَى فيه الإذن ؛ فَمَنْ أَسْتَمَعَ بشيء على وجه الإباحة
والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ ، وَمَنْ كَانَ بالعكس فسكرٌ واستدراج .

وأما السفينة .. فإلهامُ العبد بصنمها ووجه الانتفاع بها ؛ بِالْحُلِّ فيها وركوبها فَمِنْ أَعْظَمِ إحسان
الله وإرفاقه بالعبد ، ثم ما يحصل بها من قَطْعِ المسافات البعيدة ، والتوصل بها إلى المضارب

(١) هكذا في م وهي في ص (أنت) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٢) لأجل هذا نقول في صلاتنا : « الحمد لله رب العالمين » أي نشكرك في السراء ، ونمدحك في الفراء

فالحمد أهم والشكر أو المدح أخس .

(٣) وردت هكذا في م وهي في ص (للحق) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

النائية ، والتمكن من وجوه الانتفاع في ذلك أعظم نعمة ، وأكبر عافية .

وجعل الأرض للخلق قراراً من غير أن تئبد ، وجعل السماء بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام ، ثم هي زينة السماء — وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثلج الصدر وبرد اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَافُورٌ ﴾

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة ، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصر له ولا عدد ، وفي معناه أنشدوا .

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

ويقال يُحْيِي الآمال بإشهاد تفضله ، ثم يميتها بالاطلاع على تعزُّزه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأما الأفاضل فحياتهم مسرمة وانتعاشهم مؤبد . وأنى يحيا غيره وفي وجوده — سبحانه — غنية وخلف عن كل فائت (١) ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لَسْكَرٌ أُمَّةٌ جَعَلْنَا مِنْكُمْ كَأْسَهُمْ نَاسِكُوا

فَلَا يَنْزَعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذِعٌ إِلَى

رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴾

جَعَلَ لَسْكَرٌ فَرِيقٍ شَرِيعَةً هُمْ وَارِدُوهَا ، وَلَسْكَرٌ جَمَاعَةٌ طَرِيقَةً هُمْ سَالِكُوهَا .

وجعل لسكر مقام سُكَّانِهِ ، وَلَسْكَرٌ مَحَلٌّ قُطَّانُهُ ، فقد ربط كلاً بما هو أهل له ، وأوصل كلاً إلى ما جعله محللاً له ، فبسطا التَّعَبُّدِ موطوءاً بأقدام العابدين ، ومشاهد الاجتهاد معمورة بأصحاب التكلف من المجتهدين ، ومجالس أصحاب المعارف مأنوسة بلزوم العارفين ، ومنازل المحبين مأهولة بحضور الواجدين .

(١) هكذا في النسخين ، ونحن لا نستبعد أن تكون في الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المعروف أو بالمعنى الصوفي فإنها منسجمة مع السياق ، ولأن التشبُّر يستعمل هذا الأسلوب كثيراً ؛ فكفى به خلقاً لك عند فناءك عنك .

قوله : « فلا ينازعنك في الأمر الأمر ... » إشهد تصاريف الأقدار ، وأعمل بموجب التكليف ، وانتِه دون ما أُذنت له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ جَادَلوك فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بما تعملون ﴾

كَلِمَتُهُمُ إِلَيْنَا عِنْدَمَا رَامُوا مِنَ الْجِدَالِ ، وَلَا تَتَكَلَّ عَلَى مَا تَخْتَارُهُ مِنَ الْاِحْتِيَالِ ، وَاحْذَرِ جَنُوحَ قَلْبِكَ إِلَى الْاِسْتِمَانَةِ بِالْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ ، فَإِنَّهُمْ قَوْلُ الْبُخَاوِيَةِ ، وَأَشْبَاحُ عَنِ الْمَعَانِي خَالِيَةِ .
قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أَمَّا الْأَجَابُ فَيَقُولُ لَمْ : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١) ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَعَوْمٌ مِنْهُمْ يَحْاسِبُهُمْ حَسَابًا يَسِيرًا ، وَأَقْوَامٌ مَخْصُوصُونَ يَقُولُ لَمْ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ حَسَابٌ ؛ فَلَا جَبْرِيْلَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا نَبِيَّ مُرْسَلٌ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ .
« اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُ عَنْ أَعْمَالِهِ جَمِيعَ خَصْمَانِهِ ، وَيَأْمُرُ بِإِرْضَاءِ جَمِيعِ غُرْمَانِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهُ يَعْلَمُ ما فى السماء والأرضِ إِنَّ ذَلكَ فى كتابٍ إِنَّ ذَلكَ على اللهِ يسيرٌ »

يَعْلَمُ السِّرَّ وَالتَّجْوِيَّ ، وَمَا تَسْكُونُ حَاجَةُ الْعَبْدِ لَهُ أَمْسٌ وَأَقْوَى ، وَبِكُلِّ وَجْهِ هُوَ بِالْعَبْدِ أَوْلَى ، وَهَلْ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ التَّمَعُّى ، وَيَزِيلَ عَنْهُ الْبَلْوَى ، وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ الشُّكْوَى ، فَهَلْ الْحُكْمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علمٌ وما للظالمين من نصير ﴾

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أن مَنْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ خَوَاصِّهِ أُفْرَدَهُ — سَبْحَانَهُ — بِبِرْهَانٍ ، وَأَيَّدَهُ بِبَيَانٍ ، وَأَعَزَّهُ بِسُلْطَانٍ . وَمَنْ لَا سُلْطَانَ لَهُ يَمْتَدُّ إِلَيْهِ قَهْرُهُ ، وَمَنْ لَا بَرْهَانَ لَهُ يَنْبَسِطُ عَنْهُ — إِلَى غَيْرِهِ — نَوْرُهُ ، فَهُوَ يَعْزِلُ عَنْ جَمَلَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأَنْبِيئِكُمْ يُبَشِّرُ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبَشِّرُ الْمَصِيرُ ﴾

لِسَمَاعِ الخطابِ أُنْزِلَ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِسْتِبْشَارِ وَالْبَهْجَةِ ، أَوْ الْإِنْكَارِ ^(١) وَالْوَحْشَةِ . ثُمَّ مَا تَخَامَرَهُ السَّرَائِرُ يُلُوحُ عَلَى الْأَسْرَةِ فِي الظَّاهِرِ ، فَكَانَتِ الْآيَاتُ عِنْدَ نَزْوِهَا إِذَا تَلَيْتْ عَلَى الْكُفَّارِ يُلُوحُ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُخَانٌ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ التَّكْذِيبِ ، فَمَا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِمْ طَرْفُ إِلَّا نَبَأٌ عَنْ جُحُودِهِمْ ، وَعَادَتِ إِلَى الْقُلُوبِ النُّبُوءَةُ عَنْ إِقْلَاعِهِمْ . ثُمَّ أَخْبِرَ أَنَّ الَّذِي هُمْ بِصَدَدِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَلِيمِ الْعُقُوبَةِ شَرُّ بِكُلِّ وَجْهِ لَمْ يَمَّا يَعُودُ إِلَى الرَّائِينَ لَمْ عِنْدَ شُهُودِهِمْ . وَإِنَّ الْمُنَاطِرَ الْوَضِيئَةَ لِلرَّائِينَ مُبْهَجَةٌ ، وَالْمُنَاطِرَ الْمُنْكَرَةَ لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا مَوْحِشَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستمعوا له إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسألهم الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .

(١) هكذا في م والكنها في ص (الانكسار) بالسين وهي خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

تبه الأفكار المُشْتَتَّة ، والخواطر المتفرقة على الاستجماع لِإِسماع ما أَرَادَ تَضَمِينَهُ فِيهَا ؛
فاستحضرها فقال : « ضَرْبٌ مِثْلُ فاستمعوا له . . »

ثم بَيَّنَّ المعنى فقال إنَّ الذين تَدْعُونَ من دون الله ، وتدعوها آلهة ؛ أى وتسمونها
آلهة (وأنها للعبادة مستحقة) ^(١) لن يخلقوا بأجمعهم ذباباً ، ولا دونَ ذلك . وإنَّ يسلبهم
الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومن كان بهذه
الصفة فسَاءَ المثلُ مثلهم ، وضَمَفَ وصفهم ، وقَلَّ خَطَرُهم .

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهون بقدره ا

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

ما عرفوه حقَّ معرفته ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعمت . ومن لم يكن في عقيدته
نَقْضٌ لِمَا يستحيل في وصفه — سبحانه — لم يُباشِرْ خلاصة التوحيدِ سرِّه ، وهو في تَرْجِمِ
فِكْرِهِ ، وتجويز ظنِّه ، وخطَرِ تَعَسُّفِ ، يقع في كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُّ اجتهادهم في رَفْضِهِمُ الأعمالَ الخبيثة خوفاً من الله ، وانحواص جهدهم
في نَقْضِ عقيدتهم للأوصافِ التي تجلُّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . .) ^(٢) بعيد .

« إن الله لقوي عزيز » قوى أى قادر على أن يخلق مَنْ هو فوقهم في التحصيل وكال العقول .

« عزيز » : أى لا يُقدَّرُ أحدٌ قَدْرَهُ — إلا بما يليق بصفة البشر — يَقْدِرُ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعمت له إلا بوصفِ القُصُورِ ، ولكن كلُّ بوجده

مربوطٌ ، وبجدِّه في همته موقوف ، وانطق سبحانه عزيز ^(٣) .

(١) ما بين القوسين موجود في ص مفقود في م

(٢) في ص جاءت (وفاق) وفي م جاءت (فرقان) والأولى مرفوضة ، وفي مثل هذا الموضع يستعمل
القشيري (فرق) أو (بون) بعيد .

(٣) كلام القشيري هنا في (قوى) وفي (عزيز) هام لأنه لم يرد في مجتهه المستقل عن الأسماء والصفات
الإلهية الذي ضمنه كتاب (التعبير في التذكير) الذي حققناه ونشرته دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

الاجتهاد والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر، وتخصيص الطول، وتقدمهم على أشكلهم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعض درجات؛ فالفضيلة بحق المرسل، لا لخصوصية في الخلق في المرسل .

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

يعلم حالهم ومآلهم، وظاهرهم وباطنهم، ويومهم وغدهم، ويعلم تقصمهم عهدهم؛ فإليه منقلبهم، وفي قبضته تقلبهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلها بمعنى الصلاة؛ لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكن فرقها في الذكر^(١) مراعاةً لفلنك من الخوف عند الأمر بالصلاة؛ فقسمها ليكون مع كل لفظة ومعنى نوع من التخفيف والترفيه، ولقلوب أهل المعرفة في كل لفظة راحة جديدة .

ويقال لوّن عليهم العبادة، وأمرهم بها، ثم جميعها عبادة واحدة، ووعد عليها من الثواب الكثير ما تقصّر عن علمه البصائر .

ويقال علم أنّ الأحياء يحبون سماع كلامه فطوّل عليهم القول إلى آخر الآية؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أنساً على أنس، وروحاً على روح، ومعاداً خطاب الأحياء هو روح رُوحهم، وكال راحتهم .

(١) ما يلي من السلام في هذه الفقرة مفيد في الباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فأدخل فيه جميع أنواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جِهَادِهِ » : حق الجهاد ما وافق الأمر في القدرِ والوقتِ والنوعِ ، فإذا حصلت في شيء منه مخالفة فليس حَقَّ جِهَادِهِ (١) .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةً بالنفس ، ومجاهدةً بالقلب ، ومجاهدةً بالمال . فالمجاهدة بالنفس ألا يدخر العبدُ ميسوراً إلا بذلّه في الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطالب الرخص والإرفاق (٢) . والمجاهدة بالقلب صوّنه عن الخواطر الرديئة مثل الغفلة ، والعزم على المخالفات ، وتذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبدل والسخاء ثم بالجوّد والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإن كان في الأختف أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يفتر العبدُ عن مجاهدة النفس لحظةً ، قال قائمهم .

يَا رَبِّ إِنَّ جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُعْرَ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

يحتمل أنه يقول من حقّ اجتبائه إياكم أن تعظموا أمر مولاكم

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لما جاهدتم ، فلاجتبائه إياكم وَفَقَّكَ حَتَّى جَاهَدْتَ .

ويقال علم ما كنت تفعله قبل أن خلقتك ولم يمنعه ذلك من أن يجذبك ، وكذلك إن رأيت ما فعلت فلا يمنعه ذلك أن يتجاوز عنك ولا يعاقبك .

(١) ما بين قوسين موجود في م وناقص في ص .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فنناه التسهيل ، والقشيري لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم باحثون عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهي جمع رفق وقد نهى القشيري في نهاية رسالته عن رفق النسوان والصبيان فهم الأتقان والجيف . . . الخ . والسياق هنا يبيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من

حرج ﴾

الشرع مبناه على السهولة ، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيل فضله وإحسانه ، وتخلص به من ألم عقابه وامتحانه -- يسير^(١) من الأمر لا يستغرق كنه إمكانك ؛ بمعنى أنك إن أردت فعله أقدرت عليه ، وإن لم توصف في الحال بأنك مستطيع ما ليس بوجودك فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ .

أى اتبعوا والزموا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في البنل والسخاء والجد والخلة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ هو مماكم المسلمين من قبل

وفي هذا ليكون الرسول شهيداً

عليكم ﴾ .

الله هو الذي اجتباكم ، وهو الذي بالإسلام والعرفان مماكم المسلمين . وقيل إبراهيم هو الذي مماكم المسلمين بقوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »^(٢) .

قوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم ، نصب الرسول بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يبقى للشفاعة . وضماً ومحلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

وتلك الشهادة إنما تؤذيها الله ، ومن كانت له شهادة عند أحد -- وهو كريم -- فلا يجرح شاهده ، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده .

قوله جل ذكره : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم

المولى ونعم النصير ﴾ .

(١) يسير خير لاسم الموصول (والذي به ...) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام، ونمت الاستدامة، وجعل الاستقامة .
 والاعتصامُ بالله التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله . ويقال الاعتصامُ
 بالله التمسكُ بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستماعة .
 « هو مولاكم » : سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه .
 « فنعيم المولى ونعم النصير » نِعَمَ المولى : إخبارٌ عن عظمته ، ونعم النصير : إخبارٌ
 عن رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد » (١) ولسليمان « نعم العبد » (٢) فلقد قال لنا « نعم
 المولى ونعم النصير » ، ومدحه لنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك .
 ويقال « نعم المولى » : بدأك بالمحبة قبل أن أحببته ، وقبل أن عرفته أو طلبته
 أو عيّدته .
 « ونعم النصير » : إذا انصرف عنك جميع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبرَ معك أحدٌ
 كان ناصرَكَ ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو ، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقُ العلو ، فالاسم اسم لسموه من
 القِدَم ، والحقُّ حقُّ لعلوه بحق القِدَم .
 ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمّت هِمَّتُه عن المرصومات ، ومن أحبَّ بسم الله صَفَتْ
 حالته عن مساكنة الموهومات .
 اسمٌ مَنْ طلبه نبي من الدارين أربّه ، ومن عرفه وجدَ بقلبه مالا يعرف سببه .

(١) « لنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة ص .
 (٢) « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة ص .

قوله جل ذكره : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم
في صلاتهم خاشعون ﴾

ظَفَرَ بِالْبُغْيَةِ وَفَازَ بِالطَّلِبَةِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .

و « الْفَلَاحُ » : الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالظَّفَرُ بِالْمَقْصُودِ .

وَالِإِيمَانُ انْتِسَامُ الْحَقِّ فِي السَّرِيرَةِ ، وَمَخَامَرَةُ النَّصِيقِ خِلَاصَةَ الْقَلْبِ ، وَاسْتِمْكَانُ
التَّحْقِيقِ مِنْ تَأْمُورِ الْفُؤَادِ (١) .

وَالخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِطْرَاقُ السَّرِّ عَلَى إِسَاطِ النَّجْوَى بِاسْتِسْكَالِ نَعْتِ الْهَيْبَةِ ، وَالدُّوبَانُ
تَحْتِ سُلْطَانِ الْكَشْفِ ، وَالامْتِحَاءُ عِنْدَ غَلَبَاتِ التَّجَلِّيِ .

وَيَقَالُ أُدْرِكَ ثَمَرَاتِ الْقُرْبِ وَفَازَ بِكَمَالِ الْأُنْسِ مَنْ وَقَفَ عَلَى إِسَاطِ النَّجْوَى بِنَعْتِ
الْهَيْبَةِ ، وَمِرَاعَاةِ آدَابِ الْخِضْرَةِ . وَلَا يَكْمُلُ الْأُنْسُ بِلِقَاءِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِ الرَّقِيبِ .
وَأَشَدُّ الرَّقِيبِ وَأَكْثَرُهُمْ تَنْغِيصًا لِأَوَانِ الْقُرْبِ النَّفْسُ ؛ فَلِرَاحَةِ الْمُصَلِّيِّ مَعَ حُضُورِ نَفْسِهِ ،
(فَإِذَا خَنَسَ عَنْ نَفْسِهِ) (٢) ، وَشَاهِدِهِ عِنْدَ إِحْسَاسِهِ بِآفَاتِ نَفْسِهِ ، وَطَابَ لَهُ الْعَيْشُ ، وَتَمَّتْ لَهُ
النُّعْمَى ، وَتَجَلَّتْ لَهُ الْبُشْرَى ، وَوَجَدَ لَذَّةَ الْحَيَاةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ ﴾

مَا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ سَهْوٌ ، وَمَا لَيْسَ لِلَّهِ فَهُوَ حَشْوٌ ، وَمَا لَيْسَ بِمَسْمُوعٍ مِنَ اللَّهِ أَوْ بِمَقُولٍ
مَعَ اللَّهِ فَهُوَ لَغْوٌ ، (وَمَا هُوَ غَيْرُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ فَهُوَ كُفْرٌ ، وَالتَّعْرِيجُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا
بُعْدٌ وَهَجْرٌ) (٣) .

وَيَقَالُ مَا لَيْسَ بِتَقْرِيطِ اللَّهِ وَمَدْحِهِ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ فَسُكْلٌ ذَلِكَ لَعْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾

(١) يُقَالُ لِجَمَلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي تَأْمُورِكَ أَيْ دَاخِلَ قَلْبِكَ (الوسيط : مادة أ م ر) .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي ص .

(٣) مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي ص .

الزَّكَاةُ النَّمَاءُ ، وَمَنْ عَمَلَهُ لِلنَّمَاءِ فَأَمَارَةٌ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ بِنِقْصَانِهِ فِي نَفْسِهِ عَنِ شَوَاهِدِهِ
وَلَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَى كَمَالِ الْوَصْفِ فِي الْعِبَادَةِ إِلَّا بِذَوَابِنِهِ عَنِ شَاهِدِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ *
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

لفروجهم حافظون ابتغاء نَسْلِ يقوم بحق الله ، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعمف
والتصاون عن مخالفت الإيم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ ابْتغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ ﴾

أَي مَنْ جَاوَزَ قَسَدَ إِشَارِ الْحَقِّ ، وَجَنَحَ إِلَىٰ جَانِبِ اسْتِيفَاءِ الْحُظُوظِ . . فَقَدْ تَعَدَّى
مَحَلَّ الْأَكْبَارِ ، وَخَالَفَ طَرِيقَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴾

الْأَمَانَاتُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ أَمَانَةٌ أُخْرَى ، قَوْمٌ عِنْدَهُمُ الْوِظَائِفُ بِظَوَاهِرِهِمْ ،
وَأُخْرُونَ عِنْدَهُمُ الْطَائِفُ فِي سِرَائِرِهِمْ ، وَلِقَوْمٍ مِمَّا لَانْتَهُمْ ، وَالْآخِرِينَ مَنَازِلَانْتَهُمْ ،
وَالْآخِرِينَ مَوَاصِلَانْتَهُمْ .

وَكذَلِكَ عَهْدُهُمْ مُتَفَاوِتَةٌ فَهَمُّ مَنْ عَاهَدَهُ الْآيَعْبُدُ سِوَاهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَهُ الْآيَشْهَدُ
فِي السُّكُونِ سِوَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

لَا تُصَادِفُهُمُ الْأَوْقَاتُ وَهَمُّ غَيْرِ مُسْتَعِدِينَ ، وَلَا يَدْعُوهُمُ الْمُنَادِي وَهَمُّ لَيْسُوا بِالْبَابِ ، فَهَمُّ
فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ بِظَوَاهِرِهِمْ ، وَكَذَلِكَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ بِسِرَائِرِهِمْ .

قوله جل ذكره ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ * الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

الإرث على حسب النسب ، وفي استحقاق الفردوس يوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل ، ثم الطاعات في الفضل .

وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك في الطاعات ؛ فمنهم من هم في الفردوس بنفوسهم ، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يرحون عن منال نفوسهم ولا (. . .) (١) عن حالات قلوبهم .
قوله جل ذكره ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾

من طين ﴿

عرّفهم أصلهم لثلاثاً يُعجبوا بفعلهم .

ويقال نسبهم لثلاث يخرجوا عن حدّهم ، ولا يفلطوا في نفوسهم .

ويقال خلقهم من سلالة سلّت من كل بقعه ؛ فمنهم من طينته من جردّة (٢) أو من سبخة (٣) أو من سهل ، أو من وعير . . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بسط عذرهم عند الكافة ؛ فإنّ المخلوق من سلالة من طين . . . ما الذي يُنتظر منه ١٤

ويقال خلقهم من سلالة من طين ، والتدّر للتربة لا للتربة .

ويقال خلقهم من سلالة ولكنّ معدن المعرفة ومرتع المحبة ومتعلق العناية منه لهم ؛ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .

ويقال خلقهم ، ثم من حال إلى حال تقلّمهم ، يُغيّر بهم ما شاء تغييره .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾

ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة

مُصّعة فخلقنا المصّعة عظاماً ،

فكسونا العظام لحمًا ﴿

(١) مشتبه في ص ، م وربما كانت (ولا ينفكون) .

(٢) الأرض الجردة التي لا نبات فيها .

(٣) السبخة التي فيها ملح ونزّ ولا تسكاد تبت .

قطرة أجزاؤها متماثلة، ونُظفة أبعاضها متشاكلة، ثم جعل بعضها لحمًا وبعضها عظامًا، وبعضها شعرًا، وبعضها ظفرًا، وبعضها عصبًا، وبعضها جلدًا، وبعضها مخًا، وبعضها عرقًا. ثم خصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ، وكلَّ جزءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ. ثم الصفات التي للإنسان خلقها متفاوتةً، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقُدرةِ والعلمِ والإرادةِ والشجاعةِ والحقدِ والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحُصْرُ والعَدُّ.

قوله جل ذكره: ﴿ثم أنشأناه خلقًا آخرَ فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين﴾

في التفاسير أنه صورة الوجه، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة، وأختصَّ به من السَّمْعِ والبصرِ والعقلِ والتمييزِ، وما تفرَّد به بعضُ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات.

ويقال «ثم أنشأناه خلقًا آخر»: وهو أن هَيَأَمَ لأحوالٍ عزيزةٍ يُظهرها عليهم بعد بلوغهم، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال؛ فلقومٌ تخصيصٌ بزينة العبودية، ولقومٌ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفات الصمدية بامتحنهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية.

قوله جل ذكره: ﴿فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين﴾

خلق السموات والأرضين بجملة ما، والعرش والكرسى، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعمت خلقه بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً، وإفراداً لهم من بين المخلوقات.

ويقال إن لم يقلْ لَكَ إِنَّكَ أَحْسَنُ المخلوقاتِ في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»^(١).

(١) الآية ٤ سورة التين.

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُثنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثنى عليك .

ويقال لما ذكر نعمتك ، وتاراتِ حالِكِ في ابتداءِ خَلْقِكَ ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانٌ مدحٍ ينطلق . . نَابَ عنك في الثناء على نفسه ، فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتُنَا عندنا قروضٌ ونحن بعد الموت في التقاضى
لأبدٍ من رُدٍّ ما اقترضنا كلُّ غريمٍ بذاك راضى

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وكلُّ ما هو آتٍ فقريب .
ويقال كسر على أهل الغفلة سطوة غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتهم بقوله : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وللجادرِ مظاهون ، وعن المسكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لمُبعدون ، وفي عِدَادِ ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموصولُ من المهجورِ .

ويومُ القيامةِ يومٌ خَوْفَ به العالمُ حتى لو قيل للقيامة : بمن تخافين ؟ لقاتل من القيامة .
وفي القيامة ترى الناسَ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالهم ، ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يتبين لكلِّ واحدٍ أمرُهُ ؛ خَيْرُهُ وشرُّهُ : فيثقل بالظلماتِ ميزانُهُ ، أو يخف

عن الطاعات أو يخلو ديوانه . وما بين الموت والقيامة : فإِ مَارَاحَاتُ مُتَّصِلَةٌ ، أَوْ آلَامٌ
وَأَفَاتٌ غَيْرُ مَنْفَصَلَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ
وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

الحق — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مُدْرِكٌ ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته —
خافية . وإنما الحُجُبُ على أبصار الخلق وبصائرهم ؛ فالمادةُ جاريةٌ بأنه لا يخفق لنا الإدراك
لبأ وراء الحُجُبِ . وكذلك إذا حَلَّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدتْ
بصائرُها ، وانفتت فهمُها .

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ ؛ ففي الظاهر السمواتُ حُجُبٌ تحولُ بيننا وبين المنازل
العالية ، وعلى القلوب أغشيةٌ كالمنية والشهوة ، والإراداتُ الشاغلة ، والغفلاتُ المتراكمة .
أما المريدون فإذا أَظْلَمَتْ سحابُ القُتْرِ ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتهم فذلك من الطرائق
التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عرقُ الرغبةِ انْفَلَتَ^(١) قوةُ زهدهم ، وَضَعَفَتْ دعائمُ
صبرهم ، فَيَتَرَخَّصُونَ بالجنوحِ إلى بعضِ التَّأْوِيلَاتِ ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وَتَحْتَلُّ
رتبةُ عزوفهم ، وَتَنْهَدُ دعائمُ زهدهم ، وبدايةُ ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم .
وأما العارفون فربما تَظَلَّمُوا في بعض أحوالهم وَقَفَةٌ في تصاعدِ سرهم إلى ساحاتِ الحقائق ،
فيصيرون مَوْقِفِينَ رَبِّهَا يَتَفَضَّلُ الْحَقُّ — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ،
ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ ، ولا تاركٍ للعبادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ
بِهِ لَتَادِرُونَ ﴾ .

(١) انفلَّ السيف = اننلم حدثه ، وانفلَّ القوم = انهموا .

أنزل من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرضين ، وذلك بقدر معلوم . ثم
البلاد مختلفة في السقي : فبعضها خصب ، وبعضها جدد ، وسنة يزيد وسنة ينقص ، سنة
يقبض وسنة يفيض .

كذلك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحیی القلوب ، وهي مختلفة في الشرب : فمن موسع
عليه رزقه منه ، ومن مضيق مقتر عليه . ومن وقت هو وقت سح ، ومن وقت هو
وقت حبس .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به درن المصاة وأثار زلتهم وأوضار عثرهم ، وماء
هو سقي قلوبهم يزيل به عطش تجوهم ، ويحيي به موات أحوالهم ، فنبتت في رياض قلوبهم
فنون أزهار البسط ، ووضوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات
القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التميز ، ويحملها على
التجاسر ببذل الروح ؛ فإذا شربوا طربوا ، وإذا طربوا لم يبألوا بما وهبوا (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

كما يحيي بماء السماء الغياض والرياح ، ويصنف فيها الأزهار والأنوار ، وتثمر الأشجار
وتجري الأنهار .. فكذلك يسقي القلوب بماء العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهو ، وتؤتي
أكلها : من طيب عيش ، وكال بسط ، ثم وفور هيبة ثم روح أنس ، وتنتج تجل ، وعوائد
قرب .. إلى ما تنقصر العبارات عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات في حصره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

الإشارات منه أن الكدورات الهاجة لاعبرة بها ولا مبالاة ؛ فإن اللبن الخالص السائغ
يخرج من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوى حواياها عليه من الوحشة ، لكنه صاف لم يؤثر

(١) حق لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحكم الجوار ، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل . ومن أشرف على (سر) (١) التوحيد تحقق بأن ظهور جميع الحدثنان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو .

« ولكم فيها منافع » : لازمة لكم ، ومتعدية منكم إلى كل متصل بكم :

إني — على جهواتها — برها وبكل متصل بها مؤسس

قوله جل ذكره : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

يحفظهم في السفينة في بحار القطرة ، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في بحار القدرة ، وإن بحار القدرة تنالهم أمواجها ، والناس فيها غرقى إلا من يحفظه الحق — سبحانه — في سفينة العناية .

وصفة أهل الفلك إذا مستهم شدة خوف الفرق ما ذكر الله في قوله : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » (٢) ، كذلك من شاهد نفسه على شفا الهلاك والفرق ، والتجأ إلى صدق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحق — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إن وجه الأرض بحار الغفلة ، وما عليه الناس من أسباب التنفرة بحار مهلكة والناس فيها غرقى ، وكما قال بعضهم :

الناس بجر عميق والبعء عنهم سفينة
وقد نصحتك فانظر لنفسك المسكينة

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال

يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره أفلا تتقون ﴾ .

(١) موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٢) آية ٦٥ سورة العنكبوت .

كَرَّرَ قِصَّةَ نُوحٍ لِمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْآيَاتِ مِنْ طُولِ مَقَامِهِ فِي قَوْمِهِ ، وَشِدَّةِ مِقَاسَةِ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ، وَتَعَامُّ صَبْرِهِ عَلَى مَا اسْتَقْبَلَهُ فِي طُولِ عَمْرِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَّ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَّ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَبَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَبَالِ — سَبْحَانَهُ — بِأَنْ أَهْلَكَ جَمَلَتَهُمْ . وَلَقَدْ ذَكَرَ فِي الْقِصَصِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ لَمَّا أَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ كَانَتْ لَهَا مَوْلُودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وَقَامَتْ حَامِلَةً لَهُ تَرْفَعُهُ عَنِ الطُّوفَانِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ إِلَى يَدَيْهَا رَفَعَتْهُ إِلَى مَا فَوْقَ رَأْسِهَا — قَدَرًا مَا أَسْكَنَهَا — إِبْقَاءً عَلَى وِلْدَانِهَا ، وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكِ ، إِلَى أَنْ غَلَبَهَا الْمَاءُ وَتَلَيَّنَتْ وَوَلِدَهَا . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَوْ أَنِّي كُنْتُ أَرْحَمُ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَرَجَحْتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَوَلِدَهَا .

وَفِي الظَّهِيرِ أَنَّ نُوحًا كَانَ اسْمُهُ بِشَكْرٍ ، وَلِسُكُونِهِ مَا كَانَ يَبْكِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : يَا نُوحُ ، إِلَى كَمْ تَنُوحُ ؟ فَسَمَّاهُ نُوحًا . وَيُقَالُ إِنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْمًا بِكَلْبٍ فَقَالَ : مَا أَوْحَشَهُ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : اخْلُقِي أَنْتِ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ! فَكَانَ يَبْكِي مَعْتَدِرًا عَنْ قَائِلَتِهِ تِلْكَ . وَكَانَ قَوْمُهُ يَلْحَظُونَهُ بَعَيْنِ الْجَنُونِ ، وَمَا زَادَ لَهُمْ دَعْوَةً إِلَّا زَادُوا عَنْ إِجَابَتِهِ نُبُوَّةً ، وَمَا زَادَ لَهُمْ صَفْوَةً إِلَّا زَادُوا عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ قَسْوَةً عَلَى قَسْوَةٍ .

وَلَمَّا عَمِلَ السَّفِينَةَ ظَهَرَ الطُّوفَانُ ، وَأَدْخَلَ فِي السَّفِينَةِ أَهْلَهُ ، تَعَرَّضَ لَهُ إِبْلِيسُ — كَمَا جَاءَ فِي الْقِصَّةِ — وَقَالَ : إِجْلِسِي مَعِي فِي السَّفِينَةِ ، فَأَبَى نُوحٌ وَقَالَ : يَا شَقِيٌّ . . . تَطْمَعُ فِي حَمْلِي إِيَّاكَ وَأَنْتِ رَأْسُ الْكُفْرَةِ ؟ !

. فَقَالَ إِبْلِيسُ : أَمَا عَلِمْتِ — يَا نُوحُ — أَنَّ اللَّهَ أَنْظَرَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ يَنْجُو الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ ؟

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنَّ أَحْمَلَهُ فَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِابْنِهِ مَعَهُ مَكَانٌ فِي السَّفِينَةِ . (وَفِي هَذَا ظَهْرُ عَيْنِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْحَكْمَ مِنَ اللَّهِ غَيْرَ مَعْلُولٍ) (١) لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِي أَنَّ ابْنَهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لَهُ مَكَانٌ لِكُفْرِهِ فَبِإِبْلِيسُ يُشْكَلُ . . . وَلَكِنَّهَا أَحْكَامٌ غَيْرُ مَعْلُولَةٍ ، وَجَازَ لَهُ — سَبْحَانَهُ — أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ : يَصِلُ (٢) مَنْ شَاءَ وَيَرُدُّ مَنْ شَاءَ .

(١) مَا بَيْنَ الْفَوْسِقِينَ مَوْجُودٌ فِي مٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي ص .

(٢) وَرَدَّتْ فِي مٍ (يَصِلُ) بِالضَّادِ وَبِجَنِّ نَجْدٍ (يَصِلُ) أَكْثَرُ انْسِجَامًا مَعَ اللَّامِ لِتَقَابُلِ (يَرُدُّ)

قوله جل ذكره: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ .

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله ، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله ، ولا مخالفاً لأمر الله .

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باسنيلاء سلطان الثرب عليك ، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلي حتى لا تبقى عين ولا أثر ، فإذا تمّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بإساحت الحقيقة مبارك ؛ لأنك بلا أنت . . بكليتك من غير بقية أو أثر عنك .

قوله جل ذكره: ﴿ تَمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

تناهت القرون على طريقة واحدة في التكذيب ، وغرهم طول الامهال ، وما مكنتهم من رفاه العيش وخفض الدعة ، فلم يقنسوا إلا على أنفسهم ، ولم يسم لهم طرف إلى من فوقهم في الحال والمنزلة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد في الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل الغي ، وتكلمنا سنة الرشد . فأجراهم الله في الإهانة وإحلال العقوبة بهم مجرى واحداً ، وأذاقهم عذاب الخزي . وأعظم ما داخلكم من الشبهة والاستبعاد أمر الحشر والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأن الإعادة كالأبتداء في الجواز وعدم الاستحالة ، والله يهدى من يشاء ويغوي من يريد .

ثم إن الله في هذه السورة ذكر قصة موسى عليه السلام ، ثم بعده قصة عيسى عليه السلام ، وخص كل واحد منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة (١) .

قوله جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

كلوا من الطيبات مما أحل لكم وأباح ، وما هو محكوم بأنه طيب — على شريطة مطابقة

(١) نلاحظ هنا أن القشيري قد اختصر الكلام فقفر إلى الآية ٥٠ دون نهل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُحْصَةَ الشَّرِيعة — مما كان حلالاً في وقتهم ، مطلقاً ، وأذوناً لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم ، يفنون طاعتهم في أعمالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ .

معبودكم واحدٌ ، ونبيُّكم واحد ، وشرعكم واحد ؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواء ، فلا تسلكوا نِيَّاتِ الطَّرِيقِ (١) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتِّباع سَلَفِكُمْ ، واحذروا موافقة ابتداع تخالفكم .

﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ، خافوا مخالفةَ أمرى ، واعرَفُوا عَظِيمَ قَدْرِي ، واحفظوا في جريان التقديرِ سِرِّي ، واستندوا بقلوبكم ذكرى ، نجدوا في مالكم غفري ، وتَحَظَّروا بِجَمِيلِ بَرِّي .
قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

فستقيم على حَقِّهِ ، وتائه في غِيَّهِ ، ومُصِرُّهُ على عَصِيانِهِ وَفِسْقِهِ ، ومقيمٌ على إِحْسَانِهِ وَصِدْقِهِ ، كُلُّ مَرْبُوطٌ بِجِدِّهِ ، موقوفٌ بما قَسَمَ لَهُ في البداية من شأنه ، كُلُّ يَنْتَحِلُ طَرِيقَتَهُ وَيَدَّعِي بِحَسَنِ طَرِيقَتِهِ حَقِيقَةً ، وعند صِحْوِ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارٌ في الطَّرِيقِ ؛ وهم على يقينِ معارفهم ؛ فلا رَيْبَ يَتَخَالَجُهُمْ وَلَا شُبُهَةَ .

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهِمْ ، وغبارِ جُحْدِهِمْ ، وظلمةِ تَقْلِيدِهِمْ ، ومحنةِ شَكْمِهِمْ .
قوله جل ذكره : ﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَفْلَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ .

إِنَّ مَدَّةَ أَخْذِهِمْ لَقَرِيبَةٌ ، والعقوبة عليهم — إِذَا أُخِذُوا — لشديدة ، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

(١) نية الطريق = منطفه .

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحَقِّ بهم بتبليس المنهاج ؛ رَأَوْا سِرَابًا فَظَنُّوهُ
شِرَابًا ، وَدَسَّ لَهُمْ فِي شَهْدِهِمْ صَابًا فَتَوَهُمُوهُ عِدَابًا^(١) ، وحين لقوا عِدَابًا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ
يَفْعَلُوا صَوَابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ
مُتَّقُونَ ﴾

أَمَارَةُ الإِشْفَاقِ مِنَ الخَشْيَةِ إِطْرَاقُ السَّرِيرَةِ فِي حَالِ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِشَوَاهِدِ
الأَدَبِ ، وَمَحَازِرَةِ بَنَاتِ الطَّرْدِ ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِمْ قَرَارٌ لِيَمَّا دَاخَلَهُمْ مِنَ الرُّعْبِ ، وَاسْتَوَلَى
عَلَيْهِمْ مِنَ سُلْطَانِ الهَيْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾
تِلْكَ الآيَاتُ مُخْتَلِفَةٌ ، فَهِيَ مَا يُسْكَشِفُونَ بِهِ فِي الأَقْطَارِ مِنْ اخْتِلَافِ الأَدْوَارِ ، وَمَا فِيهِ
النَّاسُ مِنْ فَنُونِ الهَيْمِ وَصُنُوفِ المُتَنِي وَالإِرَادَاتِ ، فَإِذَا آمَنَ العَبْدُ بِهَا ، وَاعْتَبَرَ بِهَا اقْتِنَعَ بِمَا يَرَى
نَفْسَهُ مَطَالِبًا بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾
يَنْدُرُونَ جَلِيَّ الشُّرْكِ وَخَفِيِّهِ ؛ وَالشُّرْكَ الخَفِيُّ مَلاحِظَةُ الخَلْقِ فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ ،
وَالاسْتِبْشَارُ بِمَنْحِ الخَلْقِ وَقَبُولِهِمْ ، وَالانْكَسَارُ وَالدَّبُولُ عِنْدَ انْقِطَاعِ رُؤْيَةِ الخَلْقِ .
وَيَقَالُ الشُّرْكَ الخَفِيُّ إِحَالَةُ النَادِرِ مِنَ الحَالَاتِ — فِي المَسَارِّ وَالمَصَارِّ — عَلَى الأَسْبَابِ
كَقَوْلِ القَائِلِ : « لَوْلَا دَعَاؤُكَ أَيْبُكَ لَهَلَكْتَ » وَ « لَوْلَا هِمَّةُ فُلَانٍ لَمَا أَفْلَحْتَ » . . . وَأَمْثَالُ
هَذَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .
وَكَذَلِكَ تَوَهُمُ حُصُولِ الشِّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ .

فَإِذَا أَيقِنَ العَبْدُ بِسِرِّهِ الأَشْيَاءِ مِنَ الحَدِثَانِ ، وَلَمْ يَتَوَهُمْ ذَلِكَ ، وَأَيُّقِنُ الأَشْيَاءِ إِلاَّ مِنَ
التَّقْدِيرِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَبْقَى عَنِ الشُّرْكِ^(٣) .

(١) السِّدَابُ جَمْعُ عَذْبٍ وَهُوَ السَّائِغُ مِنَ الطَّعَامِ وَالنَّرَابُ وَنَحْوُهُمَا (الوَسْبَطُ) .

(٢) آيَةُ ١٠٦ سُورَةِ يُونُسَ .

(٣) أَيْ أَنَّ العَشِيرَةَ لَا يَنْكُرُ الأَسْبَابَ وَلَكِنْ يَنْعَى عَلَى مَنْ يَتَوَهُمُ أَنَّ مِنَ الحَدِثَانِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أُنْتُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ إِمَامٍ بِتَقْصِيرٍ ، أَوْ تَعْرِيجٍ فِي أَوْطَانِ الْكَسَلِ ، أَوْ جُنُوحٍ
إِلَى الْاِسْتِرْوَاحِ بِالرَّخْصِ . ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَلْمَأُؤَاءُ بِالْفَوَاحِشِ ، وَيَلَاظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَيْنَ
الْاِسْتِصْغَارِ ، وَالْاِسْتِحْقَارِ ، وَيَخَافُونَ بَعَثَاتِ التَّقْدِيرِ ، وَقَضَايَا السَّخَطِ ، وَكَمَا قِيلَ :
يَتَجَنَّبُ الْاِثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ اِثَامٌ

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ ^(١) فِي الْخَيْرَاتِ
وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

مُسَارِعٌ بِقَدَمَيْهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ ، وَمُسَارِعٌ بِمَهْمَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ ، وَمُسَارِعٌ
بِنِدَائِهِ مِنْ حَيْثُ تَجَرُّعِ الْحَمْرَاتِ ، وَالسَّكَلُ مُصِيبٌ ، وَالسَّكَلُ مِنْ إِقْبَالِهِ — عَلَى مَا يَلْبِقُ
بِحَالِهِ — نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلِدِينَا
كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

الْمَطَالِبَاتُ فِي الشَّرِيعَةِ مُضَمَّنَةٌ بِالسَّهُولَةِ ، وَأَمَّا مَطَالِبَاتُ الْحَقِيقَةِ فَكَمَا قَالُوا : لَيْسَ إِلَّا بِذَلِّ
الرُّوحِ ، وَلِهَذَا فَهَمُّ لَا تَشْتَلِمُهُمُ التَّرَهَاتُ ^(٢) . قَالَ لِأَهْلِ الرِّخْصِ وَالْمُسْتَضْمِنِينَ فِي الْحَالِ :
« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ^(٣) ، وَأَمَّا أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ ؛ فَقَالَ : « وَإِنْ تَبَدَّلُوا
مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ » ^(٤) وَقَالَ : « وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » ^(٥) ،
وَقَالَ : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ^(٦) .

(١) فِي سِ أَعْطَا النَّاسِخَ إِذْ زَادَ (لَهُمْ) بَعْدَ يَسَارِعُونَ .

(٢) التَّرَهَاتُ جَمْعُ تَرَهَةٍ وَهِيَ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا نَفْعَ فِيهِ ، أَوْ الطَّرِيقُ الصَّغِيرَةُ الْمَتَشَبِعَةُ عَنِ
الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ .

(٣) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

(٤) آيَةُ ٢٨٤ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٥) آيَةُ ١٥ سُورَةِ النُّورِ .

(٦) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقِّ وهم لا يظلمون » : لولا غفلتهم عن مواضع الحقيقة لما خوفهم بكتابة الملك ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوفهم باطلاع الملائكة ، وكتابتهم عليهم أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قلوبهم في غمرةٍ من هذا ،
ولهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها
عامِلون ﴾

لا يصلح لهذا الشأن^(١) إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغل له في الدنيا والآخرة ، فأما من له شغلٌ بدنياه ، أو على قلبه حديثٌ عقباه ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفي الخبر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياتهم ، وأرباب العقبى مشغولون بعقباهم ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلاهم ؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه - حين الفراغ - عزيز ؛ قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فأكون »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا أخذنا مُترفينم بالعذاب
إذا هم يجأرون ﴾

إنه - سبحانه - يُمهِّلُ ولكنَّه لا يُمهِّلُ ؛ فإذا أخذَ قَبْطُشُهُ شديداً ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »^(٣) . . . فإذا أخذَ أصحابُ الكبائر - حين يحل بهم الانتقام - في الجوابِ رُدُّوا في الهوان ، ويقال لهم :

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم مينا
لا تُبصرون ﴾

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مرَدَّ لتقديره .

(١) (هذا الشأن) يقصد به طريق أرباب الأحوال .

(٢) آية ٥٥ سورة يس .

(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سرابية ؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يحض حكم السرابية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ ﴾^{*} مسنكبين به سامراً تهجرون ﴾^{*}

ذَكَرَ هَذَا مِنْ بَابِ إِمْلَاءِ الْعُذْرِ ، وَإِلْزَامِ الْحِجَةِ ، وَالْقَطْعِ بِالْأَيِّنْفِغِ — الْآنَ — الْجَزَعُ وَلَا يُسْمَعُ الْعُذْرُ ؛ وَالْمُلُوكُ إِذَا أَمَرُوا حُكْمًا ، فَالاسْتِغَاةُ غَيْرُ مُؤَثِّرَةٍ فِي الْحَاصِلِ مِنْهُمْ ، قَالَ قَاتِلَهُمْ :

إِذَا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكذب إليه بوجهٍ — آخِرَ الدَّهْرِ — تُقْبِلُ
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

يعنى أنهم لو أنعموا النظرَ ، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الفكرِ لاستبصروا فى الحال ، ولا تنفى عن قلوبهم الاستعجابُ والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل ، وعرجوا فى أوطان التنافل ، فتعدوا الجهل ، وأيسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .

ذُهِلُوا عَنِ التَّحْقِيقِ فَتَطَوَّحُوا فِي أودية المغاليط ، وَرَبَّحَتْ بِهِمُ الظنونُ الخاطئةُ ، وَمَلَكَتْهُمْ كَوَازِبُ التَّقْدِيرَاتِ^(١) ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ (الرَسُولَ)^(٢) عَنْ أحوالهم ؛ فَمَرَّةً قَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ ، وَمَرَّةً رَمَوْهُ بِالسَّحْرِ ، وَمَرَّةً عَابُوهُ بِتَعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشرب ، وَمَرَّةً قَدَّحُوا فِيهِ بما هو فِيهِ مِنَ الْفَقْرِ وَقِلَّةِ ذاتِ الْيَدِ . . . فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ تَشَدَّتْ أحوالهم ، وَتَقَسَّمْ أَفكارهم .

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (التقدير) ونحن نرجح الأولى حتى يقتصر لإطلاق (التقدير) بالفرد على الفعل الإلهى أما هنا فهى (التقديرات الإنسانية) أى الظنون .

(٢) السياق يتطلب وجود كلمة (الرسول) وهى غير موجودة فى النسختين فوضعناها من عندنا لينسجم الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴾

وذلك لتضاد مناهم وأهوائهم ؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد ، وتحصيل ذلك محال
تقديره في الوجود . فَيَبَيِّنُ اللهُ — سبحانه — أنه لو أجرى حكمه على وفق مرادهم لاختلَّ
أمر السموات والأرض ، ولَخَرَجَ عن حَدِّ الإِحْكَامِ والإِيقَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْأَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

أى إِنَّكَ لَا تَطَّالِبُهُمْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِأَجْرٍ ، وَلَا بِإِعْطَاءِ عَوَاضٍ حَتَّى تَكُونَ بِمَوْضِعِ
التَّهْمَةِ فِيهَا تَأْتِيهِمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ . أَمْ لَعَلَّكَ تَرِيدُ أَنْ يُعْقِدُوا لَكَ الرِّيَاسَةَ . ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي لَكَ
مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَحَسَنِ الْمَأْتَبِ يُغْنِيكَ عَنِ التَّصَدُّقِ لِنَسِيلٍ مَا يَكُونُ فِي حَصُولِهِ
مِنْهُمْ مَطْمَعٌ . وَهَذَا كَانَ سُنَّةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِينَ ؛ عَمِلُوا لِلَّهِ وَلَمْ يَطْلُبُوا أَجْرًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .
وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَسَيَلِمُهُمُ التَّوَقُّعُ عَنِ التَّدَنُّسِ بِالْأَطْعَامِ ، وَالْأَكْلِ بِالذُّبْنِ فَإِنَّهُ رِيَاءٌ مُضِرٌّ
بِالْإِيمَانِ ؛ فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ لِلَّهِ فَالْأَجْرُ مُنْتَهَرٌ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ مَوْعُودٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

الصراط المستقيم شهودُ الربِّ بنعت الانفراد في جميع الأشياء ، وفي الإيجاد ، والاستسلام
لقضايا الإلزام بمواطاة القلب من غير استكراه الحُكْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ
الصِّرَاطِ لَنَا كِيدُونَ ﴾ .

(١) القشيري هنا يميز بانحراف كثير من الوعاظ المحترفين الذين امتلأ بهم عصره ، ومنذ مهد الحسن
البصرى — الذى طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسمع هذه الصيغة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين
إلى التفات والتهاك على أطباع الدنيا الزائلة .

زاعوا عن الحجية المثلى بقولهم فوقوا في جحيم الفرقة ، وستميل وتزل أقدامهم غداً عن الصراط ، فيقعون في نار الحرقه ؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُورِ فِي ظَنِينِهِمْ يَمِيمُونَ ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حكمه فيهم ، فقال : لو كشفنا عنهم في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المال ، ولقد علم أنهم سيكفرون ، وحكم عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لا يجوز أن يكون حكمه فيهم بخلاف علمه بهم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الْعَنَابِ مَا اسْتَكْنَوْا لَهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ .

أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائده . . تنبيهاً لهم ، فما اتقوا وما انزجروا ، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهاج لأسرع الله زواله عنهم ، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم ، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

لما أحلناهم أشدَّ العقوبات صَعُفُوا عَنْ تَحْمِلِهَا ، وَأَخَذُوا بِغَنَّةٍ ، ولم ينفهم ما قدموا من الابتهاج ، فَيَسْتَسْوُوا عَنِ الْإِجَابَةِ ، وعَرَّجُوا فِي أوطان القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا

مَا تَشْكُرُونَ ﴾

ذَكَرَ عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ بِأَن خَلَقَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ ، وَطَالَبَهُمْ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا .
وَشُكْرُهُمْ عَلَيْهَا اسْتِمَالُهَا فِي طَاعَتِهِ ؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ أَلَّا تَسْمَعُ إِلَّا بِاللَّهِ وَاللَّهُ ، وَشُكْرُ الْبَصَرِ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَّا بِاللَّهِ اللَّهُ ، وَشُكْرُ الْقَلْبِ أَلَّا تَشْهَدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَأَلَّا تَحِبَّ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ .

(١) هذا التمييز بين الحكم والعلم له أهميته الكبيرة في قضية التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه
تُحْشَرُونَ ﴾

الابتداء للحادثات من الله بدءاً ، والانهاء إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعانى ؛
فنعرف أن الحادثات بالله ظهوراً ، والله مُلْكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وله
اختلافُ الليل والنهار ، أفلاً
تَعْقِلُونَ ﴾

يُحْيِي النفوسَ وَيُمِيتُهَا والمعنى فى ذلك معلومٌ ، وكذلك يحيى القلوبَ وَيُمِيتُهَا ؛ فموتُ
القلب بالكُفْرِ والجُحْد ، وحيأة القلب بالإيمان والتوحيد ، وكما أَنَّ للقلوب حياةً وموتاً
فكذلك للأوقات موتٌ وحيأةٌ ، لحيأة الأوقاتِ بيمينِ إقباله ، وموتُ الأوقاتِ بمحنةِ
إعراضه ، وفى معناه أنشدوا :

أموت إذا ذكرتك ثم أحيأ فكم أحيأ عليك وكم أموت

قوله : ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ ؛ فليس كلُّ اختلافها فى ضيائها وظلمتها ، وطولها
وقصرها ، بل ليلالى المحبين تختلف فى الطول والقصر ، وفى الروح والنوح ؛ فَمِنْ اللَّيَالِي
ما هو أضوأ من اللآلى ، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس ، يقول قائلهم : ليلالى بعد
الظاعنين سُكُولُ :

ويقول قائلهم :

وكم لظلام الليلِ عِنْدِي من يدِ
تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالٍ قد مَضَيْنِ كأنَّها
وأيامُ هَجْرٍ أعقبها كأنَّها
لآلى عقودٍ فى نَحْوِ الكَواعِبِ
بياضُ مَشِيبٍ فى سوادِ الذوائِبِ

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا امِثِلْ مَا قَالَ الْأُولَىٰ *
 قَالُوا أُنزِلَ مِنَّا مِثْلًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا
 أَنَا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
 وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم ، وأسرفوا في العناد مثل سرفهم ، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم .

قوله : « لقد وعدنا ... » لما طال عليهم وقت الحشر ، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنشور زاد ذلك في ارتياحهم ، وجعلوا ذلك حجة في كذبهم واضطرابهم ، فقالوا : لقد وُعِدْنَا مثل هذا نحن وأبوانا ، ثم لم يكن لذلك تحقيق ، فما نحن إلا أمثالهم . فاحتجَّ اللهُ عليهم في جواز الحشر بما أقرروا به من ابتداء الخلق :

فقال جل ذكره: ﴿قُلْ لِيَنَ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَبْدَأُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾

أمره — عليه السلام — أَنْ يُلَوَّنَ عليهم الأسئلة ، وعقب كل واحدٍ من ذلك — مُخْبِرًا عنهم — أنهم سيقولون : اللهُ ، ثم لم يكف منهم بقالتهم تلك ، بل عاتبهم على

مجرد قولهم عن التذکر والفہم والعلم ، تنبيهاً على أن القول — وإن كان في نفسه صدقاً — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علمٍ و يقينٍ .
ثم نَبَّهَهُمْ على كمال قدرته ، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلقت بمقدورٍ له ضدُّ تعلقت بضدِّه ،
ويتعلق بمثل متعلقه .

والمعجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ، ثم تجوزهم عبادة الأصنام التي هي جمادات لا تحيا ، ولا تضرُّ ولا تنفع .

ويقال أولاً قال : «أفلا تذكرون» ، ثم قال بعده : «أفلا تتقون» ، فقدم التذکر على التقوى ؛ لأنهم بتذکرهم يصلون إلى المغفرة ، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته .
ثم بعد ذلك قال : «فأنتي تُسحررون» ؛ أي بعد وضوح الحجة فأنتي شكٌ بقي حتى تنسبوه إلى السحري ؟

قوله جل ذكره : ﴿ بل أتيناهم بالحق وإنا لكانوا كافرين ﴾

بين أنهم أصروا على جحودهم ، وأقاموا على عتوهم ونُبُوهم ، وبعد أن أزيحت العلل فلات حين عنر ، وليس لتجوز المسألة موجباً بتناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما اتخذ الله من ولي وما كان معه

من إله ﴾

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك ، والأمران جميعاً داخلان في حد الاستحالة ، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة في القدر ، والصمدية تنقدس عن جواز أن يكون له مثل أو جنس .

قوله جل ذكره : ﴿ إذاً لذهب كلُّ إله بما خلقَ

وآلآء بعضهم على بعض سبحان الله

عما يصفون ﴾ عالم الغيب والشهادة

فتعالى عما يُشركون ﴾

كُلُّ أَمْرٍ نَبِيْطًا بَائِنِينَ فَقَدْ انْتَقَى عَنْهُ النِّظَامُ وَصَحَّةُ التَّرْتِيبِ ، وَأَدْلَةُ التَّمَانِعِ مَذْكُورَةٌ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ .

« سُبْحَانَ اللَّهِ » تَقْدِيسًا لَهُ ، وَتَنْزِيْهًا عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ . « عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » : تَنْزِيْهُهُ عَنِ أَوْهَامِ مَنْ أَشْرَكَ ، وَظُنُونِ مَنْ أَرَفَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْبِيْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يقول إن عجبت لهم ما تتوعدهم به فلا نجماني في جملتهم ، ولا توصل إليَّ سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليلٌ على أَنَّ للهِقَّ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ ، وَلَوْ عَذَّبَ الْبَرِيءَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ ظُلْمًا وَلَا قَبِيْحًا (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ يدل على صحة قدرته على خلاف ما عِلِمَ ؛ فَإِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعْجِيلِ عِقُوبَتِهِمْ ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَصَحَّتْ الْقُدْرَةُ عَلَى خِلَافِ الْمَعْلُومِ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيْئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

الهمزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للمبالغة ؛ ويكون المعنى إُدْفَعِ بِالْحَسَنِ السَّيْئَةَ . أَوْ أَنَّ تَكُونَ لِلْمَبَالِغَةِ ؛ فَتَكُونُ الْمَكَافَاةَ جَائِزَةً وَالْعَفْوُ عَنْهَا — فِي الْحُسْنِ — أَشَدَّ مَبَالِغَةً . ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجرّم أهل العصيان بحكم الإحسان . ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له . ويقال اسلك مسلك الكرم ، ولا تجنح إلى طريق المكافأة .

(١) لأن أفعال الله تعالى لا تهمل بالأغراض ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .
(٢) في هذا رده ضمنى على المعتزلة القائلين بإنكار الصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة القدرة . فالأشاعرة — ومنهم التشيرى — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني اللائقة بذاته ، وهى معانٍ وإن تنوعت فليست طوارىء على الذات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأَحْسَنُ ما أشار إليه القَلْبُ ، والسَيِّئَةُ ما تدعو إليه النَّفْسُ .

ويقال الأَحْسَنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسَيِّئَةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأَحْسَنُ نورُ الحقائقِ ، والسَيِّئَةُ ظلمةُ الخلائقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ ﴾

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم :

« أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » (١) ، ولكنه — سبحانه — أراد أن تُعْبَدَ بالاستعاذة به من الشيطان ،

بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ عَلَيْنَا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجزى العادة .

ولاً . . . فلو كان بالشيطان من إغواء الخلقِ شيءٌ لكان يُسَمِّكُ على الهدايةِ نَفْسَهُ ! فَمَنْ

عَجَزَ عَنْ أَنْ يَحْفَظَ نَفْسَهُ كان عن إغواء غيره أشدَّ عجزاً ، وأنشدوا :

جحودى فيك تلبيس وعقلى فيك تهويس

فَمَنْ أَدَمَ إِلَاكَ وَمَنْ فِي (...) (٢) ابليس

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا

فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ

قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى

يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمَمَقَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ » .

مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذى .

(٢) في م (البن) وفي ص (البن) ، والبيتان للحلاج في الطواصين ص ٤٢ وفي ديوانه (المقطعة الثامنة

والعشرون) جاءت البن ، والمعنى أن آدم الذى خلقته من طين هو سبب هلاقي فسجودى له سجوداً لذكر .

وفي البيتين بعض الغموض والشطح ، ولهذا نمج من استشهاده القشبرى بهما . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب

القشبرى في رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . . .

وقد عللنا لذلك في كتابنا « الإمام القشبرى وتصوفه » ط مؤسسة الحلبي .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستمكن الضمُّ من أحوالهم ، وعلموا ألاَّ يحيصَ ولا يحيدَ أخذوا في التضرُّع والاستسكانة ، ودون ما يروون خرطُ القتادِ ويقال لهم هلاَّ كان عَشْرُ عشرٍ هذا قبلَ هذا ؟ ولقد قيل :

قلتُ للنفسِ : إن أردتِ رجوعاً فارجى قبل أن يُسدَّ الطريقُ
قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ ، ولا ينفع الندمُ ، وسيأتي كلُّ غيبٍ ما اجترم ؛
فَنَنْقُلُ بِالْخَيْرَاتِ مَوَازِينَهُ لَأَحَ عَلَيْهِ تَزِينَهُ . ومن ظهَرَ ما يشينه فله من البلاءِ فنونه ؛
تلفح وجوههم النارُ ، وتلمح من شواهدم الآثارُ ، ويتوجه عليهم الحجاجُ ، فلا جواب لهم
يُسْمَعُ ، ولا عذرٌ منهم يُقْبَلُ ، ولا عذابٌ عنهم يُرْفَعُ ، ولا عقابٌ عنهم يُقْطَعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكَانَا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ .

نطقوا بالحقِّ . . . ولكن في يومٍ لا ينفع فيه الإقرارُ ، ولا يُقبَلُ الاعتذارُ ،
ثم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَأَنَا ظَالِمُونَ ﴾ .

والحقُّ يقول : لو رُدُّوا للعادوا لما نُهِوا عنه . علمَ أن رُدَّهُم إلى الدنيا لا يكون ، ولكنه
علم أنه لو كان فكيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ .

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاءُ ، ويشتدُّ عليهم العناءُ ، لأنهم ماداموا يذكرون الله لم يحصل
الفراق بالكلية ، فاذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تم لهم المحنة ، وهو أحدُ ما قيل في قوله :
« لا يجزئهم الفرع الأكبر » (١) .

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفي الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء كعواء الذئب . وبعض الناس تغار من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لهم : « اخسئوا فيها » ، فيقولون : ياليتنا يقول لنا ! أليس هو يخاطبنا بذلك ؟ وهؤلاء يقولون : قدحُ الأحيابُ الذئبُ من مدحِ الأجانبِ ، وينشدون في هذا المعنى :

أتانى عنك سُبُكِ لى . . فسُبِّي أليس جرى بيفيكِ اسمي ؟ فحَسْبِي

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّه كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فاتخذتهم سخرية حتى أنسوكم ذكركم وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * .

الحقُّ — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيبُ به قلوبَ أوليائه ، وتلك خصومةُ الحق ، فيقول : قد كان قومٌ من أوليائي يُفصِّحون بمدحى وثنائى ، ويتصفون بمدحى وإطرائى ، فاتخذتهم سخرية ... فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يتلوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدُدَ سِنِينَ ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعضَ يومٍ فاسأل العاذنين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون * .

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفى ويربِّي عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة ، وإن كانت شداً فتتلاشى في جنب ما يروونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتواليمة .

قوله جل ذكره: ﴿ أَفَحَسِبُّمُ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

العبثُ الهو ، واللَّعبُ والاشتغالُ بما يلهي عن الحقِّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ،
ولم يدعهم إلى ذلك ، ولم يندبهم إليه .

والعبثُ في فعله مَنْ فَعَلَهُ على غير حدِّ الاستقامة ، ويكون هازلاً مُسْتَجَابِلاً بفعله أحكامَ
الهُو إلى نفسه ، متهادياً في سهوه ، مستلذِّدٌ التفرقة في قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى
البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنزَهُ النِّعَتِ عن هذه الجِلَّة ، فلا هو بِفِعْلِ شَيْءٍ عبث ،
ولا بشيءٍ مِنَ العبَثِ آوَرٌ .

قوله جل ذكره: ﴿ فَمَعَالَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .

الْحَقُّ — بنعوت جلاله — متوحدٌ ، وفي عزِّ آزاله وعلو أوصافه متفردٌ ، فداته حقٌّ ،
وصفاته حقٌّ ، وقوله صِدْقٌ ، ولا يتوجَّه لمخلوق عليه حقٌّ ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس
شئاً منها بمستحقٍّ (١) .

« لا إله إلا هو رب العرش الكريم » : ما تجلَّ بالعرشِ ، ولكنْ تَعَزَّزَ العرشُ
بأنه أضافه إلى نفسه إضافةً خصوصيةً .

والكريمُ الْحَسَنُ ، وَالكَرَمُ نَفْيُ الدَّعَاةِ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ

رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

حِسَابُهُ على اللَّهِ في آجِلِهِ . وعنايه من الله له في عاجله ، وهو الجهل الذى أودع قلبه
حتى رَضِيَ بِأَنْ يَعْبُدَ معه غيره . وقولهم : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » كلامٌ

(١) معنى هذه العبارة أنه لا يجب على الله شيء في إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ،
وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعبد .

حاصلٌ من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبرٍ أو نقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

اغفرُ الذنوبَ ، واسترِ العيوبَ ، وأجزِلْ الموهوب . وارحمُ حتى لا تستولى علينا هو اجمُ التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة ، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز (١) .

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُهُ ، اسم بشيرُ الحياةِ وصلته ، اسم سببُ الروحِ عرفانه ، اسم راحةُ الروحِ إحسانه ، اسم كمالُ الأنسِ إقباله ، اسم فتنةُ قلوبِ المهيمينِ جماله ، اسم من شهده دامت سلامته ، اسم من وجدته قامت قيامته ، اسم لا إليه حظوة ، ولا بدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ .

سورة هي شَرَفٌ لك — يا محمد — أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدى سورة (٢) ؛ فمكملٌ سورة شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة ، بينها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيننا (فيها من الأحكام ما) (٣) لسكم به اهتداء ، وللقلوب من غمرة الاستعجاب شفاء .

أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ، ودلائلَ واضحاتٍ ، وحججاً لأمتنا ؛ لتذكروا تلك الآيات ، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبيّنات .

(١) لأن الرحمة — في الأصل — وصف للذات ، والنعمة من صفات الفعل .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ، وإلى قوله تعالى في سورة يونس : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » .
(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

قوله جل ذكره: ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ
منهما مائة جلدَةٍ ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حكمه والقطع
بكونه على أكثر الناس خصلة عسيرة بعيدة ؛ إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول: رأيتُ
ذلك منه في ذلك منها ، وذلك أمرٌ ليس بالهين ، فسبحان من أعظم العقوبة على تلك الفعلة
الفحشاء ، ثم جعل الأمر في إثباتها بغاية السكدة والمعناء ، وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال
له صلى الله عليه وسلم: لعنك قبيلت . لعنك لا مست ، وقال لبعض أصحابه: «استنكوه» (١)
وكل ذلك روماً لدرء الحد عنه ، إلى أن ألح وأصر على الاعتراف .

قوله جل ذكره: ﴿ ولا تأخذنكم بهما رأفة في دين الله
إن كنتم تؤمنون بالله واليوم
الآخر ﴾

ما يأمر به الحق فالواجب بمقابلته بالسمع والطوع .

والرحمة من موجب الشرع وهو الحمود ، فأما ما يقتضيه الطبع والمادة والسوء فندمومٌ
غير محمود . ونهى عن الرحمة على من خرق الشرع ، وترك الأمر ، وأساء الأدب ، وانتصب
في مواطن المخالفة .

ويقال نهانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بتلك الفعلة الفحشاء —
رقم الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢)
ولولا رحمته لما استبقى عليه حلة إيمانه مع قبيح جرمه وعصيانه .

(١) وردت الإشارة إلى حادث « ماعز » في هاشم سبقي ، وقوله « استنكوه » أي اجسوا هل
في فم ربح الحجر ، وبمدها سأله النبي المرة الأخيرة « أذنت ؟ فقال نعم . فأمر به فرجم » صحيح مسلم ط
أولى سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .
(٢) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب انهما قالا : عن ابن هزيمة إن النبي (ص) قال
(لا يزني . . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها . وهو مؤمن)
صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ شَهِدًا عَذَابُهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى لَيْسَ كُونٍ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ ، وَلَيْسَ كُونٌ تَخْوِيفًا لِمَتَاعِي ذَلِكَ الْفِعْلِ ، ثُمَّ مِنْ حَقِّ الَّذِينَ بِشَهَادَتِهِ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا بِشَيْءٍ ، وَكَيْفَ عَصَمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . وَإِنْ جَرَى مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَتَذَكَّرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ كَيْفَ سَتَرَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَفْضَحْهُمْ ، وَلَمْ يُقِمِّهِمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَامَ فِيهِ هَذَا الْمُبْتَلَى بِهِ . وَسَبِيلٌ مِنْ يَشْهَدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَلَّا يُعَيَّرَ صَاحِبَهُ بِذَلِكَ ، وَأَلَّا يَنْبَغِي حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِقْدَامِهِ عَلَى جُرْمِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً

أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

النَّاسُ أَشْكَالٌ ؛ فَكُلُّ نَظِيرٍ^(١) مَعَ شَكَاةٍ ، وَكُلُّ يُسَاكِنُ شَكَاةً ، وَأَنْشَدُوا :
عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَتَنَدَّى

فَأَهْلُ الْفَسَادِ الْفَسَادُ يَجْمَعُهُمْ - وَإِنْ تَبَاعَدَ مَزَارُهُمْ (وَأَهْلُ السَّدَادِ السَّدَادُ يَجْمَعُهُمْ -
وَإِنْ تَنَاهَتْ دِيَارُهُمْ)^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا

بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

لثَلَا يَسْتَبِيحُوا أَعْرَاضَ الْمَسْلُومِينَ ، وَلَثَلَا يَهْتَكُوا أَسْتَارَ النَّاسِ أَوْرَ بِنَادِيهِمْ ، وَإِقَامَةَ
الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ .

(١) هَكَذَا فِي ص وَهِيَ فِي م (وَكُلُّ طَيْرٍ . . .) وَرَبَّمَا كَانَتْ (وَكُلُّ طَيْرٍ) أَوْ (فَكُلُّ طَيْرٍ) ، وَالْمَثَلُ
يَقُولُ : (الطَّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَتَعَمَّقُ) .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْمِينَ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي س .

ثم بَالِغٍ فِي عِدَدِ الشُّهُودِ ، وَأَلَّا تُقْبَلَ تِلْكَ الشَّهَادَةُ إِلَّا بِالتَّضَرُّعِ التَّامِّ ، ثُمَّ أَكْمَلَهُ بِقَوْلِهِ « وَلَا تُقْبَلُوا لِمِ شَهَادَةٍ أَبَدًا » . وَفِي الْخَبَرِ الْمُسْنَدِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ أَتَى مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذوراتِ فَلْيَسْتَرْ بَسْتِرَ اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَدْبَى لَنَا صَفْحَتَهُ ، أَقْبِنَا عَلَيْهِ حَدَّ اللَّهِ » (١)

قوله جل ذكره ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

جَمَلَ مِنْ شَرَطِ قَبُولِ شَهَادَتِهِ صِحَّةَ تَوْبَتِهِ ، وَجَمَلَ عِلْمَ صِحَّةِ تَوْبَتِهِ إِصْلَاحَهُ ، فَقَالَ : « وَأَصْلَحُوا » ، وَهُوَ أَنْ تَأْتَى عَلَى تَوْبَتِهِ مَدَّةٌ تَنْتَشِرُ فِيهَا بِالصَّالِحِ صِفَتُهُ ، كَمَا اسْتَهْرَتِ بِهَيْبَتِكَ أَعْرَاضُ الْمُسْلِمِينَ قَائِلَةٌ . كُلُّ هَذَا تَشْدِيدٌ لِمَنْ يَحْتِظُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرَ صِلَاحِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لِهِمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

لَمَّا ضَاقَ الْأَمْرُ عَلَى مَنْ رَأَى أَهْلَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ ، إِذْ أَنْ فِي ذَلِكَ قَبُولِ نَسْبٍ غَيْرِ صَحِيحٍ — فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ اسْتِحْقَاقِهِ وَلِدًّا مِنْ غَيْرِهِ . وَكَانَ أَمْرًا مَحْظُورًا هُنَاكَ عِرْضُ الْمَرْأَةِ وَالشَّهَادَةُ عَلَيْهَا بِالْفَحْشَاءِ ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ فِي الْمُعَيَّبِ ؛ أَيْ بِخِلَافِ مَا يَدَّعِيهِ الزَّوْجُ . وَلِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ ذُو خَطَرٍ شَرَعَ اللَّهُ حُكْمَ اللَّعَانِ (٢) لِيَكُونَ لِلْمَخْضُومَةِ قَاطِعًا ، وَلِلْمُهْدَمِ عَلَى

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ بِإِغْفَظَ : « اجْتَنَبُوا هَذِهِ الْقَاذوراتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ، فَمَنْ أَلَمَ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَلْيَسْتَرْ بَسْتِرَ اللَّهِ ، وَلْيَتَبَّ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَبْدُ لَنَا صَفْحَتَهُ نَقِمُ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ » (ص ١٥٥ ج ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للنواوي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(٢) اللَّعَانُ فِي الشَّرِيعَةِ أَنْ يُقْسَمَ الزَّوْجُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي قَذْفِ زَوْجَتِهِ بِالزَّانَا ، وَالْحَامِصَةِ بِاسْتِحْقَاقِهِ لَعْنَةَ اللَّهِ إِنْ كَانَ كَاذِبًا وَبِذَا يَبْرَأُ مِنْ حَدِّ الْقَذْفِ . ثُمَّ تَقْسَمُ الزَّوْجَةُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى كَذْبِهِ ، وَالْحَامِصَةِ بِاسْتِحْقَاقِهَا غَضَبَ اللَّهِ إِنْ كَانَ صَادِقًا فَتَبْرَأُ مِنْ حَدِّ الزَّانَا . وَقَدْ نَزَلَتْ آيَةُ اللَّعَانِ فِي هَلَالِ بْنِ أُمِيَّةٍ أَوْ عُوَيْمِرٍ حَيْثُ قَالَ وَجَدْتُ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ شَرِيكِ بْنِ سَعْدٍ فَكَذَّبْتَهُ ، فَلَا عَنِّي (ص) بَيْنَهُمَا . فَإِذَا قَذَفَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ بِالزَّانَا — وَهِيَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ — صَحَّ اللَّعَانُ بَيْنَهُمَا ، وَاسْتَخْلَفَ الْفَقْهَاءُ هَلْ تَقَعُ الْفَرْقَةُ بَيْنَهُمَا بِالتَّلَاعُنِ أَمْ بِتَفْرِيقِ الْقَاضِي .

الفاحشة زاجراً ، ففي مثل هذه الأحوال عنها خُرْجَةٌ^(١) . ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس . . من الذي يهتدى لمثل هذا الحكم لولا تعريف سماوى وأمر نبوى ، من الوحي مُتَلَقَّاهُ^(٢) ، ومن الله مُبْتَدَاهُ وإليه منتهاهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته وأنَّ الله توابٌ حكيمٌ ﴾ .

... لبقينم في هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشككة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين جاءوا بالإفكِ عصبةٌ ﴾

منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم . لكلٌ امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيمٌ ﴿

هذه قصة عائشة رضی الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيْنَ اللَّهِ — سبحانه — أنه لا يُخْلِي أَحَدًا من المحنة والبلاء ، في المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُسْتَحَنُّ الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ » ، وقال : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثمَّ الأُمَمُ فالأُمَمُ »^(٣) .

ويقال إن الله — سبحانه — غيرٌ على قلوب خواصِّ عباده ، فإذا حصلت مساكنةٌ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِي اللهُ ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأنشدوا :

إِذَا عَلِقَتْ رُوحِي بِشَيْءٍ ، تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الأَيَّامِ كِي تَسْلُبُنِيَّ

وإن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

(١) الخُرْجَةُ هي الخروج والخلص من أمر شديد .

(٢) هكذا في ص وهي في م (مستفاد) وكلامها صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للدوسيق اللفظية ، وربما كانت (مستفاه) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . . . وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فساكنها .

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك . . . » فأجرى الله حديث الأفك حتى ردَّ قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها إلى الله ، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله ؛ حيث قال - لما ظهرت براءة ساحتها : بحمد الله لا بجمدك كشف الله عنها به تلك المحنة ، وأزال الشك ، وأظهر صِدْقَهَا وبراءة ساحتها .

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله »^(١) ، فإذا كانت الفراسة صفة المؤمن فأولى الناس بالفراسة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءة ساحتها ، حتى كان يقول : « إن فعلمت فتوبى » . والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يسدُّ الله على أوليائه عيون الفراسة إكمالاً للبلاء . وكذلك إبراهيم - عليه السلام - لم يعيِّر ولم يعرف الملائكة حيث قدّم إليهم العجل الحنيد ، وتوهمهم أضيافاً . ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان - صلى الله عليه وسلم - يقول لعائشة : « يا حَمِيْرَاءَ » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبيها ، واستوحش الأبوان معها ، ومَرَضَتْ عائشة - رضى الله عنها - من الحزن والوجد ، كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول :

كيف بيتكم ؟ لا عائشة ولا حميراء ! فما كان يطيب بالتفاؤل عنها ، فتعبيده - إن لم يُفهم بالنصريح - فيفقه بالنلويح .

ثم إنه - سبحانه - قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم » : فبمقدار جرمهم احتمل كل واحدٍ ما يخصه من الوزر .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(١) الترمذى والطبرانى ، الترمذى من حديث أبي سعد ، والطبرانى وأبو نعيم بسند حسن عن أنس .

والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا
هذا إنك مُبينٌ .

عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراضِ وبَسَطِ ألسنتهم بالسوء عنها ، وترَكهم الإعراض
عن حُرْمِ النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهَلَّا جاءوا على ما قالوا بالشهداء ؟ وإذا لم يجدوا ذلك
فَهَلَّا سَكُتُوا عن بَسَطِ اللسان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته
في الدنيا والآخرة لمَسَّكُمْ فيما أفَضْتُمْ
فيه عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

لأنه أخبر أن جرْمهم — وإن كان عظيماً — فإنه في عِلْمِ الله عنهم غير مُؤَثِّر ، ولولا
أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلهذا لم يذكرْ هذه المبالغة في أمرهم ؛
فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده
وكونه يوفى ويربى على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ،
ولكن ما تعلّق به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك
عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تَلَقَّوْهُ بِاللَّسِنِمْ وَقَوْلُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

بألغ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تَأْدَى به قلبُ الرسولِ - صلى الله عليه وسلم -
وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : ﴿ وتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ : وسبيلُ المؤمن ألا يستصغَرَ في الوفاقِ
طاعةً ، ولا يستصغَرَ في الخلافِ زُلَّةً ؛ فإنَّ تعظيمَ الأمرِ تعظيمٌ للأمرِ . وأهل التحقيق
لا ينظرون ما ذلك الفعل وليكن ينظرون مَنْ الأمرُ به .

ويقال : يسيرُ الزلَّةُ — يلاحظها العبدُ بعين الاستحقار — فتُحِيطُ كثيراً من الأحوال ،
وتكدرُ كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يَسْتَقِلُّهَا الْعَبْدُ — ثم فيها نجاته ونجاة عالم معه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا

أَنْ نَتَنَكَّلَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

استماع الغيبة نوع من الغيبة ، بل مستمع الغيبة شرُّ المغتابين ؛ إذ بسامعة يَتِمُّ قَصْدُ صاحبه . وإذا سمع المؤمنُ ما هو سوءُ قائله في المسلمين — مما لا يصحُّ له في التحقيق — فالواجبُ الرَّدُّ على قائله ، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب ردُّ قائله بأحسن نصيحة ، وأدقِّ موعظة ، ونوعٍ تَشَاغَلُ عن إظهارِ المشاركة له فيما يستطيع من تشرُّه من إجحالٍ لقائله موحشٍ ، فإن أباي إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن ؛ لأنه إن لم يَسْتَحِ قائله من قوله فلا ينبغي أن يستحيَ للمستمع من الردِّ عايمه^(١) .

قوله جل ذكره ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يتعلَّق هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لِسَانَهُ فِي عَائِشَةٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية ، (ولعمري قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك)^(٢) ؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلَّم في هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إِذَا كُنْتَ أَخِي فَوَاسِي عِنْدَ شِدَّتِي ؛ فَإِنْ لَمْ تَوَاسِي لَمْ تَخْرُجْ عَنِ الْأُخُوَّةِ بِذَلِكَ » . . ومعنى هذا القول أنه ينبغي للأخ أن يواسي أخاه في حال عَثْرَتِهِ ، وتَرْكُ ذَلِكَ لَا يُبْطِلُ الذَّنْبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ

فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

(١) في هذه الوصية تتجلى نزعة التشيُّري فيها يمكن أن نسميه (آداب السلوك) ونزاع بعون الله أن نتجر بحثاً شاملاً عن « علم الأخلاق عند الصوفية » .
(٢) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م ، والمبارة هامة في توضيح الرأي في مرتكب الكبيرة ، ورد على من ياصقون وصمة الكفر — دون حساب — بالكثير من الناس .

الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم

لا تعلمون ﴿﴾

هؤلاء في استحقاق الذم أفتح منزلة ، وأشدُّ وزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين ، ومن أركان الدين مظاهرة المسلمين ، وإعانة أولى الدين ، وإرادة الخير لكافة المؤمنين . والذي يودُّ فتننةً للمسلمين فهو شرُّ الخلق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤهله لمنال خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنَّ

الله رؤوفٌ رحيمٌ ﴾

كرر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . . » لِيُبَيِّنَ للجميع أَنَّ حُسْنَ الدَّفْعِ عَنْهُمْ كَانَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجَمِيلِ الْمَنْحِ لَهُمْ ، وَكُلٌّ يَشْهَدُ حُسْنَ الْمَنْحِ وَيَشْكُرُ عَلَيْهِ ، وَعَزِيزٌ عَبْدٌ يَشْهَدُ حُسْنَ الدَّفْعِ عَنْهُ فَيُحْمَدُهُ عَلَى ذَلِكَ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾

إِذَا تَنَقَّى الْقَلْبُ عَنِ الْوَسْوَاسِ ، وَصَفَا عَنِ الْهَوَاجِسِ بَدَتْ فِيهِ أَنْوَارُ الْخُطُوطِ ، فَإِذَا سَمَا وَقَتَّ الْعَبْدِ عَنِ ذَلِكَ سَقَطَتِ الْخُطُوطُ ، وَبَدَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ الْخَلْقِ — سَبْحَانَهُ — كَمَا قَالَ فِي الْخَبَرِ : « لَقَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي فَعُمَرُ » . وَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ مِنْهُ فَذَلِكَ يَكُونُ تَعْرِيفًا يَبْقَى مَعَ الْعَبْدِ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ احْتِمَالٌ وَلَا إِشْكَالٌ وَلَا إِزْعَاجٌ ، وَصَاحِبُهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا ، غَيْرَ مُظْهِرٍ لِسِرِّ مَا كُوْشِفَ بِهِ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى

منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله

يزكى من يشاء والله سميعٌ عليمٌ ﴾

(١) أى يكثر في الحجة من يشكر على نعمة المنح ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجرى بأثر مدوس ، والثانية تجرى ولا يكاد يشعر بها المرء .
(٢) هنا نجد القشيري يطالب بالسكتمان دون الإفصاح في السكتمان حفظ للأمانة .

رَدَّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ في قسمي النفع والدفع ، وحالتى العسر واليسر ، والزَّكَى^(١) من الله ، والنَّعْمَى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة ﴾
 أن يؤتوا أولى القرْبَى والمساكين
 والمهاجرين في سبيلِ الله وليعفوا
 وليصفحوا ﴿

نَحْرَكُ في أبي بكرِ عِرْقُ من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع وخَاصَ في ذلك الحديث ، وكان في رفق أبي بكرٍ فقطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمر من الله في ذلك ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : « ولا يأتلِ أولو الفضل منكم . . » فلم يرضَ من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقُ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله في ماضى أيامه . والإحسان إلى المحسن مكافأة ، وإلى مَنْ لا يسىء ولا يحسن فضل ، وإلى الجاني قُتُوَّةٌ وَكَرَمٌ^(٣) ، وفي معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعمو عن كلِّ زَلَّةٍ حنى أنالوا كَفَمَهُ وأفادوا

قوله : « وليعفوا وليصفحوا » : العفو والصفح بمعنى ، فسكروها تأكيدياً .

ويقال العفو في الأفعال ، والصفح في جنائيات القلوب^(٤) .

(١) الزكى والزكاء = النماء والزيادة ، وزكى الشيء = أصاحه وطهره .

(٢) مسطح ابن خالة أبي بكر ، وكان مسكيناً ، بدرطاً مهاجراً ، كان يتفق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن ينفق الله لى ، ورد إلى مسطح نفقته رغم ما خاض في عائشة رضى الله عنها .

(٣) يمكن ان يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عنده التشيرى « لفتوة » في رسالته .

(٤) نعرف عن التشيرى أنه لا يتحسس كثيراً للقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التمييز بين العفو والصفح عقيب ذكره أنهما بمعنى .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا يُحْمِونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذا من كمال تعلقه — سبحانه . وفي الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر —
رضي الله عنه : « بلى ، أحبُّ ياربُّ » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا يعادر في قلوب
أوليائه كراهة من غيرهم ، وأنتى بالكراهة من الخلق والمنفرد بالإيجاد الله ؟! وفي معناه أشدوا :

رُبَّ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بَدَأً مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْهِ
فَعَسَى أَنْ يَطَّلِعَ اللَّهُ عَلَى قَدْحِ الْقَوْمِ فَيَدِينُنِي إِلَيْهِ

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ
الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم .

ووصف المحصنات بالغفلة : أى بالغفلة عما يُنسَبُ إليه ، فليس الوصف على جهة الذم ،
ولكن لبيان تباعدهن عما قيل فيهن .

واستحقاق القَدْفَةِ لِلْعِنَةِ — في الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشؤم زلتهم تنفير
عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم
عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه نَظَرَ بِي ، تشهد بأنه بكى بِي .. وكذلك
سائر الأعضاء .

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في امر عائشة .
وهنا تعظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ويقال شهادةُ الأعضاء في القيامة مؤجَّلةٌ ، وشهادتها في الحبة اليوم مؤجَّلةٌ ؛ من صُفْرَةٍ وجهه إذا بدا المحبوب ، وشحوب اللون ، ونحافة الجسم ، وانسكاب الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

يجازيمهم على قدر استحقاقهم ؛ للعابدین بالجنانِ والمثوبة على توفية أفعالهم ، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفية أحوالهم ؛ فهؤلاء لهم علوُّ الدرجات ، وهؤلاء لهم الأُنس بعزیزِ المشاهدات ودوام المناجاة .

« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » : فتصيرُ المعرفةُ ضرورةً ؛ فيجدون المعافاة من النظرِ وتدَّكره ، ويستريح القلبُ من وُصْفِي تَرَدُّدِهِ وَتَعْيِيرِهِ : (لاستغناؤه ببصائرهِ عن تبصيره) (١) .

ويقال لا يشهدون خدأ إلا الحق ؛ فهم قائلون بالحق للحق مع الحق ، يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائم عنهم ، والآخذ لهم منهم من غير أن يُردَّهم إليهم .

قوله جل ذكره: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾

« الخبيثات » : من الأعمال وهي المحظورات « للخبيثين » : من الرجال المؤثرين لهاطوعاً ، والذين ينجحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلُّ مربوط بما يليق به ؛ فالفعل لائقُ بفاعله ، والفاعلُ بفِعْله في الطهارة والقُدرة ، والنفاسة والحساسة ، والشرفِ والسرفِ .

ويقال « الخبيثات » : من الأحوال ؛ وهي المحظوظة والثمينة والشهوات لأصحابها والساعين لها . والساعون لمثلها لها ، غير ممنوعٍ أحدهما من صاحبه ، فالصفةُ للموصوف ملازمة ، والموصوفُ لصفته ملازمٌ .

(١) هكذا في النسختين ، ويكون مراد القشيري أنه لم يمد مجال التبصر فقد أصبح الشهود عياناً ، وتحققت لهم الرؤية البصرية التي لم ينالوها في الدنيا ، وتفهم أن القشيري لا يرى الرؤية العيانية إلا في الآخرة .

ويقال « الخبيثات » : من الأشياء للخبيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالمنازل السحيقة وإنَّ طعامَ الكلابِ الحَيْفُ .

ويقال « الخبيثاتُ » : من الأموال — وهي التي ليست بحلالٍ — لمن بها رتبته ، وعليها تعسك همتُه ، فالخبيثون من الرجال لا يملون إلاّ لمثل تلك الأموال ، وتلك الأموال لا تساعد إلاّ مثلاً أو لثك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هي الطاعات والقربُ للطيبين ، والطيبون هم المؤثرون لها والساعون في تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهي تحقيق المواصلات بما هو حقُّ الحق ، مجرّداً عن الخطوط — « للطيبين » من الرجال ، وهم الذين سمّتهم عن كلِّ مُبتدّلٍ خسيس ، ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالي ، وهي التجملُ بالتدليلِ لمن له العِزَّةُ .

ويقال الطيبات من الأموال — وهي التي لانكبرَ للشرع عليها ، ولا مَغْفَةٌ لمخلوقٍ فيها — للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلصوا من رِقِّ الكون .

ويقال « الطيبات » من الأشخاص وهن المبرّاتُ من وهج الخطر، المنتقيات عن سفاسف أخلاق البشرية ، وعن التعرّيج في أوطان الشهوات — « للطيبين » من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ ؛ لا يصحبون الخلقَ إلاّ للتعفُّفِ ، دون استجلابِ الشهوات .

﴿ لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾

لهم مغفرةٌ في المآل ، ورزقٌ كريمٌ في الحال وهو ما ينالون من غير استشرافٍ ، ولا تطلبِ طعمٍ ، ولا ذلٌّ منةً^(١) ، ولا تقديمِ تعبٍ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتدخلوا بيوتاً غير

(١) أي (منةً) من مخلوق .

(٢) (التعب) الذي ينشأ عن الاستمجال وعدم التفويض ونقص الثقة .

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا
على أهلها ذلك خير لكم لعلكم
تذكرون ﴿

الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً يتفردون به ؛ لأمين الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة ، فمن فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم منفع ولا زجر ، ولا حجب لأحد ولا خطر . . . هذا فيما نيط بهم . أما فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرضون لمن هم في أيديهم ؛ لا باستشراف طمع ، ولا بطريق سؤال ، ولا على وجه انبساط^(١) . فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يلجئ من في يده الشيء ليوجهه إليه بحكم التواضع والتقرب ، والولي يأخذ ذلك بنعمت التعزز ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة^(٢) ، وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

وإني لأستحي من الله أن أرى أسيراً بخيل ليس منه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره ويعرف ربّي في البلاد كثير

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً
فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾

في هذا حفظ أمر الله وحفظ حرمة صاحب الدار ؛ لأن من دخلها بغير إذن صاحبها ربما تكون فيها عورة منكشفة ، وربما يكون لصاحب الدار أمر لا يريد أن يطلع عليه غيره ، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان .

﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو
أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾

(١) يقول السرى السقطي في مثل هذا السياق : « أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة . فقبل له ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً » الرسالة ص ١١ .

(٢) أي بأرباب الطريق الصوفي .

إن قيل لكم : ارجعوا .. فارجعوا ؛ فقد تكون الأعداءُ قائمةً ، وصاحبُ الملكِ
بملكه أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا
بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم
والله يعلم ما تبدون
وما تكتمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجَنَاحَ والخَرَجَ في الانْتِفَاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبه بغير إذنه ؛ كدخول
أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاء حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن
في دخوله ضررٌ على صاحبها ، وجرى هذا مجرى الاستئذان بظلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً
في ملكه ، وكالنظر في المرأة المنصوبة في جدار غيره .. وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون
قضية العقل — على ما توهمه قومٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى
لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المحرمات ، ومن أبصار القلوب عن الفكر الرديئة ،
ومن تصور العائيات عن المعاينة^(١) ، ولقد قالوا : إنَّ العينَ سببُ الحزنِ ، وفي معناه أنشدوا :
وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك — يوماً — أتعبتكَ المناظرُ
وقالوا : من أرسل طرفه اقتضى حنقه .

وإن النظرَ إلى الأشياءِ بالبصرِ يوجبُ تفرقةَ القلوبِ .
ويقال إن العدوَّ إبليسٌ يقول : قوسى القديمُ وسهمى الذى لا يخطئ النظرُ . وأرباب

(١) ربما يقصد التشبىر ان ينهى عن إقدام فسكره النظر بالعين في الأمور الغيبية ، وعمى آخر النهى
عن إخضاع كل شيء للحس ، فطبيعة الغيبيات تختلف عن ذلك ؛ وإلا كنت كمن يحاول عبور الماء فوق جواد ،
او يعبر اليابسة وهو في سفينة — على حد تعبير جلال الدين الرومى في سياق مماثل .

المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المحسّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة (١) .

ويقال قَرَنَ اللهُ النهى عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفرج فقال : « ويحفظوا فروجهم » تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر ؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُهَّاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيمية كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق — سبحانه — يكشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَحْضُرْنَ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجِهِنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظورات ، والندبُ والنقلُ لمن صَوْنَ القلب عن الشواغل والخواطر الرديئة ، ثم إن ارتقين عن هذه الحالة فالتمامى بقلوبهن عن غيرِ المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الحظر ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات في الآجل ، والتصاوت عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخلق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفي الجملة ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أن للنساء عورةً ولا يجوزُ لهن إبداء زينتهن فكذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سراره (٢) من صفاء أحواله ، وزكاه أعماله

(١) سقطت (الرياضة) من النسخة ص .

(٢) هنا يحدد التشبُّرُ رايه بدقه في قضية الإفصاح والكتمان . فالأصل عنده الـكتمان ، فإذا افصح العبد فلا يكون ذلك إلا لا اضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه بعيد عن التمثل والتكاف .

اقلب زَيْنَهُ شَيْنًا ، إلا إذا ظهر على أحدٍ شئٌ — لا بنعمه ولا بتكلفه — فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذ بما لم يكن يتصرفه ، وتكلفه ، فنوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُستثنى حُكْمُهُنَّ عَنِ الْحُظْرِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾

تُرَاعَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ آدَابُ الشَّرْعِ فِي الْإِبَاحَةِ وَالْحُظْرِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

التوبة الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعالِ إلى أضرارها المحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزلَّةِ وهي توبة العوام ، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص . . . وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمرُ الكافةِ بالتوبةِ ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ الخِصَّصُ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفق .

ويقال أمرُ الكلِّ بالتوبةِ لئلا ينجَلَ العاصي من الرجوع بانفراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رِفْقًا بِهِمْ — من أمارات الكرم .

ويقال في قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يتبين أَنَّهُ أَمْرٌ بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحق — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم تجميلٌ .

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبة من تَوَهَّم أَنَّهُ لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ إِلَى التَّوْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ﴾

(١) يصلح هذا نموذجاً (للقياس) إن اردنا بحث ما اسميناه (الفقه الصوفي) .

مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا
فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

إذا كان القصدُ في المناكحة التَّادِبَ بِأَدَابِ الشَّرْعِ يَكْفِي اللَّهُ بِرِكَانِهِ مَطَالِبَاتِ النَّفْسِ
وَالطَّبْعِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ إِلَى التَّعْفُفِ ثُمَّ رَجَاءُ نَسْلِ يَوْمٍ بِحَقِّ اللَّهِ (١) .
قوله : « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي مَنْ فَضْلِهِ : يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ ، أَوْلَىٰ بِالنَّفْسِ ثُمَّ غَنَى
الْقَلْبِ ، وَغَنَى الْقَلْبِ غَنَى عَنِ الشَّيْءِ ، فَالغِنَى عَنِ الدُّنْيَا أَيْ مَنِ الْغِنَى بِالدُّنْيَا .
وَيَقَالُ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ فِي الْحَالِ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ وَالْمَالِ .

قوله جل ذكره : « وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٢﴾

مَنْ تَقَاصَرَ وَسَعَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ فَلْيَصْبِرْ عَلَى مَقَاسَاةِ التَّحَمُّلِ فِي الْحَالِ ، فَعَنْ
قَرِيبٍ تَجِيبُهُ نَفْسُهُ إِلَى سَقُوطِ الْأَرْبِ ، أَوْ الْحَقِّ — سَبْحَانَهُ — يَجُودُ عَلَيْهِ بِتَسْمِيلِ السَّبَبِ
مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَلَا تَخْلُو حَالُ الْمُتَعْفِفِ عَنِ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْنُونَ السُّكَّانَ بِمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ
فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي آتَاكُمْ

أَيُّ إِنْ سَمَّحَتْ نَفْسُكُمْ بِإِزَالَةِ الرَّقِّ عَنِ الْمَالِكِ — الَّذِينَ هُمْ فِي الدِّينِ إِخْوَانُكُمْ —
مِنْ غَيْرِ عَوَاضٍ تَلَاخِظُونَ مِنْهُمْ فَلَنْ تَحْسُرُوا عَلَى اللَّهِ فِي صَفْقَتِكُمْ . وَإِنْ أَيْتِمَّ إِلَّا الْعَوَاضُ
وَدَعُوا إِلَى السُّكَّانَةِ ، وَعَلِمْتُمْ بِغَالِبِ ظَنِّكُمْ صِحَّةَ الْوَفَاءِ بِمَالِ السُّكَّانَةِ مِنْ قِيَمَتِهِمْ فَكَاتِبُوهُمْ (٢) ،

(١) كذلك دعا الأنبياء ربهم حين طلبوا الذرية .

(٢) المسكينة أن يقول للملوك : « كاتبك على ألف درهم » مثلا ؛ فإن أداها عتق ، ومعناها كتبتك
عليك بالوفاء وكتبتك على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجهٍ ؛ من قدرٍ يحط من مال الكتابة ، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة^(١) ، وإمهالٍ بقدرٍ ما يحتمل المسكاتب ليكون ترفيهاً له .

وإذا كنا في الشرع ، أمورين بكل هذا الرفق حتى يصل المملوك المسكين إلى عتقه فبالحرى أن يسمو الرجاء إلى الله بجميل الظن أن يُعتق العبد من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسمه — من عناء قاساه ، وفضل من الله — عن قديم — رجاءه^(٢) .

ثم في الخبر : « إن المسكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم » : والعبد يسعى بجهد ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكامل رقة وليس في الحقيقة بحرٌ .. فالمسكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِقَاءِ
إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَعُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يَكْرَهُنَّ فَإِنَّ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

حاملُ المعاصي على زلته ، والداعي له إلى عثرته ، والمُعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وبمكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ
وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِينَ ﴾

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسهم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة ربماً .

(٢) للنسفي كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد التشبيري حيث يقول : لا يابد كالمبد فهو يشتري نفسه من ربه بنجوم مرتبة ليعسى في فسك رقبته خوفاً من البقاء في ربة العبودية وطعماً في فتح باب الحرية ليرح في رياض الجنة ، فعليه في اليوم واليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

لم ينادر على وجه الدليل غُيْبَةٌ^(١) ، ولم يترك الحقُّ — سبحانه — للإشكال محلاً ؛ بل أوضح المنهاج وأضاء السراج ، وأثار السبيلَ وألح الدليل ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَبْصِرَ فَلَا يَلْحَقْهُ نَصَبٌ ، وَلَا يَمْسُهُ تَعَبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾

أى هادى أهل السموات والأرض ، ومنه نورها . والذى منه الشيء يسمى باسمه الشيء . ومنه نور السموات والأرض خَلْقًا ؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منورها وخالقُ ما فيها من الضياء والزينة ، ووجودُ ما أودعها من الأدلة اللامحة .

ويقال نورُ اللهُ السماءَ بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »^(٢) فكذلك زينَ القلوبَ بأنوارِ هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد^(٣) ، فلكلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَارِ مَطْرَحٌ شَاعِرٌ بِقَدْرِهِ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَقْصَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجيةِ كأنها كوكبٌ درىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضَىءُ وَلَوْ لَمْ تَنَسَهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قاب المؤمن وهو معرفته ، فشبه صدره

(١) الغبرة = لطف الغبار .

(٢) آية ١٢ سورة فصات .

(٣) نلت النظر إلى أهمية هذا الترتيب في توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهي تدرج في الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى شمس الشمس .

بالمشكاة ، وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة ، وشبه القنديل — الذي هو قلبه — بالكوكب الدرّي ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدّ السراج في الاشتغال . ثم وصف الزيت بأنه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خالٍ منه . ثم وصف ذلك الزيت — في صفوته — بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسه نار .

ويقال إن ضربَ المثل لمع رفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الختفي ، فما كان يهودياً — وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب ، ولانعرانياً — وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونور معرفته . وقد من شجرة هي إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالعشى دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشى ، بل تصيبه الشمس طول النهار ليم نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيتيه . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يعتدلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيتيم أنفسهم ، وقبضهم بسطهم ، وصحومهم محوهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامهم بأداب الشريعة تحققهم بجوامع الحقيقة (١) .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أي أن همهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا دلوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عرشاً ولا كرسيّاً ، سطعت (٢) عن الأكوان ، ولم نجد سيلا إلى الحقيقة ، لأن الحق منزّه عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالخلق غير

(١) فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه بين طرفي الأحوال حتى يصفو له .

(٢) هكنا في م وهي في ص (سطعت) وربما قبلناها فالسياق لا يرفضها .

متصلة^(١)؛ وهذه صفة الغرباء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرج في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرَه بِسُرَاهِ فِي اسْتِمَالِ فِكْرِهِ ، والحق يمه : بنور التوفيق حتى لا يصدّه عن عوارض الاجتهاد شي من حُبِّ رياسة ، أو ميلٍ لسوء ، أو هوادة . فإذا أسفر صُبحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجهد ، وحصول الوجدِ عند أداء الورد .

ثم بعده نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوع نهار الموادلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارهم سحابٌ ولا في هواها ضبابٌ ، قال تعالى : « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نظرَ في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور الماينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرعُ كأساتِ نَدَمِهِ ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِهِ ، والتَّنَقُّي عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كوشفَ بنور المراقبة ، فيعلم أنه — سبحانه — مُطَّلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلى الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلاً نهاراً ، ونجومه أقماراً ، وأقماره بدوراً ، وبدوره شمساً . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم لا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ ، فالعبارات — عند ذلك — خُرُسٌ ، والشواهد طُمَسٌ ، وشهود الغير عند ذلك محال^(٢) . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرَت ، وإذا العشار عطلت »^(٣) ، « وإذا السماء انشقت ، وانفطرت . . »

(١) هذا نموذج للتصوف الإسلامي الحق الذي لا تشوية شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب والعبد عبد ، ولا تداخل بينهما .
(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فنى العبد عن نفسه وعن الغير الله تماماً فناء ذوقياشهودياً ، لا فناء طبيعياً كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .
(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام الكون . وما من العدم لهم صار إلى العدم . القائم عنهم غيرهم ، والسكان عنهم سواء . وجلت الأحديّة وعزت الصمديّة ، وتقدّست الديمومية ، وتنزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾

فيها اسمه يُسَمَّحُ له فيها بالعدوِّ

والأصل * رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ

ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام

الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿

للمساجدُ بيوتُه — سبحانه — وإنَّ الله أذن أن ترفع الحوائجُ فيها إليه فيقضيهما ، ورفع أقدار تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار . المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة ؛ فالعابدُ يَهْلُ بعبادته إلى ثوابِ الله ، والقاصدُ يصل بارادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مشاهدُ المحبة ، والأمراضُ محالُ المشاهدة .

قوله : ﴿ يسبح له فيها بالعدو ﴾ لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، فإنَّ أمكن الجمع بينهما فلا بأس — ولكنه كالتعذر — إلا على الأكابر الذين تجرى عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون (١) .

ويقال هم الذين يؤثرون حقوقَ الحقِّ على حظوظِ النفس .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حتى على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ،

وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : ﴿ هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم

من عذابٍ أليم ﴾ عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عَوْضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يخافون يوماً ما تتقلب فيه القلوبُ

والأبصارُ ﴿

(١) هذا رأى حاسم في مدى وجوب السعي من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير الموقف

من يعجزون عن ذلك .

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لهم ، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛
فإنَّ حَقِيقَةَ الخوفِ تَرَقُّبُ العُقوباتِ مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الحِسَابَ مِنَ الوَسْطِ يَرْفَعُ مَعَهُ الحِسَابَ (١) ، وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ بِطَالِبَاتِهِ فَالوِزْنُ
يَوْمَئِذٍ الحَقُّ .

والرزقُ بغيرِ حسابٍ في أرزاقِ الأرواحِ ، فأماً أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ ؛
لأنَّ أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهى وجودٌ أفضالٌ وفنونٌ نوالٍ . وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ
الحوادثِ فلا بُدَّ أنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ المَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجلالِ والجلالِ فذلك
على الدوامِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ

بِقِيَمَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمُونَ مَاءً حَتَّى
إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ
اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَآءَ حِسَابِهِ ، وَاللَّهُ
سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ ﴾ (٣) . وَمَنْ أَمَلَ السَّرَابَ شَرَابًا فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ تَخْيِيلًا ؛
فَالعَطَشُ يَزِدُّهُ ، وَالرُّوحُ تَدْعُو للخروجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كُظُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ

(١) وربما يقصد القشبرى من هذه العبارة أولئك الذين يمدون الله لذاته دون حساب في العلاقة لتواب
أو عقاب ، ويتأيد ذلك بقوله في العبارة التالية (ومن هو في أسر مطالباته ..) أى من ابتغى العوض ؛
لأنه يكون على حد تعبير رابعة كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَسْكَدْ
بِرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ❀

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالي الجحدي ، وحنادسُ الشكِّ إذا اجتمعت
فلا سِراجَ لصاحبِها ولا نجوم ، ولا أقمارَ ولا شمس . . فالويلُ ثم الويل !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لعبدي نورُ القسمة ،
ولم يساعده تعلقُ فجهده وكده ، وسعيه وجهده عقيمٌ من ثمراته ، موئسٌ من نيلِ بركانه .
والبداياتُ غالبيةٌ للنهايات ؛ فالتبولُ لأهله غيرُ مُجْتَلَبٍ ، والردُّ لأهله غيرُ مُسْتَسَبِّ .
وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادةِ في عِلمِهِ في آزاله ، وأراد كونَ ما عِلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر
أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعِلِمَ^(١) .
وهكذا القول في الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ ، ولا تنوُّجُهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ
صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ❀

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالةٍ وخَلْقٍ ؛ فتسبيحُ
الخالقِ عامٌ من كلِّ مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحُ خاصٌ بالحيوانات ، وتسبيحُ خاصٌ
بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير
بصيرة ؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذي تجرَّد عن العرفان مردودٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالِىُّ الْمَصِيرِ ❀

(١) هذا شرح جميل لفكرة التشبيري عن : « الله خالق أفعال العباد » التي هي إحدى أصول عقيدته الكلامية ،

المَلِكُ مبالغةٌ من المَلِكِ ، والمَلِكُ القدرة على الإيجاد ؛ فالمتغيرات - قَبْلَ وجودِها -
للخالق مملوكة ، كذلك في أحوال حدوثِها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه ، فَمَلِكُهُ
لا يحدث ولا يزول ولا يُعْمَلُ شَيْءٌ منه إلى البطول .

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ
يُؤْتِفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْمَعُ رُكُومًا فتنزى
الودقَ يخرج من خِلالِهِ وَيُنزِلُ من
السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيصيب
به مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عمن يَشَاءُ
يكاد سَنًا بَرَقَ يذهب بالأبصارِ *
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ .

تعرف إلى قلوب العلماء بدلالات صنعه في بديع حكمته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ،
وشمول علمه وحكمته ، ونفوذ إرادته ومشيتته . فمن أنعم النظر وصل إلى برود اليقين ، ومن
أعرض بقي في وهدة الجهل وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخارات البحر ، وتصعد بتسييره^(١) وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ،
ثم يدبرها إلى سمتٍ يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة
قطرة ؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عذب فيقلبه عذبا ، ويسحبه السحاب
سكبا ، فيوصل إلى كل موضع قدراً يكون له مراداً معلوماً ، لا بالجهد من المخلوقين يُسَكُّ
أو يُنزلُ ، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المسكان الذي لا يُمطره^(٢) .

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَكَذَلِكَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مِنَ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ . . . ذَلِكَ تَقْدِيرُ
العزيز العليم .

(١) ربما كانت في الأصل (بتسييره) وكلاهما مقبول في السياق .

(٢) نفي الجهد والحيلة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَهُمْ مِنْ مَيِّمٍ عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يريد خلق كل حيوان من ماء، يخرج من صلب الأب وتربية الأم^(١). ثم أجزاء الماء متساوية مائة، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختص كل عضو وينفرد كل شئ^(٢) بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والبنية. ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والخطاب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسنّ ونخّ وعصب وعرق وشعر. فالنظر في هذا — مع العبارة به — يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل.

قوله جل ذكره: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

الآيات بيّنة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويلبس على آخرين، والذي سُدَّ بصره أئى ينفعه طلوع الشمس والنجوم؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أئى تنفعه شواهد الماوم ودلائل الفهوم؟ وقالوا في معناه:

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم

قوله جل ذكره: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(١) وردت (تربة) والصواب أن تكون (تربية) الأم وهي عظمة الصدر مما يلي الترقوتين والجمع ترائب.

(٢) الشئ = العضو.

يستسلمون في الظاهر ويُقِرُّون باللسان ، ثم الخالص يبقى على صدقه .
والذي قال لخوف سيف المسلمين ، أو لِعِرَاضِ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك ، وينحاز
إلى جانب الكفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾
علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم ، فمن علم أنه قاسط في خصومته لم يطب نفساً بحكمه .
وكذلك المريب يُهَرَّبُ من الحق ، ويجتهد في الفرار (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُدْعِينَ ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذي يميل
بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نقي بالقطع
ولا إثبات بالعلم ، فهم متطوِّحون في أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ
يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فلمَّا انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظلم الشك ، ولما لم يكن لهم يقين
في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُقْلِحُونَ ﴾ .

(١) ذكر الواحدى في « أسباب النزول » ص ٢٢١ ان هذه الآية نزلت في بشر المنافق وخصه
اليهودى حين اختصا في ارض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المنافق
يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا . . . إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ماضونهم من التحقيق .
ومن يقابل أمر الله بالطاعة ، ويستقبل حكمه بالاستخاء . . فأولئك هم الصادقون
في الحقيقة ، السالكون في الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
أَمَرَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا
طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل ،
فقال : لا تعدوا بما هو معلوم منكم ألا تفروا به ؛ فطاعة في الوقت أولى من تسوية بالوعد .
ثم قال : قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ . . فان أجابوا سعدوا في الدارين ،
وأحسنوا إلى أنفسهم . وإن تولوا عن الإجابة فما أضروا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل
عليهم ، وسوف يلقون سوء عواقبهم ، وليس على الرسل إلا حُسنُ البلاغ . ويوم الحشر
يُعْطَى كُلُّ أَحَدٍ كِتَابَهُ ، وَيَعْمَلُ بِمَقْتَضَى حِسَابِ نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَأَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ،
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وَعَدَّ اللَّهُ حَقُّ وَكَلَامُهُ صِدْقٌ ، وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ لِأَنَّهُ — بِالْإِجْمَاعِ —

لم يتقدمهم في الفضيلة — إلى يومنا — أحد^(١)؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم ، وصدق وعدُّ الله فيهم ، وهم على الدين المرضي من قبل الله ، ولقد آمنوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبُّ عن حوزة الإسلام أحسن قيام .

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده ، الهادون مَنْ يسترشدُّ في الله ؛ إذ الظَّلُّلُ في أمر المسلمين من الولاة الظَّلمة ضررُهُ مقصورٌ على ما يتعلق بأحكام الدنيا ، فأما حفاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قومٌ هم حفاظُ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزانة ، وقوم هم علماء الأصول الزادون على أهل العناد وأصحابِ البدع بواضح الأدلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجعائه .

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والديبات ، وما في معاني الأيمان والنذور والدعاوى ، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في المَلِك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخوادم المَلِك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معمورٌ بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرضِ وماواهم النارُ ولا يُسَّسَ المصيرُ ﴾ .

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةٌ ولكنها تخمِيل — وما لذلك بقاء — وأقلُّ لبُشًا من عارضٍ ينشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لَيسَتَأذِنكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم

(١) في م بهدما (وما بهدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ أَمْرَاتٍ مِنْ
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ... » (١)

ضَيِّقُ الْأَمْرِ مِنْ وَجْهٍِ وَوَسْعُهُ مِنْ وَجْهٍِ ، وَأَمْرٌ بِمِرَاعَاةِ الْإِحْتِيَاظِ وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ لِأَحْكَامِ
الدِّينِ وَمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحُرْمِ ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ مَخَافِ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا كَانَتِ الْجَوَانِبُ مُحْرَمَةً صَارَتِ
الْمَخَافُ مَأْمُونَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ
وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يحدث تأثيرٌ بالمضرة لبنيات الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا
سكنت تلك الثائرة سهل الباب ، وأبيحت الرخصة وأُميت الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ .

إذا جاءت الأعداء سهل الامتحان والاختيار ، وإذا حصلت القرابة صعدت الحشمة ،
وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط
صحَّت المباشرة في الارتفاق .

(١) ذكر ابن عباس أن الرسول (ص) وجهه غلاما من الأنصار يقال له مدج بن عمرو إلى عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كرهه عمر رؤيته ذلك ، فقال :
يا رسول الله : وددت لو ان الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية .
وقال مقاتل نزلت في أسماء بنت مرثد حين دخل عليها غلام كبير في وقت كرهته فشكت إلى رسول الله .
فأنزل الله هذه الآية .

(٢) بنات الصدور تعبير بالكناية عن الأسرار والحواطر .

ثم قال : « أو صدقكم » : وعزيزٌ من يصدقُ في الصداقة ؛ فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر ، ولا يكون في الوجه كالمراة ومن ورائك كالمقراض ، وفي معناه ما قلت :

من لي بمن يثق الفؤاد بوده فاذا ترحل لم يزغ عن عهده
يا بؤس نفسي من أخ لي باذلٍ حسن الوفاء بوعده لا تقده
يولي الصفاء بنطقه لا خلقه ويدسُّ صاباً في حلاوة شهده
فلسانه بيدي جواهر عقده وجنانه تغلي مراجل حقه
لا همم إني لا أطيق مراسه بك أستعيد من الحسود وكينه

(وقوله : « أو صدقكم » من تؤمن منه هذه الخصال وأمثالها) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾

السلامُ الأمان ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلمَ من الله على نفسه ؛ أي يطلب الأمان والسلامة من الله لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضاه الله ، إذ لا يجزئ لتسلم أن يفتر لحظة عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه — سبحانه — ظلَّ عِصْمَتِهِ ؛ بإدامة حفظه عن الاتصاف بمكروه في الشرع (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنونك

(١) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٢) في هذه الإشارة غمز بصحاب البدع الذين يرتكبون ما يخالف الشرع بدهوى الوله والانعاء .

لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتُمْ
مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٤٠﴾

شرطُ الاتباع موافقة المتبوع ، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » (١) والعلماء وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، والمريدون لشييوخهم كالأمّة لنبيهم ؛ فشرطُ المريد ألا يَتَمَقَّسَ يَنْفَسٍ إِلَّا بِأَذْنِ شَيْخِهِ ، وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ فِي نَفْسٍ سِرّاً أَوْ جَهراً — فإنه يرى عِجَبَهُ سريعا في غير ما يُحِبُّهُ . ومخالفةُ الشيوخ فيما يستمرونه (٢) عندهم أشدُّ مما يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالحياة . وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ لَا يُشْمُ رَأْحَهُ الصَّادِقِ ، فَإِنْ بَدَّرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَلِيهِ بِسْرَعَةِ الْاعْتِنَارِ وَالْإِفْصَاحِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْخِلَافَةِ وَالْحَيَاةِ ، لِإِهْدِيَةِ شَيْخِهِ إِلَى مَا فِيهِ كَفَّارَةٌ جُرْمِهِ ، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه . وإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وَجَبَ عَلَى شَيْخِهِ جَبْرَانٌ تَقْصِيرُهُ بِهَمَّتِهِ ؛ فَإِنْ الْمُرِيدِينَ عِيَالٌ عَلَى الشُّيُوخِ ؛ فَرُضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قُوَّةِ أَحْوَالِهِمْ بِمَا يَكُونُ جَبْرَانًا لِتَقْصِيرِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ

الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ﴿٤١﴾

أى عَظُمُوهُ فِي الْخُطَابِ ، واحفظوا في خدمته الأدب ، وعانقوا طاعته على مراعاة

الهيبة والتوقير .

قوله جل ذكره : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره (٣)

أَنْ تُصِيبَهُمْ فَتَنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤٢﴾

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) في ص (يستثرونه) وفي م (يستترونه) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) فينتظم السياق بها .

(٣) يقال خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

سعادة الدارين في متابعة السنّة ، وشقاوة المنزّلين في مخالفة السنّة . ومن أيسر ما يُصيب
من خالف سنّته حرمانُ الموافقة ، وتعدُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ ^(١)
إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(٢)﴾

إِنَّ لِلْيَوْمِ عَدْلًا ، وَلَمَّا يَفْعَلُ الْعِبْدُ حَسَابًا ، وَسُيْطَا أَبُ الْمَسْكَفِ بِالصَّغِيرِ وَالسَّكْبِيرِ ،
وَالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ جَلِيلٌ شَهِدَتْ بِجَلَالِهِ أَعْمَالُهُ ، وَنَطَقَتْ بِجَمَالِهِ أَفْضَالُهُ . دَلَّتْ عَلَى إِثْبَاتِهِ آيَاتُهُ ،
وَأَخْبَرَتْ عَنْ صِفَاتِهِ مَفْعُولَاتُهُ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ عُرِفَتْ بِفِعْلِهِ قُدْرَتُهُ ، اسْمٌ كَرِيمٌ شَهِدَتْ بِفَضْلِهِ نَصْرَتُهُ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ عَرَفَهُ الْعُقَلَاءُ بِدَلَالَاتِ أَعْمَالِهِ ، وَعَرَفَهُ الْأَصْفِيَاءُ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِجَلَالِهِ
وَجَمَالِهِ ، فَبَلَطَفَ جَمَالُهُ عَرَفُوا جُودَهُ ، وَبَكَشَفَ جَلَالُهُ عَرَفُوا وَجُودَهُ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ مَنْ دَعَاهُ لِبَّأَهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَّأَهُ ، وَمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَكْرَمَهُ
وَأَوَّاهُ ، وَمَنْ تَنَصَّلَ إِلَيْهِ ^(٣) رَحِمَهُ وَأَدْنَاهُ ، وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ أَشْكَاهُ ^(٤) ، وَمَنْ سَأَلَهُ خَوَّلَهُ وَأَعْطَاهُ .

(١) وفي قراءة (يَرجعون) بفتح الياء وكسر الجيم .

(٢) بروي أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجهٍ لو سمعت
الروم به لأست .

(٣) تنصل إليه هنا معناها تبرأ من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبل الشكاة وأعان الشاكي .

قوله جل ذكروه : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده
ليكون للعالمين نذيراً ﴾

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفه على ظهر الماء . ومَبَارِكُ الإبلِ مواضعُ إقامتها
بالليل . وتبارك على وزن تَفَاعَلَ تفيد دوامَ بقاءه ، واستحقاقه لِقَدَمِ ثبوته وبقائه وجوده
لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع .

وفي التفاسير « تبارك » أى تعظّم وتكبّر . وعند قومٍ أنه من البركة وهى الزيادة
والنفع ، فدوامه وجوده . وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير
إلى فضله وإحسانه ولطفه .

فوجهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقه ، وثناء بذكر
وصفه وعِزّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمة « تبارك » جمعُ الثناء عليه — سبحانه .

« الذي نزل الفرقان » وهو القرآن « على عبده » : فأكرمه بأن نَبَاهُ وَفَضَّلَهُ ،
وإلى الخلق أرسله ، وبيّن مُعْجَزَتَهُ وأَمَارَةَ صِدْقِهِ بالقرآن الذى عليه أنزله ، وجمله بشيراً
ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جل ذكروه : ﴿ الذى له مُلْكُ السموات والأرض ﴾

تَفَرَّدَ بِالمُلْكِ فلا شريك يساهم ، وَتَوَحَّدَ بِالجلالِ فلا نظير يُقَابِلُهُ ؛ فهو الواحد
بلا قسيم فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيه فى حقه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكروه : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون

شيئاً وهم يُخلَقون ولا يَمْلِكُونَ
لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يَمْلِكُونَ
موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾

اتخذوا من دون الله آلهة لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون نقيراً ، ولا يدعون عنهم

قوله جل ذكره: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا
إفكُ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون
فقد جاءوا ظُلماً وزوراً * وقالوا
أساطيرُ الأولين اكتبتهَا فِيهِ
نُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ
أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾

ظنُّوه كما كانوا ، ولمَّا كانوا بأَمْثَالِهِمْ قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهِمْ ، واستحدثوا
لأَمْثَالِهِمْ واستكاثروا — فقد قالوا من غيرِ حُجَّةٍ وَتَقَوُّلُوا ، ولم يكن لِقَوْلِهِمْ تحصيل ، ولأَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ تُرَاهِمُهُمْ (٢) التي لا يُدْرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت
ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتاب — الذي أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السموات
والأرض — لا يَقْدِرُ أحدٌ على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا (٣) من الوقت الذي أتى به أعداء
الدين ، وهم على كثيرهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته ؛ فادَّعوا تكذيبه . وانقطعت
الأعصار وانقضت الأعمار ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فانتفى الرِّيبُ عن صدِّقه ، وَوَجِبَ
الإقرارُ بحقِّه .

قوله جل ذكره: ﴿وقالوا ما لَهِذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

(١) هــكذا في م وهي في ص (حياة ولا نشورا) والمعنى يتقبلها أيضاً .
(٢) هـكذا في م وهي في ص (برهانهم الذي...) ولـكنا آثرنا (ترهانهم) بدليل التناهي في (كانت) مكرراً .
(٣) هـكذا في ص وهي في س (ولو تساعدوا) .

وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ
 مَلَكَ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى
 إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
 يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ
 تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا *
 أَنْظَرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
 فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا *
 تَبَارَكَ الَّذِي (١) الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
 خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿٢﴾

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يميئونه بكونه بشراً من جنسهم يمشى في الأسواق، ويأكل
 الطعام، وعبوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ فَيُرُونَ عِيَانًا؟ وهَلَّا جَعَلَ لَهُ الْكَنُوزَ
 فَاسْتَكْبَرَ مَالًا؟ وهَلَّا خُصَّ بِآيَاتٍ— اقترحوها— فَتَقَطَعَ الْعَذْرُ وَزِيلَ عَنَّا إِشْكَالًا؟ وما هذا
 الرجل إلا بشرٌ تعتربه من دواعي الشهوات ما يعترى غيره أ فأى خصوصية له حتى تَزَمَنَّا
 متابعته ولن يُظهِرَ لنا حجة؟ فأجاب الله عنهم وقال: إِنْ الْحَقُّ قَادِرٌ عَلَى تَمْلِكِكَ مَا قَالُوا
 وَأَضَاعَفَ ذَلِكَ، وفي قدرته إظهار ما اقترحوه وأضعاف ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخدير (٢)
 بعد ما أزيح العذرُ باظهار معجزة واحدة، واقترح ما يهون تحكُّمهم على التقدير، وليس
 لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا، لأن حُكْمَ اللَّهِ بِالشَّقَاوَةِ
 سابق لهم، وقال:

(١) يذكر ابن عباس أنه لما عبر المشركون محمداً (ص) بالفاقة أقبل رضوان خازن الجنة عليه وقال:
 يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده
 في الآخرة مثل جناح بعوضة فقال النبي: يا رضوان لا حاجة لي فيها، لأحب إلى أن أكون عبداً صابراً
 شكوراً فقال رضوان: أصبت أصابك الله. ورفع الرسول بصره فإذا منازل فوق منازل الأنبياء وغرفهم
 فدعا النبي: اللهم اجعل ما أردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة عندك في الشفاعة يوم القيامة.
 (٢) يمكن أن تكون (التحيز) لتسجيم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهون) ولكننا لا نستبعد
 أن تكون (التحيز) بالحاء لكثرة جدلهم حول ما ينبغي— في تصورهم— لرسول.

﴿ بل كذبوا بالساعة وأعدت لنا لجن
كذب بالساعة سميراً ﴾ .

فهم في حُكْمِ الله من جملة الكفار ، والله أَعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيد الأبد . .
فلا محالة يُمتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلموا فلا يستطيعون سبيلاً » : دليل على جواز
التكليف بما لا يقدر عليه العبد في الحال ، لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم
معاثيون مكفون .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا
لها تغيظاً وزفيراً ﴾ .

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتجان بها ، ونسيم الجنة يوجد
قبل شهودها والدخول فيها ، والنار تُسجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزِين منذ
سنين قبل المستمتعين بها . وكذب من أحال^(١) وجودها قبل كون سكانها وقطنها من
المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتها التي لا تسكون إلا بوجود حيث قال :

﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً
مقرنين ذعوا هنالك ثبوراً *
لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً
وادهوا ثبوراً كثيراً ﴾ .

راحة الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيضيق عليهم مكانهم ،
ويضيق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا يتخلصون

(١) لهذا الزأى أهميته حيث يرى كثير من المعتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما
يوجدان في الآخرة عند الجزاء ، واجمع المعتزلة — بخلاف جهم وحده — أنها لا تقتبان ولا يفي
أهلها ، وم في هذا يتفقون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهم لذلك فقد ذكرها النهرستاني في (الملل والنحل
ج ١ ص ١١١ ط الخانجي) بدعوى أن تلذ أهل الجنة بتعريفها وتألم أهل النار بحجبتها حركات تتناهى مع
أن نصوص القرآن صريحة في دواهما . . والتشبيري الأشعري يصرح بذلك في الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولسكنها آلام لا تنامي، ويحزن لا تنفضي؛ كلما راموا فرجة قيل لهم: فلن تزيدكم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿ قُلْ أَذْكَاءَ خَيْرٌ أَمْ جَمَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾

المتقون أبدأً في النعيم المقيم؛ حور وسرور وجور، وروح وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذ شراب وكسات محاب، وبسط قلب وطيب حال، وكال أنيس ودوام طرب وتمازج جنك، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق. والأسماء أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها^(١). ثم فيها ما يشاءون، وهم أبدأً مقيّمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره: ﴿ لهم فيها ما يشاهون ﴾ .

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما علم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتهم، ويمنع من قلوبهم مشيئته .

قوله جل ذكره: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلُّوا عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾

الله يحشر الكفار ويحشر الأصنام التي عبدوها من دون الله، فيحييها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتهم؟ فيتبرأون . كنه تهويل وتعظيم للشأن، وإلا فهو علم بما كان وما لم يكن . فالأصنام تنبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلال، فيلقون في النار، ويبقون في الوعيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ :

(١) هذا تبيين هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التي في الآخرة .

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا بشرّاً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم . وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضكم لبعضٍ
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بصيراً » .

(فُضِّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضول بالصبر والرضا ، والفاضل بالشكر على العطاء) (١)
وخصّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصّ قوماً بالمعاني ، وآخرين بالأسقام والآلام ، فلا لِينُ نِعْمَةٍ مناقب ، ولا لِيَمْنٌ امتحنه معائب . . فبحكْمِهِ لا يَجْرُمُهُمْ ، وبفضله لا يفعلهم ، وبإرادته لا بعبادتهم ، وباختياره لا بأوضاعهم ، وبأقداره لا بأوزارهم ، وبه لا يَمُرُّ .

قوله : « أَتَصْبِرُونَ ؟ » استفهام في معنى الأمر ، فَمَنْ سَاعَدَهُ التوفيقُ صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبي وكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذاب ، ولا ينتظرون الحشر كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله . فَمُنْكَرُ الرُّؤْيَةِ من أهل القِبْلَةِ — ممن يؤمن بالقيامة والحشر — مُشَارِكٌ لهُوْلَاءِ في جُحْدِ مَا وَرَدَ به الظُّهْرِ والنَّقْلِ ؛ لأنَّ النَّقْلَ كما وَرَدَ بِكَوْنِ الحَشْرِ وَرَدَ بِكَوْنِ الرُّؤْيَةِ لِأهل الإيمان (٢) . فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلِّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول

(١) ما بين القوسين في م وغير موجود في ص .
(٢) يهود القيسري بعد قابل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك هادياً ونصيراً »

الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهِم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

اقترحوا شيئين : رؤية الملائكة ورؤية الله ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفى ، ولكن تقول الملائكة لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حجراً محجوراً » : أى حراماً ممنوعاً يعنى رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحمله على ذلك أولى من حمله على الجنة ، ولم يجر لها هنا ذكر . ثم فيه إشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »^(١) فكما لا تكون للكفار إشارة بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤية للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيهم وخاب جهدهم ، وضاع عمرهم وخسرت صفتهم وانقطع رجائهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهِمْ ، وتنادى إلى قلوبهم من الراحة ما يصبغ عن وصفه شرحهم ، ويتقاصر عن ثنائه نُظْفُوقُهُمْ ، حيث يسمعون قوله : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحق لأجله : « وقدمنا إلى . . . » فهُمْ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْبِجِيَّةِ مَا يَشْغَلُهُمْ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِقَوْلِهِ : « فجعلناه هباءً منثوراً » ويقولون : ياليت

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنسا أعمال أهل الدارين ثم لا يُقبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها : وقد منا إلى ما عملوا من عمل . . . ، لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلال وموجبات الخجل من أعمالهم عدّوا ذلك من أجل ما ينالون من الاحسان إليهم^(١) ، وفي معناه أنشدوا :

سأرجع من حجٍّ عامي مُجْجلاً لأنّ الذي قد كان لا يُتَقَبَلُ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ .

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصون إليها ، والمكتفون بوجدها ، فحسنت لهم أوطانهم ، وطاب لهم مستقرُّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾ .

يريد يومَ القيامةِ إذا بدتْ أهوالها ، وظهرت للمبعوثين أحوالها عمَلوا وتحققوا — ذلك اليومَ — أنّ الملكَ الرحمن ، ولم يتخصَّصْ ملكه بذلك اليوم ، وإنما علمهم ويقينهم حصل لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعي الأغيار ، وتنتفي أوهام الخلق فلا يتجدد له — سبحانه — وصف ولكن تتلاشى للخلق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليل الخطاب يقتضي أنّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرق ، فيجب ألا يكون مؤمن إلاً وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَبْغُ الظالمُ على يديه ﴾^(٣)

(١) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، نأمل أن يظن إليها القارئ ويستمتع بها .
(٢) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معقود على الفضل الإلهي ، فكما استصغر العابد عبادته بجانب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى في التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . . وفي هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة : إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار .
(٣) قيل نزلت هذه الآية في أبي بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد في مبارزة ، وقيل نزلت في عقبه بن أبي مبيط وكان مخالفاً لأبي .

يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول
سبيلاً * يَا وَيْلَتَا لَئِن لَّمْ أَتَخَذْ فَلَانًا
خَلِيلًا *

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرور المؤمنين بمصاحبة
أخذانهم وأحبائهم فى الله ، وأما الكافر فيُضِلُّ صاحبه فيقع معه فى الثبور ، ولكن المؤمن
يهدى صاحبه إلى الرشيد فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي
اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنة المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام —
أنه قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » فَن شكا من الله فهو جاحد ، ومن شكا إلى الله
فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخَلِّ نبيًا من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سَلَطَ عليه عَدُوًّا فى
وقته ، إلا أنه لم ينادِرْ من أعدائهم أحداً ، وأذاقهم وبال ما استوجبوه على
كفرهم وغييهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكفى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنه المؤمنين ماورد فى الخبر : أن كل أمة ترى فى القيامة الضم الذى عبده
يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فَيُلْقَوْنَ فيها ويبقى المؤمنون ، فيقال لهم : ماوقفكم ؟ فيقولون :
إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نر معبودنا ! فيقال لهم : ولورأيتموه . . فهل تعرفونه ؟
فيقولون : نعم . فيقال لهم : بِمَ تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً فى صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم .
فيقولون : معاذ الله .. نعوذ بالله منك ! ما عبدناك . فيتجلّى الحقُّ لهم فيسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهل عليك حفظه ؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب ، ولأنه
لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين ..
وكثرة نزوله كانت أوجب لسكون قلبه وكمال رَوْحِه ودوام أُنسِه (١) ، فجبريل كان يأتي
في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقت من السكوات والأموال الحادثة ، وذلك أبلغ
في كونه معجزةً ، وأبعد عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة
بمن سواه حاصلًا (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ
بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

كان الجواب لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفتحاً ، وفساد ما يقولونه موضحاً ، ولكن
الحق — سبحانه — أجرى السنة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شفاعةً وبصيرةً ، ولهم
الإعني وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم في ما لهم فقال :

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ
سَبِيلًا ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمانة لإهانتهم ، وإن في الخبر : ﴿ الَّذِينَ أَمْشَاهُم الْيَوْمَ

(١) لأنه كتاب يحمله رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) أى ان اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع امورم آية كونه معجزة ؛ بمكس ما يتخرص
به المضالون الملحدون الذين يدعون ان محمداً كاتب هذا القرآن ، وانه أوتى ذلك خارقاً كان يجعله يكتب
للناس ما يابى احتياجهم ويحل مشاكلهم . . خرسات السانهم إن يقولون إلا زوراً .

على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم» (١) ، وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ

وجعلنا معه أخاه هارونَ وزيراً ﴾

قلماً يجري في القرآن لنبينا — صلى الله عليه وسلم — ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عَقِيْبَهُ موسى عليه السلام . وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت في باب البلاغة أمَّ لا سبباً إذا كانت في كل مرة فائدةً زائدة (٢) .

ثم بين أنه قال لها :

﴿ فقلنا اذهباً إلى القوم الذين

كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ﴾

أى فذهباً ففجَّحَدَ القوم فدمرناهم تدميراً (٣) أى أهلكتناهم إهلاكاً ، وفي ذلك تسليةٌ للنبي — صلى الله عليه وسلم — فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووعدُّ له بالجميل في أنه سيهلك أعداءه كُلَّهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقومَ نوحٍ لَمَّا كَفَرُوا بِالرُّسُلِ

أغرقناهم وجعلناهم للناس آيةً

وأعدنا للظالمين عذاباً ألماً ﴾

أحللناهم العقوبة كما أحللتنا بأمثلهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم . ثم عقب هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرسِّ ، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

(١) القسم الأول من الخبر على النحو التالي : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم » قيل يا رسول الله : كيف يحشرون على وجوههم فقال عليه السلام : الذين أمشام

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق ان نبهنا إليه عن موقف القشيري من التكرار .

(٣) بلغت القشيري نظرنا إلى ما يعرف في البلاغة بإيجاز الحذف ، فقد اكتفى بذكر اول القصة واخرها وقد احسن القشيري حين وطأ لذلك بكلام في القصة الواحدة التي تعاد اكثر من مرة .

به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطيباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً
 لِسِرِّه ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سبيلك من يعاديه ، ويدمر من يناويه ، وقد فعل من ذلك
 الكثير في حال حياته ، والباقي بعد مُضِيِّه — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا
 هُزُوًا أَهْنًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ

رسولاً . . . ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته ، فاذا أخبر الله وقصَّ عليه
 ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ لِّلْسَلْوَةِ وَأَقْرَبَ مِنَ الْأُنْسِ ، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا
 لأحبابهم ما لقوا في أيامِ امتحانهم كما قال قائلهم :

يودُّ بأن يمشى سقيماً كَعَلْمِهَا إِذَا سَمِعْتَ مِنْهُ بِشَكْوَى تَرَأْسِلُهُ
 وَيَهْتِزُّ لِمَعْرُوفٍ فِي طَلَبِ الْعَلَى لَتَذُكَّرَ يَوْمًا عِنْدَ سَلْمَى شَمَائِلُهُ

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بعين الازدراء والتصغير لشأنه ،
 لأنهم كانوا لا يعرفون قدره ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ

تكون عليه وكيلاً ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يهوون ، يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يجرون على مقتضى
 ما يقع لهم . والمؤمن يحكم الله لا يحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان (٢) بين رجل وبين رجل .
 والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هَوَاهُ ، وملتحق بالذين ذكرهم الحق بالسوء في هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ

أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

(٢) فرق بين الشينين فرقاً وفرقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل ما شرقت به بين الحق والباطل .

كالأنعام التي ليس لها هم إلا في أكلة وشربة ، ومن استجاب حظوظ نفسه فسكالبهايم . وإن الله — سبحانه — خلق الملائكة وعلى العقل جبهلم ، والبهايم وعلى الهوى فطرهم ، وبني آدم وركب فيهم الأمرين ؛ فمن غلب هواه عقله فهو شر من البهايم ، ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً *

قيل نزل الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بعض أسفاره وقت القبولة في ظل شجرة وكانوا خلقاً كثيراً فمدَّ الله ظلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرض كلها ظلاً ، ثم إذا طلعت الشمس ، وانبسط على وجه الأرض شعاعها فكل شخص يبسط له ظل ، ولا يصيب ذلك الموضع شعاع الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال . وذلك من أمارات قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظل والضوء والنور .

قوله : « ولو شاء لجعله ساكناً » : أى دائماً . « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ؛ أى حال ارتفاع الشمس ونقصان الظل .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظلَّ العناية على أحوال أوليائه ؛ فتقومهم في ظل الحماية ، وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الكفاية ، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية .

ظلُّ هو ظلَّ العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ، والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبي صلى الله عليه وسلم : « ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كيف مدَّ الظلَّ » سترًا لما كان كاشفة به أولاً ، إجراءً للستر

في إخفاء الحال عن الرقيب . قال موسى عليه السلام : « كُنْ تَرَانِي » . وقال لنبينا عليه السلام :
« أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ » وشتان ما هما !

ويقال أحياناً قلبه بقوله : « أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ » إلى أن قال : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » فجعل
استقلاله بقوله : « أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياناً بقوله :
« أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ » ثم أفناه . بقوله : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » وكذا سُنَّته مع عباده ؛ يُرَدُّدُهُمْ بَيْنَ
إِفْنَاءٍ وَإِبْقَاءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسَاسًا
وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ^(١) وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

جعل الليل وقتاً لسكون قومٍ ووقتاً لانتزاع آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون في ليالهم ،
والحبهون يسهرون في ليالهم إن كانوا في رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لكامل أنسهم ،
وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النومُ لكامل قلقهم ، فالسهرُ للأحبابِ صِفةٌ ؛ إمَّا لكامل
السرور أو لهجوم الهموم . ويقال جعل النومَ للأحبابِ وقتَ التجلُّى بما لا سبيلَ إليه
في اليقظة ، فإذا رأوا ربَّهم في المنام يؤثرون النومُ على السَّهرِ ^(٢) ، قال قائلهم :

وإني لأستغنى وما بي نَعْسَةٌ لعلَّ خيالاً منك يلقى خيالياً

وقال قائلهم :

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي فَأَحْبَبْتُ التَّمَنُّسَ وَالْمَنَامَا

ويقال النوم لأهل الغفلة عقوبةٌ ولأهل الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه —

يُدْخِلُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ ضَرُورَةً رَحْمَةً مِنْهُ بِنَفْسِهِمْ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كَدِّ الْمَجَاهِدَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرَى

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً طَهُورًا ﴾

(١) السبت = القطع . والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقيل السبات = اللوث ، ولسبوت
الميت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » ، ويمضه ذكر النشور
في مقابلته .

(٢) ذكر القشيري في باب « رؤيا القوم » برسائله أمثلة كثيرة للكرامات التي تحققت للأولياء أثناء
نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم في مجرى حياتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رِيَّاحَ الْكَرَمِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ ذَوِي الْحَاجَاتِ فَتَزِعُهَا إِلَى طَلَبِ مِبَارِهِ ،
 وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْوَلَايَةِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِ فَتَطْهَرُهَا مِنْ جَمِيعِ الْإِرَادَاتِ فَشَكَتَى بِاللَّهِ ،
 وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْخَوْفِ عَلَى قُلُوبِ الْعُصَاةِ فَتَحْمَلُهُمْ عَلَى النَّدَمِ ، وَتَطْهَرُهَا مِنَ الْإِصْرَارِ فَتَرْجِعُ
 إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْأَشْتِيَاقِ عَلَى قُلُوبِ الْأَحْبَابِ فَتَزِعُهَا عَنِ الْمَسَاكِنَاتِ ،
 وَتَطْهَرُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ الْوَاوَعِجِ فَلَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا بِالْكَشْفِ وَالتَّجَلِّيِ .

ويقال إذا تَنَسَّمَ الْقَلْبُ نَسِيمَ الْقُرْبِ هَامَ فِي مَلَكُوتِ الْجَلَالِ ، وَامْتَحَى عَنْ كُلِّ
 مَرْسُومٍ وَمَعْهُودٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ *

لِنُنَجِّيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْسَاءً وَنُسْفِيَهُ
 مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا
 فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١﴾ .

أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الغياض والرياح ، وأنبت به الأزهار والأنوار ،
 وأنزل من السماء ماء الرحمة فَمَسَّلَ الْعِصَاةُ مَا تَلَطَّخُوا بِهِ مِنَ الْأَوْضَارِ ، وَمَا تَدَنَسُوا بِهِ
 مِنَ الْأَوْزَارِ .

و « الطُّهُورُ » هُوَ الطَّاهِرُ الْمُطَهَّرُ ، وَمَاءُ الْحَيَاءِ يُطَهِّرُ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ عَنِ الْجَنُوحِ
 إِلَى الْمَسَاكِنَاتِ وَمَا يَتَدَاخَلُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ الْغَفَلَاتِ . وَمَاءُ الرِّعَايَةِ يُنَجِّيَ بِهِ قُلُوبَ
 الْمُشْتَاقِينَ بِمَا يَتَدَارَكُهَا مِنْ أَنْوَارِ التَّجَلِّيِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهَا عَطَشُ الْأَشْتِيَاقِ وَيَحْصُلُ فِيهَا مِنْ
 سَكِينَةِ الْأَسْتِقْلَالِ ، وَيَجِي بِهَ نَفُوسًا مَيْتَةً بِاتِّبَاعِ (١) الشَّهْوَاتِ فَيُرِدُّهَا إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَاتِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ

نَذِيرًا ﴿١﴾

(١) الباء في (باتباع) معناها (بسبب) .

إِنَّ اللَّهَ — سبحانه — خصَّ نبينا صلى الله عليه وسلم بأن فضَّله على الكافة ، وأرسله إلى الجملة ، وبألا يُنسخَ شرَّعه إلى الأبد . وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة ، حيث قال : « ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً » وهذا كما قال : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك » (١) .

وقصدُ الحقُّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم .

وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتناً بكثرة ما كان يُسأل ، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رؤسلاً ، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام ، فضاق قلبُ موسى وقال : يارب ، إني لا أطيق ذلك ! فقبض الله أرواحهم في ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم

به جهاداً كبيراً ﴾

أى كُنْ قائماً بحقنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بين سوانا ، فإنَّنا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ ، ولا نرفعُ عنكَ ظِلًّا عنايتنا بحالٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مرَّجَ البحرين هذا

عَذْبُ فُرَاتٍ وهذا مِلْحٌ أَجَاجٌ

وجعل بينهما بَرْزَخاً وَحِجْراً

مَحْجوراً ﴾ .

البحر المِلْح لا عذوبة فيه ، والعَذْبُ لا ملوحة فيه ، وهما في الجوهريَّة واحد ، والكنهه سبحانه — بقدرته — غَايَرَ بينهما في الصفة ، كذلك خَلَقَ القلوبَ ؛ بعضها مَعْدِنُ اليقينِ والعرافين ؛ وبعضها مَحَلُّ الشكِّ والكفران .

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوفَ والرجاء ، فلا الخوف يغلب الرجاء ، ولا الرجاء يغلب الخوف .

(١) آية ٨٦ سورة الإسراء .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلبَ المؤمنِ مضيئاً (مشرقاً^(١)) وقلبَ الكافرِ
أسودَ مظلماً ، هذا بنور الإيمانِ مزيّن ، وهذا بظلمة الجحودِ مُعَمَّم .

ويقال قلوبُ العوامِ في أسرِ المطالبِ ورغائبِ الحظوظِ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَمَقَةٌ عن
المطالبِ ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي خَلَقَ مِنَ المَاءِ
بَشَرًا لَجَمَلِهِ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ
رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

الخالقُ متشاكلون في أصلِ الخَلْقَةِ ، متماثلون في الجوهرية ، متباينون في الصفة ، مختلفون
في الصورة ؛ فنفسُ الأعداءِ مطاياهم تسوقهم إلى النارِ ، ونفوسُ المؤمنينِ مطاياهم تحملهم
إلى الجنةِ . والخالقُ بَشَرٌ . . ولكن ليس كلُّ بَشَرٍ كبشرِ ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعَى إلا في
مخالفتِهِ ، ولا يعيشُ إلا بنصيبِهِ وَحَظِّهِ ، ولا يحتملُ الرياضةَ ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحةِ
والخساسةِ ، وواحدٌ وليٌّ لا يفتَرُ عن طاعتهِ ، ولا ينزِلُ عن هِمَّتِهِ ، فهو في سماءِ
تعززه بعبودِهِ .

وبينهما للناسِ مناهلٌ ومشاربٌ ؛ فواحدٌ يكون كما قال :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَاهِرًا ﴾

يكتفي بالمنحوتِ من الخشبِ ، والمصنوعِ من الصخرِ ، والمُتَّخَذِ من النحاسِ ، وكلِّها
جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أَنَّهُ لا يلتفتُ إلى العرشِ — وإن علا ، ولا ينقاد بقلبه
لخالقٍ — وإن اتصف بمناقب لا تُحصَى .

(١) وردت في م ولم ترد في س .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ .

رسولاً مبشراً ، مأموراً بالإندار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعمت التبليغ ، غير طالب منهم أجراً ، وغير طامع في أن تجد منهم حظاً .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

سَبِيلًا﴾ .

«إلا» أداة استثناء منقطع ، إذا ابتغوا السبيل إلى ربهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم ، فهو لمن أقبل بشيرٌ ، ولِمَنْ أَعْرَضَ نَذِيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي

لَا يَمُوتُ﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله . وحقه وأصله عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلها حِصَالَةٌ من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه .

فاذا عرّفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا عَلمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا من قِبَلِ الله — حصل له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ قَرَضٌ ، وهو من شرائط الايمان ، فإن الله تعالى يقول : «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»^(١) وما زاد على هذا القَدْرِ — وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار — فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقررَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكلِّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم : إمّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بال حاصل له

(١) آية ٢٢ سورة للمائدة .

والطلب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نهينا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهي أن القشيري يحاول أولاً استمداد المصطلح الصوفي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذي هو ركن هام من أركان الطريق الصوفي له أصل في القرآن . ثم تأتي من بعد ذلك مرحلة البحث في تطور هذا الأصل ونموه في بيئة التصوفة .

فلا يستزيد . ثم اكتفاء كل أحدٍ يختلف في القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفى بوعده لأنه صدقته في ضمانه ، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعده . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بزمان الرب ، أو سكون الجاش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفى بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ، ويعمل على طاعته ، ولا يراعى إنجاز ما وعده ، بل يكتفى بوعده إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض (١) ، وهو أن يكفل أمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار ، ويستوى عنده وجود الأسباب وعدمها ، فيشتغل بأداء ما أزمه الله ، ولا يفكر في حال نفسه ، ويعلم أنه مملوك لمولاه ، والسيد أولى بعبده من العبد بنفسه (٢) .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد راحةً في المنع ، واستعذب ما يستقبله من الرذ . . . وتلك هي مرتبة الرضا (٣) ، ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لمن دونه من الخلاوة في وجود المقصود .

(١) الواقع أن القشيري هنا متأثر بالآراء الكثيرة التي أدل بها الشيوخ في هذا الموضوع ، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق ، الذي يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول كذلك : التوكل بدلية والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . ويقول كذلك : التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين . (الرسالة ص ٨٥) .

(٢) يروى في هذا الباب أن جماعة سألوا الجنيد : أين نطلب الرزق ؟

فقال : إن علمت في أي موضع هو فاطلبوه . قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك .

فقال : إن علمت أنه ينسأكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت فننتوكل ؟

فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ؟

فقال : ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها) .

(٣) كذلك ربط السراج في « لعمري » بين التوكل والرضا بوصفهما مقامين متتاليين في مقامات الطريق

(اللع ص ٧٩ من أسفل) .

وبعد هذا الموافقة ، وهي ألا يجد الراحة في المنع ، بل يجد بدال هذا عند نسيب القرب زوائد الأُنس بنسيان كلِّ أَرَبٍ ، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب ؛ فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا — وأصحاب الرضا يمدون ذلك حجاباً — فكذلك أهل الأُنس بالله .. بنسيان كلِّ فَقْدٍ وَوَجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يمدون النزول إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا تقصاناً في الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جلته بالسلبية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الحمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء .. وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنس ولا هيبية ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشة ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم ^(١) . فأمّا ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين — على تباين شَرِيهِم — يختلف على حسب اختلاف محالهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد ؛ لا شيء من قبيله إلا أن يرضعه من هو في حضنته ^(٢) .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .
ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجزيان القسمة لا يضره السكسب ، ولا يقدر في توكله ^(٣) .

ويقال عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا ، وإذا منعوا صبروا . وخواصهم إذا أعطوا آثروا ، وإذا منعوا شكروا .

(١) هذا الترتيب الذي ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولاً يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات — التي هي جهود — إلى الأحوال التي هي من عين الجود . وواضح أن (الرضا) يحمل في طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد عالج القشيري هذه الظاهرة في رسالته ص ٩٧ .

(٢) القشيري متأثر بأقوال الشيوخ في ذلك : نحو « للتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ندى امه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية اطفال في حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩ .

(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الصوفي الحق لا يتعارض مع السكسب ، ولا يتعارض معه السكسب .. وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتواكل .

ويقال الحقُّ بوجود على الأولياء — إذا توكلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويوجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأربُ فحقى يكون الطلب ؟

ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأما التوكل على الله في إصلاحه — سبحانه — أمورَ آخرة العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاءً . فالواجبُ في الأسباب الدنيوية أن يكون السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأما في أمور الآخرة وما يتعلقُ بالطاعةِ فالواجبُ الهدارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والمخروجُ عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفشل .

والذى يَتَّصِفُ بالتواني في العبادات ، ويتباطؤ في تلافى ماضيِّه من إرضاء الخوصوم والقيام بحقِّ الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوَكِّلٌ على الله وأنه — سبحانه — يعفو عنه فهو مُتَمَهِّمٌ معلولُ الخلال ، ممكورٌ مُسْتَدْرِجٌ ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستندُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرأُ بِسِرِّهِ من حَوَالِهِ وقُوَّتِهِ . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشمله في الخلال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصلَ — فالوقتُ غالبٌ ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم : الوقت سيفٌ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وما بينهما في ستة أيامٍ ثم استوى

على العرشِ ﴾

انتظم به السكونُ — والعرشُ من جملة السكون — ولم يتجمل الحقُّ — سبحانه — بشيءٍ

(١) في هذا المعنى يقول القشيري « أى كما أر السيف قاطع فالوقت بما بمضيه الحق ويجريه غالب ، وكأ أن السيف ابن مسه قاطع حده فن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحسكته نجما ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . وسعت الاستاذ أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار برِّيَّتِهِ ؛ فعلاؤه على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝ ﴾ .

أقبل الحقُّ — سبحانه — بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزه فلذلك وجدوه ؛ فطرَّهم على سِمَةِ البُعْدِ ، وَعَجَنَ طِينَتَهُمْ بِمَاءِ الشَّقَاوَةِ وَالصَّدِّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجلد .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَمَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ ﴾ .

زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْبُرُوجَ ، وَبَثَّ فِيهَا السُّكُوكَ ، وَصَانَ عَنِ الْفُطُورِ وَالتَّشْوِيشِ أَقْطَارَهَا وَمَنَازِلَهَا ، وَأَدَارَ بِدِرْتِهِ أَفْلَاقَهَا ، وَأَدَامَ عَلَى مَا أَرَادَ إِسْكَانَهَا . وكما أثبت في السماء بروجاً (أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً) (٢) ؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوت) (٣) شمسها وقمرها ونجومها ، وبروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شمسها ونجومها . وتلك النجوم التي هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم ، وقرُ القلوبِ المعرفةُ .

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لآراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسألة تزهبه عن المسكانية ، أو من ناحية خالق الله ما بين السموات والأرض وهل المقصود بذلك خلق افعال الانسان . وقد ناقش الباقلاني في كتابه (التمهيد في اصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع ان القشيري — تلميذ الباقلاني — متأثر اراء استاذه إلى حد كبير ، وإن كان الباقلاني اقل تأويلاً للصفات الخيرية منه .

(٢) غير موجودة في ص وموجودة في م .

(٣) في ص (بيوت) وفي م (بيوت) وقد رجعتنا هذه لأن الراجح (بيت يبنى على سور للمدينة وفي أعلاها) كما جاء في المعاجم .

قُرُ السَّمَاءِ لَهُ تَقْصَانٌ وَمَحَاقٌ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ هُوَ يَدْرُ بِوَصْفِ السَّكَّالِ ، وَقُرُ الْمَعْرِفَةِ
أَبَدًا لَهُ إِشْرَاقٌ وَلَيْسَ لَهُ تَقْصَانٌ أَوْ مَحَاقٌ ، وَلِذَا قَالَ قَائِلُهُمْ :

دَعِ الْأَقْمَارَ تَخْبِئُوا أَوْ تَنْهَرِ لَهَا بَدْرٌ تَذُلُّ لَهُ الْبَدْرُ

فَأَمَّا شَمْسُ الْقُلُوبِ فِيهِ التَّوْحِيدُ ، وَشَمْسُ السَّمَاءِ تَغْرِبُ وَلَكِنْ شَمْسُ الْقُلُوبِ لَا تَغِيْبُ
وَلَا تَغْرِبُ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغْرِبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ

وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغْرِبُ بِاللَّيْلِ ، وَشَمْسُ الْقُلُوبِ سَلْطَانُهَا فِي الضُّوْءِ
وَالطَّلُوعِ بِاللَّيْلِ أُنْمٌ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدَّكِرَ أَوْ أَرَادَ
شُكْرًا .

الْأَوْقَاتُ مُتَجَانِسَةٌ ، وَتَفْضِيلُهَا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ عَلَى مَعْنَى أَنَّ الطَّاعَةَ فِي الْبَعْضِ أَفْضَلُ
وَالنُّوَابُ عَلَيْهَا أَكْثَرُ . وَاللَّيْلُ خَلْفَ النَّهَارِ وَالنَّهَارُ خَلْفَ اللَّيْلِ ، فَمَنْ وَقَعَ لَهُ فِي طَاعَةِ اللَّيْلِ
خَلَلٌ فَإِذَا حَضَرَ بِالنَّهَارِ فَذَلِكَ وَجُودٌ جُبْرَانُهُ ، وَإِنْ حَصَلَ فِي طَاعَةِ النَّهَارِ خَلَلٌ فَإِذَا حَضَرَ
بِاللَّيْلِ فِي ذَلِكَ إِتِمَامٌ لِنَقْصَانِهِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمشُونَ عَلَى

الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

الَّذِينَ اسْتَوْجِبُوا رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ هُمُ الَّذِينَ وَقُّوا لِلطَّاعَاتِ ، فَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى التَّوْفِيقِ
لِلطَّاعَةِ . وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ غَدَاً رَحْمَتَهُ هُمُ الْقَائِمُونَ بِرَحْمَتِهِ ، فَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى
طَاعَتِهِ . . هَكَذَا بَيَانُ الْحَقِيقَةِ ، وَبَطَاعَتِهِمْ وَصَلُوا إِلَى جَنَّتِهِ . . هَكَذَا لِسَانُ الشَّرِيعَةِ .

وَمَعْنَى « هَوْنًا » مُتَوَاضِعِينَ مُتَخَاشِعِينَ .

ويقال شَرَطُ التَّوَاضِعِ وَحَدُّهُ أَلَا يَسْتَحْسِنَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ ، حَتَّى قَالُوا (١) : إِذَا نَظَرَ إِلَى رَجُلِهِ لَا يَسْتَحْسِنُ شَيْئًا نَعْلَهُ ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ لَا يُسَاكِنُ أَعْمَالَهُ ، وَلَا يَلَاظِحُ أَحْوَالَهُ .
قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » : قِيلَ سَدَادُ الْمَنْطِقِ ؛ وَيُقَالُ مَنْ خَاطَبَهُمُ بِالْقَدْحِ فَهَمُ بِمَجَاوِبِهِ بِالْمَدْحِ لَهُ .

ويقال إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ ، الطَّاعِنُونَ فِيهِمْ ، الْعَائِبُونَ لَهُمْ قَابَلُوا ذَلِكَ بِالزُّفْقِ ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ ، وَالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ .
ويقال يُخَيَّرُونَ مَنْ جَفَاهُمْ أَنَّهُمْ فِي أَمَانٍ مِنَ الْمَجَافَاةِ (٢) .

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سَاجِدِينَ ، وَيَصْبِحُونَ وَاجِدِينَ ؛ فَوَجَدُوا صَبَاحَهُمْ نِمْرَاتٍ سُجُودٍ أَوْ رَوَاحِهِمْ ، كَذَا فِي الْخَبَرِ : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهِهِ بِالنَّهَارِ » أَيْ عَظُمَ مَاءُ وَجْهِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرُهُ بِالسُّجُودِ مُحْسَنٌ وَبَاطِنُهُ بِالْوُجُودِ مُزَيَّنٌ .
ويقال مُتَصَفِّينَ بِالسُّجُودِ قِيَامًا بِآدَابِ الْوُجُودِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾
* إِنَّهَا سَاعَتٌ مُسْتَقَرَّةٌ وَمُقَامًا *
يَجْتَهِدُونَ غَايَةَ الْجَهْدِ ، وَيَسْتَفْرِعُونَ نَهَايَةَ الْوَسْعِ ، وَعِنْدَ السُّؤَالِ يَنْزِلُونَ مَنزِلَةَ الْعَصَاةِ ، وَيَقْفِرُونَ مَوْقِفَ أَهْلِ الْإِعْتِدَارِ ، وَيَخَاطَبُونَ بِلِسَانِ التَّنَهَلِ (٣) كَمَا قِيلَ :

وَمَارُمْتُ الدَّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُ مَحَلَّةَ الْعَبْدِ الدَّلِيلِ

(١) هذا القول سمعه القشيري من شيخه الدقاق (الرسالة ص ٧٤) .
(٢) وردت (المكافاة) والصواب ان تكون (المجافاة) بمعنى انهم لا يتقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عادم أمن من انتقامهم أو على معنى أن مجافاة الأعداء لا تصيهم بأذى إذ ليس في مقدور أحد أن يؤذي أولياء الله .
(٣) وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة » رواه احمد عن عائشة ، والترمذي وابن أبي حاتم ، وقال الحاكم صحيح الاسناد .

قوله جل ذكره: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم
يقترُوا وكان بين ذلك قواماً﴾ .

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس ، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف ،
والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأما التضيقُ على النفسِ منعاً لها عن اتباع الشهوات
ولتعود الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المندوم .

قوله جل ذكره: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً
آخرَ ولا يقتلون النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ
إلاً بالحقِّ ولا يزنون﴾ (١)

« إلهاً آخر » : في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار .
وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توهمُّ المبارئ والمضارُّ من الأغيارِ شركُ .
« ولا يقتلون النفس . . . » من النفوسِ المحرَّمِ قتلها على العبد نفسه المسكينه ،
قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » (٢) . وقتل النفس من غير حق تمكينك لها من اتباع ما فيه
هلاكها في الآخرة ؛ فإنَّ العبد إذا لم يمهِّم مأموراً .

(١) (عن ابن عباس ان ناساً من اهل الشرك قتلوا فأكثرُوا وزنوا فأكثرُوا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة
والسلام فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو نخبرنا ان لما عملنا كفارة فزت الآية : « والذين
لا يدعون مع الله إلهاً آخر . . . » إلى قوله تعالى : غفوراً رحيماً) رواه مسلم عن إبراهيم بن دينار عن
حجاج . و (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟
قال : أن تجعل لله نداً وهو خالقك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ،
قال قلت ثم أى ؟

قال : ان تزاني حيلة جارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخارى ومسلم
عن عثمان بن ابى شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبي (ص) فقال : يا محمد أتيتك
مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت احب أن أراك على غير جوار ، فاما إذ أتيتني
مستجيراً فأنت في جوارى حتى أسمع كلام الله . قال : فأنى أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنت ،
فهل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . . وأسلم وحشى) .

(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطاب أن تقتلها بالحق^(١) ، وذلك بِذَنْبِهَا بسكين المخالفات ، فما فلاحك
إلا بقتل نفسك التي بين جنديك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

يضاعفُ لهم العذابُ يومَ القيامةِ بمسرات الفرقة وزفريات الحرقة . وآخرون يضاعف لهم
العذابُ اليومَ بترأكم الخذلان وورشك المهجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعفَ العذاب
في عقباه فهو الذي يكون مضاعفَ العذابِ في دنياه ؛ جاء في الخبر : مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لِي
اللَّهُ بِهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

فأولئك يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وكان الله غفوراً رحيماً .

إلا من تاب من الذنب في الحال ؛ وآمن في المال .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبته .

ويقال إن نقض توبته عملاً صالحاً أي جدد توبته ؛ « فهو لا يبذل الله سيئاتهم
حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان^(٢) .

ويقال يبذل الله سيئاتهم حسنات فيعفو لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يحو ذلّة زلاتهم ، ويثبت بدلتها الخيرات والحسنات ، وفي معناه أنشدوا :

ولما رضوا بالعفو عن ذى زلّة حتى أنالوا كفته وأفادوا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا ﴾

مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ

(١) تذكر كيف يفرق القشيري بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء
هنا (قتل النفس إلا بالحق) أي ذبحها بسكين المجاهدات في سبيل حق الله .

(٢) واضح من هذا الرأى مدى اتساع صدور الصوفية للأمل في الأخذ بيد العصاة ، فرحة الله
— في نظرم — أكثر رحابة من أن تضيق في وجه من عثرت أقدامه .

إِذَا ذَكَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿١﴾ .

يسمكونون في مواطن الصدق لا يرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلاً . وإذا مروا
بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضِينَ لَا يَسْأَلُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْحَالَةِ .
ويقال نزلت الآية في أقوام مرثوا — لما دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون
فيها الأصنام مرة — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ .
نم قال في صفهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانا » ؛
بل قالوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

قرة العين من به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً .
ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً ، ولخالفه أمره مفارقاً .
« واجعلنا للمتقين إماماً » الإمام من يقتدى به ولا يبتدع .
ويقال إن الله مدح أقواماً ذكر وارتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدعوا فيها
اختيارهم ، فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَجْمًا وَسَلَامًا ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثير من عطائه ويمده قليلاً ، ويقبل اليسير من طاعة العبد
ويمده كثيراً عظيماً ، يعطيهم الجنة ؛ قصوراً وحوراً ثم يقول : « أولئك يجزون الغرفة » ،
ويقبل اليسير من العبد فيقول : « فجاء بمجل سمين » (١) .

(١) آية ٢٢ سورة الناريات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلى لهم ليرَوْه من غير تكلف نقل ، ولا تحمل قطع مسافة (١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٢) : اليوم يحضر العبدُ بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة ، فهم على أرائكمهم — في مستقرِّ عزِّهم — يسمعون كلامَ الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أي صبروا عما نهبوا عنه ، وصبروا على الأحكام التي أجزاها عليهم بتركِ اختيارهم ، وحسن الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها حسنات مستقرّاً ومقاماً ﴾

مقيمين لا يرحلون منازلهم (٣) ، وفي أحوالهم حسن مستقرُّهم مستقرّاً ، وحسن مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : ﴿ قل ما يعبدكم ربّي لولا دعاؤكم

فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ .

لولا عبادتكم الأصنام ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادة وتسميتكم لها آلهة . . متى كان يخلدكم في النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابهال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذتم في الاستكانة والدعاء ، وتضرعتم رحمتكم وكشف الضر عنكم .

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيري في موضوع الرؤية في الآخرة .

(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(٣) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيري في نابيد تنعم أهل الجنة .

فهرس

الصفحة

- سورة بنى إسرائيل ٥
- سورة الكهف ٤٧
- سورة مرهم ٩٠
- سورة طه ١١٦
- سورة الأنبياء ١٦٣
- سورة الحج ١٩٩
- سورة المؤمنون ٢٣٨
- سورة النور ٢٦٤
- سورة الفرقان ٢٩٧

تم المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس
وأوله سورة الشعراء

دارالكتاب الفرع للطباعة والنشر
بالمتاهرة
فرع التوزيعية